

الباب الثاني

فنو وطنيتي

تمهيد — د

شعر الوطنية قبل شوقي

مضى أكثر الشعراء في القرن التاسع عشر إلى ثلثيه على خطأ سابقهم من شعراء العصر المملوكي والعثماني ، يصوغون الشعر في موضوعات ضيقة المجال من مدح وعتاب وغزل . يعبرون عنها بأساليب ركيكة سقيمة ، مثقلة بالبديع المتكلف . وليس في شعرهم حرارة العاطفة ، أو جمال الإبداع ، لأن أجنحتهم مريضنة ، وأذواقهم مريضة ، والمثل التي يحاكونها لا تبعث على تجويد . ونريد في هذه الدراسة أن نستشف ما بنفوس هؤلاء الشعراء أو ما بشعرهم من وطنية فلا نكاد نجد لها إلا في قلة ضئيلة منهم .

١ — وهم جميعا كلفون بالمدح على إكثار وإقلال . منهم السيد إسماعيل الخشاب (١٨١٥ م) والشيخ حسن العطار (١٨٣٤ م) والسيد علي الدرويش (١٨٥٣ م) . والسيد صالح مجدي (١٨٧٢ م) والساعاتي (١٨٨٠ م) والسيد علي أبو النصر (١٨٨٠ م) وعبد الله فكري (١٨٨٩ م) وعلي الليثي (١٨٩٦ م) . وقد أغرق بعضهم في المدح إغراقا ، مثل محمود صفوت الساعاتي (١٨٢٥ — ١٨٨٠ م) ، وله مدائح شتى في إسماعيل ^(١) وسعيد ^(٢) وتوفيق ^(٣) ، وليس في مدائحه

(١) ديوان الساعاتي ٨١،٤٥،٥ (٢) الديوان ٨٨،٣٠،٢٧،١١،٩ (٣) الديوان ٤٢،٣٩،٤٣

إشارة إلى حرية أو دستور أو استقلال . بل إنه طرب بمقدرة الخديو توفيق
على القضاء على بؤادر الثورة للحرية وللعدل ، ونستطيع أن نفهم ذلك من قوله :
ملكك بحسن الرأي دبر ملكه وقد يبلغ المأمول منهم تدبرا
أذل له التدبير عزة من طغى وحاول أن يسمو العلا فتحذرا (١)
وقد مدح شريف مكة محمد بن عون بقصائد كثيرة .
ثم جاء البارودي وصبري وشوقي وحافظ ، فمدحوا أيضا .
فللبارودي مدائح في إسماعيل وتوفيق وعباس (٢) .
والآخرين مدائح في توفيق وعباس وحسين وقواد . عدا مدائحهم للكبراء
والأصدقاء .

(٢) والجدير بالعناية — في هذا المقام — من شعر هؤلاء الشعراء ما يتصل
بالوطنية .

فنحن نجد في شعر الشيخ حسن العطار بصيصاً من الوطنية في قوله حينما شرع
نابليون يستعد لغزو الشام .

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم في مصر بين حمار وخمّار
وعن قريب لهم في الشام مهلكة يصنع لهم فيها آجال أعمار (٣)
ونجد في شعر السيد صالح مجدي تعريضا بالخديو إسماعيل وسرفه وترفه ، ودعوة
إلى اليقظة لندارك أمره في قوله :

رمى بلادكم في قعر هاوية من الديون على مرغوب جوميار
وأنفق المال لا منّا ولا كراما على بغى وقواد وأشرار
والمرء يقنع في الدنيا بواحدة من النساء وهو لم يقنع بمليار
ويكتفي ببناء واحد وله تسعون قصرا بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا أقال الله عثرتكم من غفلة ألبستكم ملابس العار

(١) الديوان ٤٣ (٢) ديوان البارودي ١/١٥، ١٦، ٤٥، ١٣١ و ٢/٢٦، ٩٩، ١٠٧، ١٦٣ .

(٣) الجبرتي ٤٤/٢ إشارة إلى ولوعهم بركوب الخمر وشرب الخمر .

وقد أسلفت في فتحها الوطنية نماذج من الشعر الوطني لرفاعة الطامطاوي ، وهو يجد بحق أسبق شعراء العصر الحديث إلى التفتي بتجديد مصر والدعوة إلى حريها ونباتها . ثم جاء البارودي فأسهم في السند على الحالة السياسية والمالية في عصر إسماعيل وتوفيق كقوله يحرض على طلب العدل في الأحكام .

قامت به من رجال سوء طائفة أدهى على النفس من يؤس على شكل
من كل وعد يكاد الدست يدفعه بغضا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل في خلل
فالكلم لا تعاف الضيم أنفسكم ولا تزول غواشيكم من الكسل ؟
فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا شكاله الريث فالدينا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا لكل منتزع سهمها ومختل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية ويرفل العدل في ضاف من الحلل^(١)
وكذلك أسهم عبد الله نديم (١٨٤٥ — ١٨٩٦ م) في الثورة العراقية بخطبه ومقالاته وشعره ، من ذلك قوله في أكتوبر سنة ١٨٨١ في جمهور بمحطة العاصمة حينما سافرت إلى دمياط الفرقة التي يقودها الأمير الأي عبد العال حلمي أحد زعماء الثورة العراقية ، واحتشد الجمهور في المحطة لتحية الفرقة وتوديعها ، وكان في المودعين عرابي والبارودي ، فخطب النديم قائلا لعرابي والبارودي وغيرهما من رجال الجيش :
حماة البلاد وفرسانها

من قرأ التواريخ ، وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف ، وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات . إلى أن قال :

وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول :
إليكم يرد الأمر وهو عظيم فإنني بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى فمن أين يأتي للديار نعيم ؟

وإن الفتي إن لم ينازل زمانه تأخر عنه صاحب وخيم
فردوا عنان الخيل نحو نخيم ثقله بين البيوت نسيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة فشددوا أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفاً فكن أرضاً وطأة فليس لمع لول اليمين حريم

وختم خطبته بقوله : وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال :
مات شهيد الأوطان . فنادى الجميع : رضينا بالموت في حفظ الأوطان^(١) .
وما زال يحدو للثوار إلى أن انفلت قواهم ، لكن عزيمته لم تُقل ، فبقي حياته كلها
وطنياً ثاراً مؤمناً بوطنه وحقه في الاستقلال .

لكن هذه الوثبة انتكست بالهزيمة في الثورة العراقية ، فضعفت النفوس الأبية ،
وخمدت الجذوة المتقدة ، فرأينا البارودي يتنصل من الثورة والثوار كما سيحييه في الحديث
عن قصائد شوقي في عراقى .

ووجدنا خوراً من عبد الله فسكروا في استعطافه الخديو توفيق ، وقد سجنه في الثورة
العراقية ثم أطلق سراحه :

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفه العُمرَا
لئن كانت أقوامٌ علىّ تقولوا بأمر لقد جاءوا بما زوروا نُكُرا
فما كان لى فى الشر باعٌ ولا يدٌ ولا كنتُ من يَسْغى مَدَى عمره الشرا
فعفوا أبا العباس لا زلت قادرا على الأمر إن العفو من قادرٍ أحرى
وحسبى ما قد مرّ من ضنك أشهر تجرعتُ فيها الصبرَ أطعمه مرَا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة ويعدل فيها اليوم فى طوله شهرا
أجملُ فى دين المروءة أنى أكابد فى أيامك البؤس والضرا ؟

الفصل الأول

حب مصر

وطني لو سفلت بالخالد عمه نازعتني إليه في الحلم نفسي شوقي

شوقي يحب مصر حبا يسرى في دمه ، ويستعذب الشقاء في هذا الحب وإن تخايل له
النعيم في الغدر ، ويعتقد أن قلبه أمضى في نصرة الوطن وسحق عداته من السيف ،
يقول في سنة ١٩٠٤ :

أحبك مصر من أعماق قلبي وحبك في صميم القلب نام
سيجمعني بك التاريخ يوما إذا ظهر الكرام على اللئام
لأجلك رحت بالدنيا شقيا أصد الوجه والدين أأما
وأنظر جنّة جمعت ذنبا فيصرفني الإباء عن الزحام
وهبتك غير هيّاب يراعا أشد على العدو من الحسام^(١)

ولقد كانت وطنيته هي الباعث على نفيه من مصر ، لأن المحتلين أيقنوا خطورة
شعره في التآليب عليهم ، والتنقيص مهم فأُميره مبعّد عن ملكه ، ومصر كلها برّمة
بقيود الحماية ، وتركيا تحارب إنجلترا ، وشوقي شاعر الأمير وصفية ، وشعره يوقظ
الغفلى ، ويشدو به الصبية والكهول .

ثم كان الإنجليز على ثقة من عدائه لهم ، واشتراكه في زعزعة الاحتلال كما سبق
في (بنابيع وطنيته) . فأُمرُوا بنفيه من مصر سنة ١٩١٥^(٢) ، فاختار الأندلس ،

وبقي بها إلى آخر سنة ١٩١٩^(١) ، فبرّح به ألم النفي ، وألم الغربة ، وألم الحنين إلى مصر .
فهر في إحدى قصائده يناجي طائراً رآه في وادي الطلح ، أو تخيله ، مناجاة تكشف
عن لوعة وهم لا عجز .

في هذه المناجاة نعى على الظلم الذي يفطم المرء عن وطنه ، وامتزج بالطائر النائح
امتزاجاً وجدانياً ، ولم لا ؟ ألم تجمع البلوى بينهما ؟ أليس الطائر يحن إلى مائه
وإلى عشه ؟ وشوق يحن إلى النيل وإلى وطنه ؟ أليس الطائر مهيبضاً مريضاً يتنقل
من غصن إلى غصن في تشاقل وإعياء ، وشوق سقيم أليم يحرق ساقه جرأ ؟ أليس
الطائر عليل النفس ، وكذلك شوق يجد الطب الذي يبرئ جسمه ولكنه لا يجد الطب
الذي يشفي نفسه ؟ أليس كل منهما يشعر بالوحشة وإن كان المكان جميلاً ؟

يأنح الطلح أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا	قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا	أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ، ريش الفراق لنا	سهماً وسُلّ عليك البين سكيننا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصديق	من الجناحين عى لا يلبينا
فإن يك الجنس يابن الطلح فرقنا	إن المصائب يجمع المصايينا
لم تأل ماءك تحضانا ولا ظمأ	ولا أدكارا ولا شجواً أفانينا
تجر من ذن ساقا إلى فن	وتسحب الذيل ترتاد الموائسنا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم	فن لروحك بالنطس المداوينا
أها لنا نازحى إليك بأندلس	وإن حملنا رفيقا من روايدنا ^(٢)

ولم يخطط على مصر لأنها نفتته ، فهو يعلم أن الحكومة المصرية أجبرت على إبعاده ،

(١) أبي شوقي ٨٩ ومذكراتي في نصف قرن . أحمد شوقي ٢٥٦/٣ .

(٢) الشوقيات ١٢٧/٢ الطلح : واد بظاهر إشبيلية كان ابن عباد شديد الولع به . عوادينا :
مصائبنا . ريش السهم : ألصق به الريش . ادكارا : تذكرنا . أساة : أطباء . النطس : الأطباء الخفاق .
رفيق : خصيب

ويعلم أن مصر تجزيه حبا بحب وإعجابا بإعجاب وأملا بأمل . لهذا يلتمس لها المَعذرة ، بل يذهب إلى أبعد من الإعذار ، فيصور مصر حانية عليه ، رائمة له ، أبعده وقلبها معلق به ، وخيالها لا يزاله ، أبعده تريد سلامته ، وترتقب أوبته ، وليس أليق بحالها هذه إلا حال أم موسى وقد وضعت وليدها في النهر على رعاية الله تريد نجاته من الذبح :

لكن مصر وإن أغضت على مقة عين من الخلد بالكافور تسقيننا
بنّا فلم نخل من رّوح يراوحنا من بر مصر ويريحنا يغاديننا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليم تلقيننا^(١)

ويحن إلى مصر في منقاه حنين الصب المستهام ، لم يسألها قلبه ، ولم يبرأ لفرقتها جرحه ، بل لا تزيده الأيام إلا حنيننا وأيننا ، فقلبه يهفو إلى مصر ولا يغفو ، وكلما استطال زمن الغربة اشتعل شوقا ، على أن المعهود أن الآشواق تفتر حداثها بالزمن وطوله .

وهو يبرع في تصوير قلبه يتطاير إذا ما سمع أجراس البواخر تصلصل ، أو سمع صفيرها يدوى ، فكلما صفرت هاجت فؤاده ، وود لو شارف بلاده ، ويدفعه الحنين إلى أن يتخيل أنفاسه الحرار مرجلا يفور ويحرك ، وقلبه شرعا يرف ويدفع ، ودموعه بحرا يموج ، فالباخرة تسير بنفسه وقلبه ودمعه ، ويود أن تأخذ سمتها صوب الإسكندرية الثغر الحبيب .

ثم يعلو به الحب والشوق فيتجاوز ما عرف عنه من توقير الدين ، فيقول : لو أن الجنة جعلت مثواه لهما فيها قلبه إلى مصر ، فلا تشغله أطايبها ونعيمها عن وطنه .

ويشهد الله على أن صورة وطنه ذابت في مقلتيه فلم تزايلهما .
وكأما تعتمد أن يقيم في منزل على البحر ليشهد السفن غادية إلى مصر ورائحة منها . يقول ابنه حسين : لم نلبث أن استأجرنا منزلا في ضاحية جميلة من ضواحي برشلونة تدعى فلندريرا ، وهي مرتفعة كثيراً عن قلب المدينة ، فكان في استطاعتنا

(١) الشوقيات ١٢٨/٢ مقة : حب . روح : خير ورحمة .

أن نشهد بسهولة بحرنا الأبيض المتوسط الجميل ، والسفن وهي رائحة غادية فيه ليل
نهار ، فيبعث منظرها فينا الحنين إلى الوطن ^(١) .
يقول شوقي :

وسلامصر : هل سلا القلب عنها	أو أسا جرحه الزمان المؤسى
كلما مرت الليلى الى عليه	رقّ والعهد في الليالى تقسى
مستطار إذا البواخر رقت	أول الليل أو عوت بعد جرس
راهب في الضلوع للسفن فطن	كلما ثرت شاعن بنقى
نفسى مرجل وقلبي شراع	بهما في الضلوع سيرى وأرسي
واجعل وجهك (الفنار) ومجرا	ك يد (الشعر) بين رمل ومكس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه	نازعتى إليه في الخلد نفسى
شهد الله لم يغب عن جفونى	شخصه ساعة ولم يخل حسى
يصبح الفجر والمسلة ناذي	وبالسرحة الزكية يمسى ^(٢)

ويكرر هذا الشوق في قصيدة أخرى ^(٣) .

وهو يستنكر أن يحرم الإقامة بوطنه بينما ينعم فيه الأجانب والإنجليز الغاصبون ،
ويعجب من هذا الحيف الذى يحرم الدوح على بلبله ، ويحله لأجناس الطيور
الوافدة ، ويدفع شريعة الحيف بحكمة رائعة أن كل وطن أحق بأبنائه ، وأبنائه أولى
به ، وأن شريعة الاستعمار التى تؤثر بخيرات الوطن غير بنيه خبيثة حقيرة لا توأم
الطبيعة الإنسانية :

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل	ماله مولعاً بمنع وحبس ؟
أحرام على بلبله الدو	ح حلال للطير من كل جنس ؟
كل دار أحق بالأهل إلا	في خبيث من الشرائع رجس ^(٤)

(١) أبي شوقي ٣٧ . (٢) الشوقيات ٤/٢ هـ أسا : داوى . مستطار : المراد نائر هائج .

جرس : صوت . فطن : منقبه . النفس : ضرب النافوس والمراد الخفافان . المسلة : مسلة عين شمس بالقرب
من بيته القديم بالمطرية . السرحة الزكية : دوحة بالمطرية يقال إن المسيح والسيدة مريم استظلا بها

(٣) الشوقيات ٢/١٢٩ . (٤) الشوقيات ٤/٢ هـ اليم : البحر . ابنة اليم : الباهرة . رجس : لم .

وإذا ما هبت نسيمات من ناحية الجنوب تخيل أنها من مصر ، فانتشى بتسميمها ،
ودبت الحياة في أوصاله ، كما دبت في أوصال يعقوب لما استنشق رائحة يوسف
من قميصه ، وهي تستحق أن يفديها بروحه :

ويا معطرة الوادي سرت تحراً فطاب كل طروح من سرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلاتها قيص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا بالورد كتباً وبالرياً عناويننا
فلو جزيناك بالأرواح غالية عن طيب مسر الكمام تهض جوازينا^(١)
وإنه ليقرن حبه بمصر بحبه لأمه ، فهو بالأندلس سنة ١٩١٨ يعطل نفسه بالعودة
إلى وطنه ولقاء آله بعد إعلان الهدنة ، لكنه ما كاد يهدد نفسه بهذا الأمل حتى بلغه
نعي أمه ، فراثاها بقصيدة حارة لاجعة ، وجاء في رثائه أنه نزل بالأندلس جنة الدنيا
فما أحس بجملها ، لأنه قلبه معنى بأمه ومتميم بوطنه ، ومقسم بينهما في الهوى :

نزلت ربا الدنيا وجنات عدننا فما وجدت نفسي الأنهارها طعنا
فما رحلت مصر من خاطري ساعة ولا أنت في ذى الدار زابلت لي وهما
إذا جننى الليل اهتزت إليكما جُنْحاً إلى سعدى وجُنْحاً إلى سَلَى^(٢)
لذلك كان يتعجل العودة إلى مصر ، فلما سمح له بالعودة آخر سنة ١٩١٩ سافر
إلى جنوا بمرأ ، ثم إلى البندقية بالقطار ايدرك أول سفينة تعادر أوروبا إلى مصر ،
لأن حنينه إلى مصر شديد^(٣) ، فوصل أول سنة ١٩٢٠ .

وقد تجلت فرحته بالعودة ، وبروعة استقبال الشباب له في الإسكندرية
والقاهرة^(٤) ، فصور فرحته بالعودة بأنها فرحة الشيخ برجة الشباب إليه ، وجعل مصر
الدين الذى كان يلقى عليه ربه لو أن قضاه حم وهو بالمنفى ، فهو يدير إليها وجهه قبل
أن يدير وجهه إلى البيت الحرام . وفي هذا غلو وتجاوز للتوقير الدينى ، لكن الشاعر
معذور ؛ لأن عاطفة الفرح جاوزت به الحد :

(٢) الشوقيات ١٥٨/٣ جنح الليل . طائفة منه .

(١) أبى شوقي ٨٩ - ٩٠

(١) الشوقيات ١٢٩/٢

(٣) أبى شوقي ٨٩

ويا وطني لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أن دعيت لكنت ديني عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهي إذا فئت الشهادة والمتابا

وأتسق خياله في جو من تقديس الوطن ، فجعل نور الإسكندرية قد هدى
الباخرة على بعد ثلاث مراحل كما تهدى المدينة المنورة الخجيج ، وجعل منارها يغشى
البحر بنوره كما غشت الأنوار الإلهية الطور أمام سيدنا موسى ، وجعل ثرى مصر
طاهراً عميقاً .

هدانا ضوء ثغرك من ثلاث كما تهدى (المنورة) الركابا
وقد غشى المنار البحر نورا كنار الطور جللت الشهابا
وقيل الشجر فأنادت فأرست فكانت من ثراك الطهر قابا (١)
فلا عجب أن يذهب شوقي إلى جدارة الوطن بالعبادة :
وجه السكينة ليس يغضب ربكم أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولوا إليه في الدروس وجوهكم وإذا فرغتم ، واعبدوه هجودا (٢)

ويستهل قصيدته في تمثال (نهضة مصر) بالجر مجبها ، والفخر بهذا الحب ،
فقد زين مصر بشعره ، وأقام لها تمثالا من قصائده الروائع ، وهذه قصيدته تطير
في سماء الخيال محتالة ببراعتها وجلالها ، حتى لقد مشت على النجوم مزهوة مشية
العروس يوم زفافها .

وليس في هذا عجب ، لأنه شاعر مصر ، وكروانها الصداح ، طالما غنى لها ، وتغنى
بها ، جزاء وفاقا لخيراتنا التي طعمها ، ومائها العذب الذي أرواه .
لذلك كانت مصر مجتلى قريحته ، ولباب شاعريته ، وهدفه الذي يقصد من شعره .

(١) الشوقيات ٥٦/١ قاف : قريبة .

(٢) الشوقيات ١٢٧/١ .

وإنك لترى في شعره علامات حبه لمصر ، وإشادته بذكرها ، وغزله فيها ، فكان كل بيت من أبيات قصائده مقصورة مزينة لمصر ، وحلى تتجلى بها .
وقد عزف عن الغزل بالحسان إلى الغزل بوطنه ، وصرف مدائحها عن الملوك إلى مديح مصر .

فإذا ما افتخر بسؤددها وعراقها جلال وصلصل ودوى ، وإذا ما عرض لحاضرها بكى وشكى وصدق ، يروض بصدقته النشء على القوة والجلد ، وينفخ فيهم روح الحماسة والعزة ، فهو يمزج الألم بالأمل ، والحزن بالحث على الجهاد ، يتغنى باكيا ، ويبيكى مغنياً :

جملت حلاها ومثالها	عيون القوافى وأمثالها
وأرسلتها في سماء الخيال	تجرُّ على النجم أذيالها
وإني لغيريد هذه البطاح	تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره	وكل معلقة قالها
وتلح بين بيوت القصيد	حجال العروس وأحجالها
أدار النسيب إلى حبلها	وولّى المدائح إجلالها
أرت بغابرها العبقرى	وغنى بمثل البكا حالها (١)

صوارنة

١ - إذا وازنا بين شوقى وحافظ في حبهما لمصر ، وجدنا شوقى أكثر من حافظ لهجاً بحبها كما سنجده أعظم مخيلة بمجدها .
وحسبنا من شعر حافظ في حب مصر قوله :

أجمل بالآديب أديب مصر بكاء الطفل أرهقه الفطام ؟

(١) الشوقيات ٢٣١/٢ حجال العروس : الحجال جمع حجلة (على وزن شجرة) موضع يزين بالثياب والستور للعروس . أحجالها : جمع حجل (على وزن شبل أو على وزن فهد) وهو الخلخال .
أرن : صاح وأشاد .

ويصرفه الهوى عن ذكر مصرٍ ومصرٌ في يد الباغي تُفْضَم
لعمرك ما أُرقت لغير مصرٍ ومالى دونها أملٌ يرام^(١)

٢ — وإذا ما قايسنا بين شوقي والبارودى وجدنا شعرهما غنياً بحب مصر ،
وبالحنين إليها ، وهما على درجة واحدة من حرارة العاطفة وصدقها .

لكن البارودى يتميز بكثرة حنينه ، لأن له قصائد كثيرة حنّ فيها إلى مصر . ولعل
مرد ذلك إلى أن زمن نفيه كان أطول ، وإلى أنه كان يائساً فى منفاه من العودة
إلى مصر .

أما شوقي فقد قضى فى المنفى نحو خمس سنوات ، وكان يؤمل أن يعود بين الحين
والحين . فقد كان رأى العام فى مصر وغيرها من البلاد العربية أن ألمانيا وحلفاءها
ومنهم تركيا سينتصرون على الإنجليز وحلفائهم ، وكانت جريرة شوقي أهون من جريرة
البارودى ، فهو لا يئأس من العودة إلى مصر يأس البارودى ، ولذلك حدث حسين
شوقي أن جده لأمه حسين شاهين باشا « أوصى أبى وهو يودعه بأن يهون على نفسه ،
لأن الحرب لن تطول أكثر من سنة . بل ربما عدنا قبل ذلك ، إذ أن الجيوش التركية
تأهب لتحرير مصر من هؤلاء الإنجليز الشياطين »^(٢) .

وشوقي يتميز من البارودى بافتتانه وطلاقة خياله .

وكلاهما كان يتعزى بالفخر فى غربته . أما البارودى فكان يفتخر بحسبه وشجاعته
وشعره ، وأما شوقي فقد كان يفتخر بماضى مصر المجيد ، وبعظمة الإسلام وملوكه .
وقد وازنت بين قصيدتين طويلتين لكليهما^(٣) . وهاتان القصيدتان صورة
من حبهما لمصر ، وحنينهما إليها فى المنفى .

(١) ديوان حافظ ٥٤/٢ (٢) أبى شوقي ٣١

(٣) مجله الرسالة العدد ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ مايو سنة ١٩٤٧

الفصل الثاني

الفخر ومصر

وأنا المصنف بتاريخ مصر

عن بعض حجر قومه صاير مصرنا

شوق

عهد الاحتلال إلى تاريخنا القومي فحاول أن يطمس معالمه ، ويباعد بيننا وبين
الزَّهْو به ، حتى لا نستلهمه ، فنشور ولا نتطامن للأيام القاتمة . وحاول الاحتلال
أن يصبغ تاريخنا بصبغة الخور والضعف ، بينما يطلعنا على تاريخ إنجلترا وغيرها من
الشعوب الناهضة ، بل يطلعنا على مفاخر هذا التاريخ ، لا لنا أنسى به ونتعلم ، بل لنزداد
يقيناً بهزال تاريخنا ، وضآلة شأننا بالقياس إلى تاريخ الأمم .

وجرى كثير من مؤرخينا في هذا المضمار ، أو قل إنهم اضطروا إلى الجريان
فيه ، فنسينا كثيراً من مفاخر ماضينا ، وذكرنا بعضه ممسوخاً مشوهاً مقلوب الحقائق .
وكان لهذا أثره السيء في ضميرنا ، وازدراء بعضنا لما يمت إلى قوميتنا ، حتى لقد خيل
إلى فريق منا أن الضعف طبيعة فينا ، وأن بلادنا — من دون بلاد الأرض — ضربت
عليها الذلة والمسكنة . وزين لهذا الفريق أن يردد ما يردده خصومنا من حاجتنا
إلى قوامة ووصاية ، وصار الانتقاص من شأننا حديثاً تلوكه الألسنة ، وتخطه الأقلام ،
وشهوة من شهوات النفوس المريضة .

فلما استيقنا ، ففتحنا عيوننا على مجد لم يدانه مجد ، وعلى تاريخ ذهبي عبقرى خلفه
لنا الفراعنة والعرب ، وعلينا أننا وراث مجدين ، وحفدة شعبين عظيمين ، فكذبنا
ترهات التاريخ المزيف ، وعرفنا حقائق التاريخ الصحيح .

حينئذ عرفنا من نحن في ركب الحضارة ، وشرعنا ننهض من رقبتنا ، ونستعبد الخطا لننبوأ مكاناً عالياً تحت الشمس .

وسأعرض نحر شوقي بتاريخ مصر ومجدها ، ونفخره بحاضرها الناهض ، لنعرف إلى أى مدى كان محبا لمصر ، مزهوا بعظمتها ، مشوقا إلى أن تستعيد عزتها .

الماضى المجيد

الحضارة :

طالما زهى شوقي بحضارة مصر القديمة ، وزهى بهديها للعالم . وهو على الحق في زهوه ، لأن مصر الوادى المبارك الذى اختالت فيه الحضارة وازدهر العلم ، وازدهى الفن ، وفي جامعاتها ومدارسها نبغ العلماء ، ونهل المواطنون والغرباء .

لقد كانت التلمذة في جامعة عين شمس نفراً للعالم اليونانى ، ثم كانت جامعة الإسكندرية ومكتبتها منارة العلم ومثابة العلماء ، وبحسب مصر من الفخار أن هو لمير نقل من أقاصيصها وأساطيرها في الأوديسة ، وفيها أسس بطليموس نظريته التى تثبت أن الأرض مركز الكون ، وقاس إيراتستين رئيس مكتبة الإسكندرية محيط الكرة الأرضية .

وقد زار مصر كثير من فلاسفة اليونان أو درسوا بها ، مثل ليكورغ المشرع الإمبرطى ، وسولون المشرع الاثينى ، والفلاسفة فيثاغورس وأفلاطون وديموكريت . على أن الحضارة المصرية أثرت في الإغريق من طريقين آخرين ، فقد انتقلت إلى جزائر البحر الأبيض المتوسط ولا سيما كريت عن طريق التجسرة العظيمة ، وأثبتت هذه العلاقة (سليمان) الألمانى و (سير أرثر أفانز) الإنجليزى وغيرهما من المنقبين ، ووجدوا آثار تلك الحضارة في (كنوسس) عاصمة كريت القديمة ، وكانت حضارة كريت المتأثرة بمصر مزدهرة في القرن السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد . وفي القرن الخامس عشر احتلت مصر كريت وغيرها من جزائر الأرخيل ، ثم دخلت كريت ومستعمراتها في حوزة الإغريق ، فتأثروا بحضارتها المصرية .

ثم قوى اتصال الإغريق بمصر في القرن السابع قبل الميلاد ، إذ اعتمد إيسماتيك

على الجنود المرتزقة منهم ، وشجعهم على استيطان مصر . وما زال خلفاؤه يعطفون عليهم ويستقدمون منهم حتى امتلأت مصر بهم . وفي عهد أحفاد الثاني (٥٦٩ ق . م) أسسوا لهم مدينة إغريقية في كل شيء إلا أنها على أرض مصر ، هذه المدينة هي (نوقراطيس) :

تأثر الإغريق بحضارة مصر عن هذين الطريقين : كريت أولا ، والاتصال المباشر ثانيا ، وتسربت الأفكار من هنا إلى هناك ، فحق الكهنة مصر أن يقولوا لفلاسفة اليونان : (إنكم أيها اليونانيون أطفال تهرفون بما لا تعرفون ، ولا تعلمون من أمر الماضي شيئا) .

وليس في العالم من يحدد فضل مصر على المدنية وسبقها الدنيا كلها . يقول أناتول فرانس أكبر أدباء فرنسا : « إن أرض منفتاح القديمة لا ينقصها ما يستوجب اعتراف العالم بحميلها ، فهي المربية الروحية لليونان ، وكهنتها هم الذين رفعوا النقاب لأول مرة عن أسرار هذا الوجود ، وأهل الفن فيها هم الذين تمكنوا بفطرتهم من أن يجعلوا آية الجمال مبصرة »^(١) .

أليس من حق شوقي أن يفخر بهذا المجد ؟

بلى . ومن أولى من شوقي بأن يخيل بمجد مصر القديم المتنوع الأفانين ؟ إن شوقي كلف بالتاريخ ، كلف بالعظمة ، مصرى معنز بمصريته ، صداح بجلال الماضي ، يرى الإشادة به فرضا عليه .

أليس هو القائل :

وأنا المحتفى به — أريخ مصر من يصن مجد قومه صان عرضا^(٢)
وهو القائل في مناجاة توت عنخ آمون .

ملك الملوك تحية
هذا المقام عرفته وسبقت فيه القائلين
ووقفت في آثاركم أزن الجلال وأستبين

(١) من مقدمة الكتاب (صوت مصر) بقلم فيسكتور مرجريت الكاتب الفرنسي .

(٢) الشوقيات ٦٩/٢

وبنيتُ في العشرين من أحجارها شعري الرصين
سالت عيونُ قصائدي وجرى من الحجر المعين
أقعدتُ جيلاً للموى وأقت جيلًا آخرين
كنتم خيال المجـد ير فَعُ للشباب الطامحين^(١)

يفخر شوقي في قصيدته الكبرى (أيها النيل) المهداة إلى الأستاذ المستشرق
مرجليوث بأن النيل مهد الحضارة، في واديه نبتت، وعلى عذريه ترعرعت، وضاع
عبرها فنبه الأمم. وهذه الآثار الخالدات، وصحائف البردى العتيقات، نواطق
وشواهد. وإلى مصر وفد العطاش إلى المعرفة فارتووا، ومنها تَبَلَّج نور التوحيد
منذ إخناتون:

أصل الحضارة في صعيدك ثابت ونباتها حَسَنٌ عليك مَخْلَقٌ
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت فأظلمنا منك الحِنِيّ المشفق
ملأت ديارك حكمةً، مأثورها في الصخر والبردى الكريم منمق
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لمن مغـرب ومشرق
واستحدثت دينا فكان فضائلا وبناء أخلاق يطول ويشفق
مهد السبيل لكل دين بعـده كالمسك رياه بأخرى تفتق^(٢)

والمصريون أساتذة اليونان والرومان، لأن الحضارة الرومانية متأثرة باليونانية:
فكانوا الشهب حين الأرض ليلٌ وحين الذئب اسجد مضملينا
مشت بمنارهم في الأرض روما ومن أنوارهم قبست أثينا^(٣)

(١) الشوقيات ١١٩/٢

(٢) الشوقيات ٨٥/٢ مخلق: مطيب. منمق: مصطف منسق. يشفق: يرتفع. تفتق: من فتق
المسك بغيره لذا استخرج رائحته بماء يدخله عليه.

(٣) الشوقيات ٣٣٥/١

ويباهي بأن الفراعنة كانوا يتابع الحكمة ، وأنهم عرفوا ما جهل الناس إلى أن
جاءت الأديان السماوية . عرفوا أن الحياة سلم إلى الآخرة ، فاحتفلوا بالآخرة .

الموردون الناس منهل حكمة	أفضى إليه الأنبياء ليستنوا
الرافعون إلى الضحا آباءهم	فالشمس أصلهم الوضيء المشرق
بلغوا الحقيقة من حياة علمها	حجب مكشوفة وسر مغلق
وتبينوا معنى الوجود فلم يروا	دون الخلود سعادة تتحقق
يبنون للدينى كما تبنى لهم	خرباً غراب البين فيها ينطق
فتمصورهم كوخ وبيت بداوة	وقبورهم صرح أشم وجوسق ^(١)

وكثيراً ما أشاد ببراعتهم ، وبعظمة أخلاقهم ، وبذلمهم أقصى الجهد فيما يعملون .
يقول فى إحدى قصائده فى توت عنخ آمون :

حب الخلود بنى لكم	خلقاً به تتفردون
لم يأخذ المتقدمو	ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم إلى ال	إحسان فيما تعملون
لم تتركوه فى الجلي	ل ولا الحقير من الشئون
السبق من عاداكم	أترى القيامة تسبقون ؟
أنتم أسباطين الحض	رة والبناء المحسنون
المتقنون وإنما	يُجزى الخلود المتقنون ^(٢)

ويقول :

صنعة تدهش الع - ول وفن^(٣) كان إتقانه على القوم فرضا^(٤)
وكان نهضة للفرص ينوه فيهن بمجد مصر وفضلها ، يريد أن يبعث فى شبابها

(١) الشوقيات ٧٩/٤ جوسق : قصر .

(٢) الشوقيات ١١٧/٢

(٣) الشوقيات ٦٩/٢

قد كان والدين... الخلود كلها للبهيرية والفنون مهرداً^(١)
ويكرر هذا في قوله :

قم قبل الأحجار والأيدى التى أخذت لها عهداً من الآباد
وخذ النبوغ عن السكناة إنها مهد الشمس ومسقط الآراد
ما زال يخشى الشرق من لمحاتها فى كل مظلمة شعاع هاد^(٢)
ويفاخر بنسب الفراعنة إلى رع إله الشمس وأمون^(٣) ، ويشيد بأخلاقهم
التي تفردوا بها ، فما تجمل بها سابق ، ولا تكمل بمثلها لاحق ، ويمدحهم بأنهم كانوا
كلفين بالإتقان والإجادة والتفوق وسبق عصرهم والعصور التي من بعدهم ، حتى
لكأنهم حاولوا أن يسبقوا يوم البعث . يقول في مناجاة توت عنخ آمون :

يا ابن الشواقب من رع وابن الزواهر من أمون ؟

نسب عريق في الضحى بن القبائل والبطون

حب الخلود بنى لكم خلقاً به تفردون

لم يأخذ المتقدمون ن به ولا المتأخرون

حتى تسابقتم إلى ال إحسان فيما تعملون

لم تتركوه في الجاهل ولا الحقير من الشؤون

السبق من عاداتكم أترى القيامة تسبقون ؟

أنتم أساطين الحضارة والبنانة المحسنون

المتقنون وإنما يحزى الخلود المتقنون^(٤)

ويكرر هذا في قوله :

ملوك الدهر بالوادي أقاموا على (وادي الملوك) محجينا

(١) الشوقيات ١٢٨/١
(٢) الشوقيات ١٣٠/١ الآباد : جمع أبد وهو الدهر .
(٣) مصر القديمة ٣٦٠/١ سليم حسن .
(٤) الشوقيات ١١٦/٢ رع وأمون : معبودان مصريان .

تعالى الله كان السحر فيهم أليسوا للحجارة منطقينا ؟
عَدُوا يبنون ما يبق وراحوا وراء الآبدات مخَلدِينَا
إذا عَمَدُوا لمأثرة أعدوا لها الإِتقان والخلق للمينَا (١)

الملوك الأقوياء :

أشاد شوقي ببعض ملوك مصر الفرعونية ، فقد خص توت عنخ آمون بثلاث قصائد (٢) ، لأن الكشف عن مقبرته شغل العلماء ، وجلا كثيراً عما كان مجهولاً من حضارة مصر .

وكان يشير أحياناً إلى الملك مناموحد القطرين أول ملوك مصر ، وإلى خوفو باني الهرم الأكبر ، كقوله في مناجاة الشمس يستحث عزائم الشباب :

فناجيهم بعرش كان صنواً لعرشك في شببته سمينَا (٣)
وكان العز حليته وكانت قوائمه الكتائب والسفينا
وتاج من فرائده ابن ستي ومن خرزاته خوفو ومينا (٤)

أما رمسيس الثاني فقد كان شوقي حفيهاً به ، يضرب بقوته الأمثال ، ويتوق

(١) الشوقيات ٣٣٥/١ .

(٢) الشوقيات ٣٣٥/١ و ١١٦/٢ و ١٩٧ .

(٣) شببته : شبابه . سمين : مثيل

(٤) الشوقيات ٣٢٦/١

مينا : المؤرخون مختلفون في تحديد السنة التي بدأ فيها يحكم مصر المتحدة ، فمنهم من يرجع إلى ٤٣٢٦ ق.م ومنهم من يذهب إلى أقدم من ذلك فيجعله نحو ٥٠٠٠ ق.م ومنهم من يرى أنه أحدث من ذلك فيجعله عام ٢٩٠٠ ق.م أو ٢٧٠٤ ق.م غير أن الآراء صارت متقمة الآن على زمن وسط بين هذين الحدين هو ٣٢٠٠ ق.م . وقد اتخذ مينا وخلقاه مدينة منف مركزاً حربياً هاما لصد غارات اللوبيين الزاحقين على الدلتا من الغرب . ومينا هو الذي وحد الوجهين ، لذلك كانت له مهابة في قلوب الفراعنة الذين خلفوه ، حتى إنهم ألوهوه بعد موته ، وبقيت عبادته زمنا طويلا (مصر القديمة . سليم حسن ١/١٥٤ ، ٢٧٦)

خوفو : باني الهرم الأكبر وهو من عصر بناء الأهرام (٢٩٨٠ — ٢٧٤٥ ق.م) وقد بسط

نفوذه على الليبيين .

ابن ستي : رمسيس الثاني ، وسنخصه بكلمة بعد .

إلى أن تستعيد مصر عهدها الذي كان لها في عهده^(١)، وقد حكم بعد والده سبتي الأول حوالي (١٢٩٣ — ١٢٢٥ ق م) وطال حكمه ، وعظم مجده ، وتوالى نصره ، فبلغ إعجاب خلفائه به إلى أن عشرة منهم سمو أنفسهم باسمه على التوالى . ويسمى أيضا رمسيس الأكبر وسيزوستريس . وقد مدحه شاعر القديمة بنتاءور^(٢) .

يدل على إعجاب شوقي به أنه ختمه في شزيتته (كبار الحوادث في وادى النيل) بأكثر من خمسة وعشرين بيتاً ، صور فيها تطلع النفوس إلى تملك عظيم ، وتشوقها إلى حكمه ، حتى لقد تخيل أن الشعب قد بايعه وهو في صلب أبيه سبتي .

فلما حكم رمسيس كان البعث والابتهاج ، ولبست الأرض زيفتها فرحاً به ، فقد كان مجيد العهد ، جليل القدر ، عظيم الإصلاح .

وصور شوقي جود الزمان به توبة من إسمائه السابقة إلى مصر . وفضله على الملوك جميعاً ، لأنه فتح وحكم ، وساس فما ظلم ، وشاد وخلد وعلم :

وأنى الدهر تأبى _____ بعضيم
من عظيم آباؤه عظماء
من كرمسيس فى الملوك حديثاً ولرميس الملوك فداء

(١) هو من الأسرة التاسعة عشرة ، اشترك مع والده فى الحكم منذ سن مبكرة ، ثم انفرد ، وامتد حكمه نحو ٦٧ سنة على أقل تقدير .

وهو ذو حروب كثيرة وفتوح ، منها حربه للحيثيين (مملكة خيتا فى آسيا . بقى النضال بينها وبين مصر أطول من عشرين عاماً وقد هزمها الجيش المصرى فى مواقع عدة . فأرسل ملكها إلى رمسيس يطلب عقد محالفة دائمة بين البلدين ، فعقدت المعاهدة ، وهى مطولة ذات مواد كثيرة منظمة ، التزام الطرفان نصها نحو ٤٦ سنة) وغزوة بلاد النهرين ، وهزيمة اللويين ، والنوبيين ، وأهل البحار الذين يسرقون بالشرا دانا (قوم من حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومن المحتمل أن اسم جزيرة سردينيا مشتق من اسمهم) ولما هزمهم بأسطوله أمن مكان الوجه البحرى .

وله أعماله عظيمة وآثار عدة فى مصر والنوبة والسودان وفلسطين وآسيا ، منها بمصر معبد الكاب والأقصر والكرنك ومقبرته فى وادى الملوك ومعبد الرمسيوم وسبتي الأول ورمسيس الثانى بالعراة المدفونة وتحتوت عتف . ومنها بالنوبة معبد بيت الوالى وجرف حسين والدربوسمبل . وخلف مسلات شتى وقهوشا عدة . وآثاره منثورة فى أنحاء القطر المصرى حتى لا نكاد نوجد بقعة أثرية إلا فيها أثر له (مصر القديمة . سليم حسن ١٩٨/٦ — ٥٠٨) .

(٢) مصر القديمة . سليم حسن (١٩٨/٦ — ٥٠٨) والكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ٨٢/١ — ٩٠) ميخائيل شاروويم .

ومن مفاخر مصر أن جوها قد عطر بعير الرسل إبراهيم وموسى وعيسى
ويوسف عليهم السلام ، وأن قبضها سُرُوا بمصاهرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام .
وأى فخار يطاول هذا الفخار ؟

إن الأمم لتتنازع أحيانا في العبقرى العظيم فتدعيه كل منها ، ومن كالرسل سموا
وشرفا وعظمة ، وهم الذين اجتباهم الله هداة ، واصطفاهم قادة ، واختارهم للتبليغ عنه ؛
وشوقى يهتبل المناسبات للتذكير بذلك وتكريره ، ففي مناجاته للنيل يقول :

أين الفراعنة الألى استندرى بهم	عيسى ويوسف والسليم المصعق
تابوت موسى لا تزال جلالة	تبدو عليك له ورىا تنشق
وجمال يوسف لا يزال لواؤه	حوالك في أفق الجلال يرتق
ودموع إخوته رسائل توبة	مسطورهن بشاطئك منمق
وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل	يزكو لذكراها النبات ويسمق
ونظما المسيح عليك روجا طاهرا	بركات ربك والنعيم الغيدق
وودائع (الفاروق) عندك دينه	ولواؤه وبه ——— انه والمنطق
بعث الصحابة يحملون من الهدى	والحق ما يحيى العقول ويفتق ^(١)

ويقول في علم مصر :

أرض ترعرع لم يصحب بساحتها	إلا ندين قد طابوا وكُفانا
عيسى بن مريم فيها جر برده	وجر فيها العصا موسى بن عمران ^(٢)

وفي قصيدة للكاتب الإنجليزي المستر هول كين :

إن مصر رواية الدهر فاقرا	عبرة الدهر في الكتاب العتيق
ملعب مثل القضاة عليه	في صبا الدهر آية (الصديق)
والمحباء (البكيم) أنس نارا	والتهجاء (البول) في وقت ضيق ^(٣)

(١) الشوقيات ٢/ ٨٥، ٧٩ : استندرى بهم : التجأ إليهم . ربا : رائحة عطرة . يرتق : يخفق . يسبق :

يطول . الفيدق : الكثير . الفاروق : عمر بن الخطاب

(٢) الشوقيات ٢/ ٩٥ : الصديق : سيدنا يوسف . البكيم : سيدنا موسى . البول : السيدة مريم

الآثار

استقى شوقي مفاخره من تاريخ مصر وحضارتها وقوتها ، وكانت الآثار ينابيع ثرة
تمده بفنخر مرّدد متجدد .

وهو في نخره بالآثار لا يباهى مباهاة المعجب المشدوه الذي يصور مشاعره
في معان عامة ، وإنما يباهى في إعجاب وفي علم بقيمة الأثر وخصائصه ومعالم العظمة فيه .
ذلك بأنه كان عالماً بالتاريخ طالما استلهمه وضرب منه الأمثال . وقد رأى الآثار
التي تحدث عنها ، فزار الأهرام وأبا الهول مراراً ، وسافر إلى الأقصر وأسوان فتملّى
النظر إلى ما هنالك من مجد مؤثّل .

الأهرام

يعجب ببقائها منذ أربعة آلاف عام ، كأنما بناها الدهر الخالد لا الفراعنة القانون ،
فهي راسية كالطود الأشم تُفسي الملوكة والقصور العظيمة . ثم يصورها وهي تبدو
من بعيد وحولها بحر من الرمل الذي يستوى بعضه ويرتفع بعضه بسفينة في البحر
وارتها الآء واج لإسوارها وشرعها ، وكأنها والضحى المضى يكسوها أشعة من لب
كنوز فرعون ملاً ذهبها كفات الموازين السكبار وغطاها وتكوم فوقها ، وهو يشير
بهذا التصوير إلى الحضارة القديمة التي توارت ولم يبق منها إلا رموز وإشارات تدل
عليها ، كالسفينة غرقت في البحر ، ولم يبق منها إلا ساريتها ، ويشير إلى غنى مصر وعظم
خيراتها ، حتى لكان ذهبها أهرام :

كان أهرام مصر حائط نهضت	به يد الدهر لا بنيان فائنا
إيوانه الفخيم من عليا مقاصره	يفسي الملوكة ولا يبقى الأواوين
كأنها ورمالا حولها التطمط	سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت الآلاء الضحى ذهبها	كنوز فرعون غطين الموازين ^(١)

(١) الدوقيات ١٣٢/٢ الأواوين : جمع إيوان وهو القصر العظيم . الأساطين : جمع أسطوانة
وهي سارية السفينة . الآلاء : ضوء واشتعال

ويذكرها مرة أخرى ^(١) ويفتتح بها قصيدته في تحية طيارين نركيين ^(٢)
 وإذا ما وقف على قبر نابليون ، واستلهم من تاريخه وحياته ما استلهم ، لم يفته
 أن يناجيه بأن يقوم إلى الأهرام خاشعاً لا مرهواً بفتوحه ، وأن يمشى في رحابها امتدأ ،
 لأنها محراب الزمن وحرمة المنيع ، لها من جلالها وجلال بناتها قداسة . ثم ذكره بكلمته
 التي قالها لجنوده قبيل موقعة إمبابة (أيها الجنود إن أربعين قرناً تنتظر إليكم من هذه
 القمة) ، وعجب من أن يستلهم الأجنبي الغاصب النخوة والقوة من الأهرام ويفعل
 المصريون عن هذا الاستلهام :

قم إلى الأهرام واخشع واطرح	خيلة الصيد وزهو الفاتحين
وتهمل إنما تمشي إلى	حرم الدهر ومحراب القرون
هو كالصخرة عند القبط أو	كالخطيم الطهر عند المسلمين
وتسبح منبرا من حجر	لم يك قبلك حظ الخاطين
وأعدها كلمات أربعة	قد أحاطت بالقرون الأربعين
ألهبت خيلا وحضت فيلقا	وأحالت عسلا صاب المنون

.....

فترى الأحياء في معترك	وترى الموتى عليهم مشرفين
عظة قومي بها أولى وإن	بعد العم — — — فهل يعثرون ؟
هذه الأهرام تاريخهم	كيف من تاريخهم لا يستحون ؟ ^(٣)

ولم يفته وهو يحيي الطائرين الفرنسيين القادمين إلى مصر سنة ١٩١٤ أن يذكر
 أن الأهرام قد تأثرت لعزتها من نابليون ، فكأنما صبت عليه لعنة الفراعنة فانهمزم
 في وانزلو ، ثم أسروني :

(١) الدوقيات ٥٦/٢

(٢) الشوقيات ٢٦٧/١

(٣) خيلة الصيد : كبر الملوك . الصخرة : صخرة بيت المقدس . الخطيم : جدار السكبة أو حجرها
 أو ما بين الركن ورمزم والمقام أو ما بين المقام والباب أو ما بين الركن الأسود والباب والمقام . صاب
 المنون : مرارة الموت

جرح الأهرام في عزتها فشى للقبر مجروح الإباء
أخذت تاجا بتاج ثأرها وجزت من صلف بالكبرياء^(١)
والأهرام الثلاثة أجل من الجبال وأقوى ، ولها روعة قدسية ، وعليها روحانية
العابدين . وقد بناها الفراعنة بعقول جبارة ، وأخلاق عالية .

قل للأعاجيب الثلاث مقالة من هاتف بمكانهم وشهاد
لله أنت فما رأيت على الصفا هذا الجلال ولا على الأوتاد
لك كالمعابد روعة قدسية وعليك روحانية العباد
أنشئت من أحلامهم بقواعد ورفعت من أخلاقهم بعماد^(٢)

أبو الهول^(٣) :

ذلك التمثال الرابض في سفح الأهرام يصارع الزمن ويغالب العوادي ، ناجاه
شوقي بقصيدتين . أما مناجاته في الأولى فإنها تنم عن العجب من طول بقائه حتى لقد
مماه لدة الدهر وقرينه ، وقريع الجبال الراسيات ، لا يزول إلا معها يوم البعث .
ثم استنبأه فلسفة الحياة والموت ، وعرض للحيرة فيما يرمز إليه شكله ، وقص بعض
ما شهد أبو الهول من تاريخ مصر في زمن الفراعنة والفرس واليونان والرومان
والعرب ، وبعض ما شهد من تتابع الديانات في مصر^(٤) .

وفي الثانية قال إنه رهين الصحراء ، وقد فطس أنفه من طول ما أثرت فيه عوامل
الرياح والجو ، لكنه من مصنع جن ذوى عزة وأنوف شم ، وإنه صورة حقيقية للبشر ،
فهو أسد في قالب إنسان ، يريد أن النامس يحملون غرائز الوحش في مظاهرهم الآدمية .

(٢) الشوقيات ١/١٢٩

(١) الشوقيات ٢/٢

(٣) نحت في عهد خوفو أو قبله أو بعده . وبما يؤسف له أننا إلى الآن لم نعتز على تاريخ أوتش
معاصر له يدلنا على زمنه ، لذلك عدده الأثريون لغزا في تاريخ مصر .

والراجح أنه كان معبودا من المعبودات المصرية القديمة ، لأن الإله (أتوم) كان يمثل برأس إنسان
وجسم أسد . ثم أثبت السكشاف الحديث أنه صنع في عهد الملك خفرع وعلى صورته ، لكنه يمثل إله
الشمس عند الفروب . وقد كان المصريون يطلقون عليه اسم أتوم (مصر القديمة سليم حسن ١/٣٠٠-٣١٠)

(٤) الشوقيات ١/٥٣ - ١٦٥

ويخشع إذا ما هبط قصر أنس الوجود ، وألا يحاول التهوين من معجزة الدهر .
إن شوقي بهذا التنبيه الذى لا نسميه أمرا ولا نسميه دعاء ولا رجاء ينظر إلى آثار
وطنه نظراته إلى الأماكن المقدسة يدخلها المؤمنون حفاة خاشعين .

ثم وصف القصر أبدع وصف ، وصفه غريقاً فى النيل بعد تعلية خزان أسوان ،
وقد تماشكت جدرانها وتآزرت مخافة أن تنقوض ، وأشفق شوقي من إشرافها على الزوال
وهى التى كانت فيما مضى أعلى من السكواكب شأنا .

ثم تحدث فى إعجاب عن جمال الفن وروعته بهذا القصر ، فنقوشه زاهية يخيل
لمن يراها أن الصانع فرغ منها أمس ، ودهان النقوش وضأ فكأنه فى هذا القصر
زيت صاف براق أضأ به السراج عصوراً طوالاً وهو باق لم ينفد ، والخطوط
الدقاق فى الرسوم تشبه أهداب الطباء دقة وجمالا وانسجاما ، وهنالك رسوم الضحايا
بلغت من الإتيقان أنها تكاد تمشى وترعى لو نفخت فيها الحياة . ثم تحدث عن المحاريب
والمقاصير ، وتحسر على هذه القصور التى قاربت الفناء ، وناجها بذكريات عن مواكب
فرعون وإيزيس .

أيها المنتحى بأسموان دارا	كالثريا تريد أن تنقضا
إخلع النعل واخفض الطرف واخشع	لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بثللك القصور فى اليم غرقى	تمسكا بعضها من الذعر بعضا
مشرقات على الزوال وكانت	مشرقات على السكواكب نهضا
شباب من حولها الزمان وشابت	وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كأنما نفض الصا	نع منه اليدين بالأمس نفضا
ودهان كلامع الزيت مرت	أعصر بالسراج والزيت وضأ
وخطوط كأنها هذب ريم	حسنت صنعة وطولا وعرضا
وضحايا تكاد تمشى وترعى	لو أصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالـ — بروج بنها	عزمت من عزمة الجن أمضى

يا قصوراً نظرتها وهى تَقْضَى فسكبت الدموع والحق يُقْضَى
أنت سطرٌ ومجدٌ مصر كتابٌ كيف سام البلى كتابك فضاً ؟

.....

حار فيك المهندسون عقولا وتولت عزائم العلم مرضى

.....

أين فرعون في المواكب تترى يُركض المالكين كالخيل ركضا

.....

أين إيزيس تحتها النيل يجرى حكمت فيه شاطئين وعرضا^(١)

.....

آثار نوت هنخ آمون^(٢)

أشاد شوقى به في ثلاث قصائد . عرض في إحداها لآثاره الدالة على حضارة عصره ، ولإعجاب العالم بها حتى لقد ظنها من صناعة باريس ، وعرض للذهب والتوايب ، وعبر عن روعتها بأن الموتى لو فطنوا لها لاستلبوها ، وعرض للتحنيط والآ كفان والنمايل التى يخيل إلى من يراها أنها تتحرك وتنطق ، وللتقوش الغضة التى لم ينل منها الدهر ولا طول النظر واللمس . ثم عرض لصور الغلمان والصائدين وللبوق ، وكلاب الصيد ، والوحش ، والطير :

(١) الشوقيات ٦٥/٢ — ٧٠ وضا : وضاء . ريم : غزال . تقضى : تتداعى .

(٢) وجدت في مقبرته صور رائعة أفن المصور فيها فأبرز الفكرة كأنه كاتب لبق ، بعضها يفيض بسالة وإقداما ، وبعضها يتدفق حبا وحنانا ، سواء في ذلك صورته مع زوجته (عنخس إن آمون) أم في نزحته لصيد الطيور في قارب من سيقان البردى ، أم في عودته من رحلة الصيد وخلفه أتباعه ، أم صورته وهو يتمرن على الصيد ومعه مجموعة من أدواته رصع بعضها بالأحجار الكريمة وغطى بصنائج من الذهب المطرز .

وقد خلف قطعة من الحجر أمام مقبرته تظهر شجاعته وهو يطعن بحربة أسدا ضاربا ، ويساعده كلبه الأمين . وفي الصورة من الدقة ما يدهش .

وفي قبره صندوق من الخشب المطلى ، وعلى وجوهه سلسلة مناظر ملونة بديعة ، وغطاؤه الخشب يزدان بمناظر صيد مختلفة وبخاصة صيد الأسود ، وجوانبه حافلة برسوم الوقائع الحربية يقاتل فيها نوت عنخ آمون وحاشيته قتالا عنيفا ، وعلى طرفى الصندوق ليسكننا في صورة أسديدوس الأعداء بقدميه نوت عنخ آمون وحاشيته قتالا عنيفا ، وعلى طرفى الصندوق ليسكننا في صورة أسديدوس الأعداء بقدميه (مصر القديمة ٤٤٨/٥ — ٤٥٧)

لم يبقَ غالٍ في الحضرة لم يحزه ولا ثمين
 ميت تحيط به الحيا ة زمانه معه دفين
 وذخائر من أعصر وأت ومن دنيا ودين
 حملت على العجب الزمان وأهله المستكبرين
 فتلقت باريس تحسب أنها صنع البنين
 ذهب بيطن الأرض لم تذهب بلمحته القرون
 استحدثت لك جنوداً وصفائحاً منه القيون
 ونواويساً وهاجرة لم يتخذها الهامدون
 لو يفظن الموتى لها سرحوا الأنامل يندشون
 وتنازعوا الذهب الذي كانوا له يتفاتنون
 أكفان وشى فصلت برقائق الذهب الفتيين
 قد لفها لف الضما د محط آسرين
 وكأنهن كائنات وكأنك الورد الجنين
 وبكل ركن صورة وبكل زاوية رقين
 وترى الدمي فتخالها انثرت على جنبات زون
 صور تريك تحركا والأصل في الصور السكون
 ويمر رائع صمتها بالحس كأنطق المبين
 صاحب الزمان دهانها حيناً عهداً بعد حين
 غص على طول البلى حتى على طول المنون
 خدع العيون ولم بزل حتى تحدى اللامسين
 غلمان قصر ك في الركا ب يناولون ويطر دون
 والبوق يهتف والسها م ترش والقوس الحنون

وكلاب صيدك طشت والخيل جن لها جنون
والوحش تنسفر في السهو ل وتارة تثب الحزون
والطير ترسف في الجراح وفي مناقرها أنين
وكان آباء البريئة في المدائن محضرون
وكان دولة آل شمس عن شمالك واليمن^(١)

الآثار هامة :

كان شوقي أحياناً يعرض للآثار بعامة ، وأحياناً يعرض لبعضها بخاصة .
وهو في العرض العام يشيد بالقوة والعظمة والسبق ، كقوله في قصيدته الكبرى
(كبار الحوادث في وادي النيل) سنة ١٨٩٤ :

وبنيينا فلم نخل لبان وعلونا فلم يحزنا علاء
وملكنا فالمالكون عبيد والبرايا بأسرهم أسراء
قل لبان بنى فساد فضالى لم يحز مصر في الزمان بناء
ليس في الممكنات أن تنقل الأجـ بال شـمـا وأن تنال السماء
أجفل الجن عن عزائم فرعون ودانت لبأسها الآناء
ساد ما لم يشد زمان ولا أنـشأ عصر ولا بنى بناء^(٢)
.....

هذه الآثار قد سمك المصريون بناءها حتى شارفت النجوم ، بعضها كالبروج
وبعضها كالجبال الشامخ ، وكلها جديدة كأنها بنيت اليوم لم ينل منها تقادم العهد . ويصور
عظمتها وضخامتها بأن الأرض تنوء بحملها ، ويكاد فضاؤها لا يسعها ، ويصور تأيها

(١) الشوقيات ١١٧/٢ جندل : المراد انتابوت . نواوس : توأيت . الذهب الفين : الذي أذهب
ليصاغ ويطلق . آس : طبيب . رقين : كتاب . زون : موضع الأصنام تنصب فيه وتزين . عهيد : قديم .
يطردون : يصيدون . الحزون : جمع حزن وهو المكان المرتفع . آل شمس : الفراعنة لأنهم اتسبوا إليها .
(٢) الشوقيات ٢/١

على الفناء بأنه عاجز عن تسليقها والصعود إليها ليهلها :

ولمن هياكل قد علا الباني بها بين الثريا والثرى تنسّق
منها المشيد كالبروح وبعضها كالطود مضطجع أشم منطّق
جدد كأول عهدا وحيالها تتقدم الأرض الفضاء وتعتق
من كل ثقل كاهل الدنيا به تعب ووجه الأرض عنه ضيق
عال على باع البلى لا يهتدى ما يعتلى منه وما يتسلّق
متمكن كالطود أصلاً في الثرى والفرع في حرم السماء مخلّق^(١)

وهو يرى التماثيل المصرية فيدهش ، يراها خالدة لم يعد الدهر على جمالها ، وقد
مرت القرون على نحتها لكن رونقها ما زال غصاً ، يالها من دمي حسان يخيل
إلى رائها أنها — وهى جماد — تكاد تتحرك كالأحياء ، ونحن لا نستطيع أن نعرف
من سرها إلا القليل :

وكل مخالدة في الدمي هنالك لم تُخصر أحوالها
عليها من الوحي ديباجة ألح الزمان فما ازدألها
تكاد وإن هى لم تتصل بروح تحرك أوصالها^(٢)

قلت إن حب شوقى لمصر وإعجابه بآثارها كان يتجاوز به الحد أحياناً ، فيذهب
يصور مصر معبوداً ، ويصور آثارها أماكن مقدسة .

لذلك يخاطب الطيارين التركيين بقوله يا راكب الريح أد التحية للنيل وللهرم ،
وعظم سفتح الهرم الذى يشبه فى قداسته طور سيناء والحرم ، وانخفض جناحك
إجلالا لهذه البلاد الطاهرة التى خطر على ثراها موسى وعيسى ، وعلمت العالم الحكمة
والكتابة والحرب والشجاعة ، وشرفت بملوك أقوىاء طامسا فتحوا وظفروا وأسروا

(١) الشوقيات ٨٠/٢ تنسّق : تلاطم منطّق : مرتفع . تعتق : تقدم .

(٢) الشوقيات ٢٣٢/١

الملوك . وهذا الفضاء الذى تحلق فيه فضاء مقدس تمر به الريح خاشعة ، ويمشى به الدهر فى وقار وإجلال :

يا ركب الريح حى النيل والمهرما
وقف على أثر مر الزمان به
واخفض جناحك فى الأرض التى حملت
وأخرجت حكمة الأجيال خالدة
وعظم السفوح من سيناء والحرما
فكان أثبت من أطواده قمما
موسى رضيعاً وعيسى الطهر منقطها
وبيئت للعباد السيف والقلما
مطيههم من ملوك الأرض والخدمما
به ويمشى عليه الدهر محتشها^(١)
ويقول فى مقبرة توت عنخ آمون :

وخصاً بالعمار وبالتحايا
وقبرا كاد من حسن وطيب
يُحال لروعة التار يخ قدت
رفات المجد من توتنخمينا
يضىء حجارة ويضوع طينا
جنادله العلاء من طورسينا^(٢)

غبرة على الآثار :

فى سنة ١٩٢٢ استطاع مستر هوارد كارتير — وكان يموله اللورد كارنارفون — بعد جهود طويلة متصلة أن يستكشف مقبرة توت عنخ آمون ، وعثر فيها على مومياء الملك فى تابوت من الذهب ، موضوع فى آخر من الخشب المغطى بصفائح من الذهب المرصع بزجاج متعدد الألوان . وهذا كله فى تابوت ثالث من الخشب والذهب ، والتوايت الثلاثة المتداخلة على سرير من الخشب المذهب ، وكلها فى تابوت من الحجر . وكان بالمقبرة كثير من النفائس العظيمة ، والتماثيل البديعة ، والأمتعة الفاخرة . وكان لهذا الكشف دوى فى العالم كله ، لأنه الأول من نوعه فى تاريخ التنقيب بمصر ، ولأنه كشف عن عجائب بقيت فى جوف الثرى ثلاثة آلاف عام ونيف .

(١) الشوقيات ٢٦٢/١

(٢) الشوقيات ٣٣٩/١ العمار : الريحان والتحية . يضوع : تفوح رائحته الزكية . قدت : قطعت .

فلم يكن بدعا أن تغنى شوقي في ثلاث قصائد بهذا الملك ، ليزكرونا بمجدنا العظيم ،
ويستحث الهمم لاستعادته .

ويهمنا في هذه الفقرة أمران :

أما الأول فهو أن اللورد كارنارفون قد اتهم بأنه أخذ خفية أعلى ما في مقبرة
الملك من تحف بينها تاج الملكة وعقدها ، وسكت على هذه التهمة ، فلامه شوقي ،
وبين له أن المصريين حراس على آثار آبائهم ، لا يرضون أن يملكها غيرهم ،
لأن امتلاك غيرهم لبعض هذه الآثار عدوان على الأجداد والأحفاد ، واغتصاب
لأعز ما يجب أن يحصن . وقال له : لقد علمت بالتهمة الموجهة إليك فسكت ولم تنفها ،
ولو أنك برىء لرددت على هذه التهم فعلينا براءتك .

ثم وخز اللورد ووخر بريطانيا كلها وخزرة لبقعة موفقة ، إذ قال إن المصريين
لا يستبعدون أن تسرق بعض النفائس ، لأنك من الإنجليز الذين سرقوا السلطان
وحيد الدين وهو حي ، وسرقة الموتى أسهل من سرقة الأحياء . يشير إلى أن إنجلترا
هى التى نقلت السلطان وحيد الدين من قصره فى الآستانة إلى المدرعة البريطانية ،
وقاية له من الكياليين ، فأبحرت به إلى مالطة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ .

وقد ذاعت الأنباء بأن اللورد كارنارفون أهدى إلى ابنة ملك الإنجليز عقدا
مصريا قديما عظيم القيمة ، وأنها لما علمت بوفاته بعد أن عصته بعوضة من القبر نزعت
العقد من عنقه خوفا من انتقام توت عنخ آمون ، إذ نسب الناس إليه وفاة كارنارفون ،
وآذاعوا ما سموه لعنة الفراعنة :

رَأَيْتَ تَنْسَكِرًا وَسَمِعْتَ عَنَّا	فَعُذْرًا لِلْغِيصَابِ الْمَحْنَقِينَا
أَبُوتْنَا وَأَعْظَمُهُمْ تَرَاثُ	نَحَاذِرُ أَنْ يَشُولَ لآخِرِينَا
وَنَأْنِي أَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ ضَمِيمٌ	وَيَذْهَبَ نُهْبَةً لِلنَّاهِبِينَا
سَكَّتْ فُحَامُ حَوْلِكَ كُلُّ ظَنٍ	وَلَوْ صَرَّحْتَ لَمْ تُثِرِ الظَّنُونَا
يَقُولُ النَّاسُ فِي سِرِّ وَجْهِهِ	وَمَا لَكَ حِيلَةٌ فِي الْمَرْجِفِينَا

أمن سرق الخليفة وهو حى يعنف عن المالك مكفينا^(١) ؟

وأما الثانى فهو أن المستر كارتر صد المصريين عن أن يشهدوا ما كشف ، فثار شوقى ، وصرح بأنه لولا أنه يدين للكاشف بالفضل ويعزه ، لأن اقترابه من جثة توت عنخ آمون وآثاره أ كسبه عزازة ، لولا هذا وذاك لرجا توت عنخ آمون أن يضرب يد كارتر فيقطعها ، أو أن يرسل له بعوضة تلسع لسعة فيها حتفه ، كما لست أخت لها من قبل لورد كارنارفون :

أبوأبك اللاتى قصدنا قصدها (كارتر) فى وجه الوفود ردها
لولا جهود لا نريد جدها وحرمة من قربك استمدها
قلت لك : اضرب يده وقدها وابعث له من البعوض نكدها^(٢)

رفاع عن الفراعنة :

ردد بعض المؤرخين من الإفرنج أن الفراعنة شادوا آثارهم بالعسف والاضطهاد وتسخير الشعب وخيرات مصر . وتناسوا أن الفراعنة يمنحون العمال أجورا على عملهم ، وكانوا يشغلونهم فى موسم الفيضان حيث لا زراعة ولا عمل^(٣) ، لأن الأرض مغمورة بالماء ، فمن الحكمة شغل الأيدى العاملة ، وقد شغلها الفراعنة فى عمل مجيد خالد .

رد شوقى على هؤلاء الحاقدين على مصر ، بأن هذه التهمة باطلة ، وبأن تسخير الفراعنة للشعب فى هذا العمل الجليل — على فرض صحة التهمة — خير من عسف حكومات أوروبا فى القرون الوسطى ، إذ كانت تضطهد الشعوب ، وتعنف فى معاملتها فى عهد الإقطاع ، وكان الأمراء يبتزون أموال الزراع ، ويسخرونهم فى أعمال لا تخلد للأمم مجدا . وإذا كانت أوروبا بعد عصر النهضة لم تسلم حكومتها من النقائص فمن التعسف أن يطالب الفراعنة بالكمال الذى حرّمه العالم المتمدن الحديث .

(١) الشوقيات ١/٣٣٨

(٢) الشوقيات ٢/١٩٨

(٣) مصر القديمة . سليم حسن ١/٢٩٢

زعموا أنها دعائم شيدت بيد البُخى ملؤها ظلماء
دمر الناس والرعية في تشديد يديها والخلائق الأسراء
أين كان القضاء والعدل والحكمة والرأى والنهى والذكاء
وبنو الشمس من أعزة مصر والعلوم التي بها يستضاء
فادعوا ما ادعى أصغر آتينا ودعواهم خناً وافتراف
ورأوا للذين سادوا وشادوا شبه أن تسخر الأعداء
إن يكن غير ما أتوه بخسار فأنا منك يا فخار براء^(١)

وهو لم يخرج في دفاعه عن حقائق التاريخ .

فالظاهر أن أسرى الحرب — في الدولة القديمة — كانوا يخصصون لأشق الأعمال
في المناجم أو ضياع الحكومة أو المصانع الملكية . وعند الحاجة كان الجنود يطلبون
للأعمال الهامة ، حينما لا تنشب حروب .

أما الأعمال التي تحتاج إلى مرانة وخبرة فية فمن الراجح أن القائمين بها كانوا
يتقاضون أجرهم . وتؤكد النقوش التي يكشف عنها يوماً بعد آخر أن العمال والصناع
كانوا أحرار غير تابعين لفرد معين أو للحكومة^(٢) .

أما فكرة العدل والقضاء التي ذكرها شوقي فإنه على الحق فيها .

فمنذ أقدم العهود كانت فكرة الحق والعدل ذات سلطان على المصريين ، حتى لقد
مثلوا العدالة بإلهة تعبد ، يقوم بشعائرها القضاء ، وكانوا يخافون عاقبة الظلم في الآخرة .
وقد نقش أحد رجال الدين على قبره جملة منها : ولم يحدث قط أني اغتصبت
شيئاً من إنسان لهذا القبر ، لأنى أذكر يوم الحساب في الغرب (الآخرة) . وقد
أقمت القبر بأجور للعمال من الخبز والجمعة والسكنان ، ودعوا الله لي من أجل ذلك ، .
والذي يطلع على نظام التقاضى عند الفراعنة في عهد الدولة القديمة يعجب بعدلهم
ودقة نظرهم للقضايا^(٣) .

(١) الشوقيات ٣/١

(٢) مصر القديمة . سليم حسن ٢/٢١١ — ٢١٥

(٣) مصر القديمة . سليم حسن ٢/٣٨ — ٦٦

يقول أحد رجال القضاء وهو كاهن معبد الملك في نقش على قبره : « إن كل الذين عملوا في مقبرتي صنعوا ذلك في مقابل الخبز والجدعة والمنسوجات والزيت والخبز بكمية عظيمة » .

وكذلك سجل أمير مقاطعة أن كل رجل عمل في قبره كان راضيا ، وقد أَرْضَى العمال جميعا .

ولا يفوتنا ما خلفه الكاهن المملوك في مقبرته بالجيزة من قوله : لقد جعلت المثال ينحت هذا التمثال وهو مرتاح للأجر الذي أعطيته إياه^(١) .

ولا شك أن دفاع هؤلاء عن أنفسهم سواء أكان حقا أم باطلا أم مبالغا فيه يؤكد أن العمال والصناع كانت لهم حقوق يجب أن تراعى .

موازنة

لم أجد في الشعراء السابقين لشوقي أو المعاصرين له ، من أشاد بالآثار بعض إشادة شوقي ، ولا من برع في وصفها والتمخار بها بعض ما برع شوقي واقتخر .

ولم أجد من بينهم من نوه بمجد مصر الغابر كما نوه شوقي ،

فالبارودي يصف الأهرام بالقوة التي غلبت الزمن ، وتحدث الخطوب ، ويتحدث

عن النقوش التي فيها وعن أبي الهول حديثا عجلا :
 سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر

لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري

ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر

لبانيهما ————— بين البرية بالفخر

خلت وهما أعجوبة العين والفسكر

أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر

لأبصرت مجموع الخلائق في سطر

يدانيهما عند التأمل والخبر^(٢)

بنساءن ردا صولة الدهر عنهما

أقاما على رغم الخطوب للشهدا

فكم أمم في الدهر بادت وأعصر

تلوح لآثار العقول عليهم —————

رموز لو استطاعت مكنون سرها

فما من بناء كان أو هو كائن

(١) مصر القديمة ٢/٢١٤

(٢) ديوان البارودي ٢/٤٧

وإسماعيل صبرى يصف الأهرام ، ويشيد بخاودها ، ويعرج على الآثار عامة :
أهرامهم تلك حتى الفن متخذاً من الصخور بروجاً فوق كيوان
قد مرّ دهرٌ عليها وهي ساخرة بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ما يأخذ النمل من أركان شهلان
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة تسعى اشتياقاً إلى ما خلد الفاني
فصغرت كلّ موجود ضخماتها وغضّ بنيانها من كل بنيان
وعاد منكّر القوم معترفاً يثنى على القوم في سرّ وإعلان^(١)
أما حافظ فقد خايل بمجد مصر القديم بضع مرات ، أهمها قصيدته على لسان
مصر التي مطلعها :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني دعائم المجد وحدي^(٢)
تحدث فيها بلسان مصر حديثاً خاطفاً عن عراقة مجدها ، وعظمة آثارها ، وعلاء
حضارتها .

وشتان ما بين لحظة عجلي ونظرات فاحصات بعيدات المدى .
وهيات أن تبلغ الخطرة الطارئة ، أو فكرة المناسبة ، ما تبلغه الفكرة الأصلية ،
والوجدان العميق ، والدراسة الكاشفة .
ثم يبقى بعد ذلك الافتتان في التعبير والتصوير ، واستحياء الشعور الجياش .
وهذه كلها ألوان من ميزات شوقي على هؤلاء .

(١) ديوان إسماعيل صبرى .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ٨٩/٢ — ٩٣ .

الفصل الثالث

مناخلة الاختلال

تمهيد

الاختلال ، الاستعمار ، الانتداب ، الوصاية .

هذه الكلمات ونظائرها تتبع كلها من حمأة واحدة ، وترى إلى غرض واحد ، أما الحمأة فهي الجشع ، وأما الغرض فهو الأثرة والتسلط وامتصاص دماء الشعوب . ومن عجب أن بعض مفكرى الغرب يؤازرون نزوع الأقوياء إلى التسلط على الضعفاء ، ويحدون فيه سلوكا طبيعيا . قال أحد الكتاب المتعصبين للاستعمار : « الحركة الاستعمارية هي الحركة الوطنية ، تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى البشرية العالمية »^(١) .

وهذه عبارة ليست واضحة المعنى ، لأن المعنى لم يكن واضحا في ذهن الكاتب ، ولا عجب في هذا ، لأن الاستعمار قائم على الختل والمواربة ، فلا ينتظر من مؤيديه إلا أن يختلوا ويواربوا .

وقال منتسيكو فى كتابه روح القوانين : « إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب فى استعباد الزوج ، فإنى أقول إن شعوب أوروبا بعيد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تجد بدا من أن تستعبد شعوب إفريقيا ، لى تستخدمها فى استغلال هذه الأقطار الفسيحة . وشعوب إفريقيا ما هى إلا جماعات سود البشرة ، فطس الأنوف فطسا شنيعا ، فيكاد يكون من المستحيل أن ترثى لها ، ولا يكاد المرء يتصور أن الله سبحانه وتعالى — وهو ذو الحكمة السامية — قد وضع روحا — وعلى الأخص روحا طيبة — فى داخل جسم حالك السواد »^(٢) .

(١) الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ٣٠ محمد عوض محمد .

(٢) الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ٣١

وهذا الزعم بأن الشعوب السود أو الحمر لا روح لها مظهر من مظاهر الاستعمار الأوروبي الحديث في أوائل عهده . ولم يتورع رجال الدين أنفسهم عن مثل هذه الأراجيف ، فقد كان قادتهم في أوائل الاستعمار الأوروبي لأمريكا الشمالية يدعون أن الهنود الحمر من سلالة الشيطان ، ويأمرون بالقضاء عليهم بكل الوسائل .

بغضه الاحتلال

أراني في حاجة قبل أن أعرض لمناضلة شوقي للاحتلال ، وقبل أن أتحدث عن الفنون الأخرى من وطنيته ، أراني في حاجة إلى أن أذكر أن الأستاذ العقاد ذهب إلى أن شوقي كان يحس الوطنية كما يحسها التركي المتمصر من طبقة الحاكمين أو المقربين إلى الحكومة ، ومصر التي كان شوقي ينظم في تاريخها هي مصر الأسر المالكة والعروش الحاكمة . . لأنه « كان بمعزل عن الأمة في شعوره ، لا يخامرها بعطفه ، ولا تخامر بهعطفها ، ولا يناضل في ميدانها نضال من يهيمه النصر والهزيمة ^(١) » . وسنرى أن شوقي طالما عبر عن بغضه للاحتلال ، وندد بمظالمه ، وأشاد بأبطال الوطنية والجهاد ، وحث الهمم على الثورة للتححرر . وسنراه في أفانين الوطنية مصريا غيورا على مصر ، حزيناً من ضعفها ، نخورا بعزها .

وسنعرف أنه كان وطنياً قبل أن ينفى ، فلما نفى وعاد من المنفى توهمت وطنيته ، فازداد مقاومة للاحتلال ، ودعوة إلى الاستقلال ، فصار شاعر الشعب ، وترجمان آماله وآلامه .

عاصر شوقي استقلال مصر قبل الثورة العربية ، وعاصر احتلال مصر بعد الثورة العربية ، وكان كما قدمتُ وطنياً متحمساً ، ومصرياً محباً لمصر . وماذا ننتظر من شاعر مثقف محب لبلاده ، وقد منيت بعدوان الإنجليز عليها ، واستشارهم بالنفوذ فيها ، وتعويقهم وسائل نهوضها ؟ لقد ولد شوقي ونشأ في عهد

(١) شمراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي . عباس العقاد ١٨٤

الاستقلال ، فليس شب وجد مصر قد نكبت بالاحتلال . نعم كانت مصر مستقلة لا تربطها بتركيا إلا سيادة اسمية في عهد إسماعيل ، وجزية سنوية مقدارها ستماية وثمانون ألفا من الجنيهات ، وليس لها من أثر يحد من استقلال مصر .

لذلك قال المارشال ويفل في كتابه (النبى) : « قليل من البريطانيين من كان يعرف أن مصر كانت تتمتع باستقلالها الذاتي تحت السيادة التركية منذ عهد محمد علي ، وأن هذا الاستقلال كاد يكون تاما إذا استثنينا الامتيازات الأجنبية » .

إننا لا نتوقع من شوقي إلا أن يحمل على خصوم بلاده حملات تدك قواعدهم دكا . ولا نتوقع منه إلا أن يقرع قومه على رضاهم بما هم فيه ، أو تغاضيتهم عما هم فيه . ولا نرتقب منه إلا تحضاً على الجهاد لطرد الغاصب من أرض الوطن .

(١) وقد تجلت بغضه شوقي للاحتلال منذ رزت مصر باحتلال . فهو ساخط على احتلال الهكسوس والفرس والرومان والفرنسيين لمصر في قصيدته (كبار الحوادث في وادي النيل) التي ألقاها بالمؤتمر الشرقي بجنيف سنة ١٨٩٤ م^(١) .

(٢) وهو ساخط على الاحتلال الإنجليزي في معارض شتى ، ولكنه لم يصرح بلوم الخديو توفيق على تشييعه للإنجليز ، ومؤازرته إياهم على احتلال الوطن ، لأن إشارته إلى توفيق كانت في قصيدته التي ألقاها في المؤتمر الشرقي في سبتمبر سنة ١٨٩٤ ، وهو في ذلك الوقت موظف بقصر ابنه عباس ومقرب إليه ، ولعل الإشارة في هذا المقام تغني عن العبارة . فهو يقول إن توفيقا لم يكن أول من مهد للاحتلال البريطاني ، ولم يكن وحده الجاني ، لأن المصريين شركاء له في جانيته ، ويدعو المصريين ألا يتلاوموا ، لأن الاحتلال شقوة أرادها القضاء لمصر :

إن أتاها فليس فيها يبادر	أو جناها فذا الورى شركاء
أخطا الأقربون موضعها الدا	نى وفازت بنيله البعداء
لا يلم بعضكم على الخطب بعضا	أيها القــــــــــــــــوم كلكم أبرياء
ضيلة زانمـــــــــــــــــا الشقاء لمصر	ومن الذنب ما يجيء الشقاء ^(٢)

(١) الشوقيات ٣/١ - ١٨ وتجد حملة على احتلال الفرنسيين لمصر ٢/٢

(٢) الشوقيات ١٩/١

(٣) وإنه ليصم الاحتلال في بيتين اثنين بما يغنى عن قصائد طوال .
وبماذا يوصم الاحتلال أبشع وأشنع من أنه عدوان على الحق الطبيعي للأمة
في أن تلتفع بخيراتهما ، وتميش آمنة حرة في ديارها ؟ إن اغتصاب الوطن أو الطعام
أو حق الحياة ليس شريعة الإنسان المتحضر وإنما هو شريعة الوحش الضاري
أو الإنسان البدائي ، أما هذه الشريعة الجديدة التي يصطنعها الأقوياء ليطفخوا على الأمم
الضعيفة فإنها إثم ورجس وقذر ورجعة بالإنسانية القهقري إلى عهد الغاب والظفر
والمخلب والنااب .

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس ؟
كل دار أحق بالأهل إلا في خبيث من الشرائع رجس^(١)
(٤) كان شوقي يفيض الاحتلال ، ويحقر من يمدحه أو يرضاه ، وإن كان
من العسيلة والسراة .

فقد أقامت جمعية العروة الوثقى بالإسكندرية احتفالا كبيرا في ٢٣ مايو سنة ١٩٠٤
لوضع الحجر الأساسي لمدرسة محمد علي الصناعية ، ورأس الخديو عباس هذا الاحتفال ،
وحضره ، واعتذر لورد كرومر .

وفي هذا الاحتفال ألقى رياض باشا خطبة امتدح فيها الاحتلال ، وأثنى على كرومر ،
منها قوله : « جنابُ المحترم اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور في هذا المحفل
لتغيبه عن مصر . كل يعلم ما له من المقام الأرفع ، والنفوذ الشامل في هذه البلاد ،
وبالأخص ماله من اليد الطولى في كل ماله مساس بالمصالح والمنافع العمومية ،
فهذه اليد الفعالة قد شملتنا ، وهي التي كانت لنا معوانا ، بل متمما ومكملا لهذا المشروع ،
فحق علينا أن نعرف هذه المبرة ، ونقدم لجنابه واجب الشكر ، ونثنى عليه أطيب الثناء .
ونرجوه ألا يترك هذا المولود في المهل صبيبا ، بل يراعيه بعين عنايته ، ويواسيه
ويواليه ، إلى أن يتربى ويبلغ أشده ، ويصير رجلا قويا يقوم بأود نفسه .

مولاي ! اسمح لي أن أتكلم بما يخالج ضميري بحرية . إذا نظرنا وتأملنا الآن
إلى مجرى الأحوال ، وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأحوال والأفكار

قد تغيرت تغيرا كليا، واتخذت لها مجرى جديدا نحو التقدم والترقى وبت العلوم والمعارف . . . وكل ما نراه من المشروعات العلمية والأدبية والمؤسسات الخيرية لا نرتاب في أنه أثر من آثار هذا الانقلاب . . . »^(١).

فقوبلت الخطبة بالدهشة والسخط ، لأنها أماراة على الخضوع والخنوع والزاني ، وحمل عليها مصطفى كامل ، واستنكر من رياض أن يغرق في الشاء على كرومر لأنه تبرع لجمعية العروة الوثقى بمائة جنيه ، وأن يتغافل عن المنشاوى باشا الذى تبرع بمائة فدان ، وختم مقاله بقوله « لذلك لم يرتب أحد من الحاضرين في أن رياض باشا تعتمد انتهاز هذه الفرصة للتقرب من المحتلين والتملق لهم ، وإعلان السياسة التى طالما أنكرها وتبرأ منها . وأجمع مريدوه قبل مبعضيه على أن حضوره في حفلة وداع السير إلدون غورست أولا ، وأقواله عن عميد الاحتلال في حفلة مدرسة محمد علي ثانيا ، وتجنبه ذكر المنشاوى باشا لسكراهة اللورد كرومر له ثالثا ، دلائل كافية على ما يريده من التحجب إلى الإنجليز لنعوذ الوزارة إليه »^(٢).

أما شوقي فقد صب على رياض حُما في قصيدة وصفه فيها بالجحود والذلة والحق وبلادة الحس وسوء الفهم ، وبين له أنه كان في خطبته خطبا على مصر ، وأن الوطنية كانت تقتضيه أن يهيب بالشباب لينهضوا خفافا سراعا إلى مقاومة الاحتلال . من هذه القصيدة قوله :

غمرت القوم إطرأ وحدا	وهم غمروك بالنعم الجسام
ارأوا بالأمس أنفك في الثريا	فكيف اليوم أصبح في الرغام ؟
أما والله ما علموك إلا	صغيرا في ولائك والخصام
خطبت فكنت خطبا لا خطيبا	أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه	وجرحك منه لو أحسست دام
فها قلت للشباب قولا	يليق بحافل الماضى الهام ؟
يدك تجارب الأيام فيهم	ويدعو الرابضين إلى القيام

(١) مصطفى كامل للرافعى ١٧٥

(٢) مصطفى كامل للرافعى ١٧٧ — ١٧٨

خطبت على الشيبية غير دار
ولولا أن للأوطان حبا
جنيت على قلوب الجمع ياساً
أراءك مقتل من مصر باق
وهل تركت لك السبعون عقلا
إذا الأحلام في قوم تولت
فيا تلك الليلى لا تعودى
بأنك من مشيك في منام
يضم عن الوشاية كالفرام
كأنك بينهم داعى الجسام
فقتت تزيد سهمي في السهام ؟
لعرفان الحلال من الحرام ؟
أتى الكبراء أفعال الطغام
ويازمن النفاق بلا سلام^(١)

(٥) وقد سخط على من يخضع للإنجليز في تهنته السلطان حسين كامل يوم توليته بعد خلع الخديو عباس :

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم
فالله خير مؤثلا ووكيلا

.....

هل كان ذاك العهد إلا موقفا
يعجز كل ذليل أقوام به
وأندر بأن الاحتلال يمثل في مصر رواية لم تتم فصولها :
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت
وانقض ملعبه وشاهده على
أن الرواية لم تتم فصولا^(٢)

وقد علم وهو بالمنفى أن هذه القصيدة « قد فهمها الجبهة الأميون الذين لا علم لهم ولا أدب ، ولم يخلقوا لمجالسة الملوك والأمراء ، فهموها فهمًا خاطئًا ، فزعموا أنني خرجت على إخلاصى ، ومرقت من وطنيتى . ويكفينى أن ألوفا من الشبان الراقين الذين يفهمون لغتهم قد فهموا مغازيها ، وأكثرهم يحفظها عن ظهر قلب . والله يعلم أنه لو كان (بسمر ك) فى مكانى فى تلك الأوقات التى كان هيجان السلطان حسين فيها لا يوصف ، لما خرج من مصر على الصورة التى تركها بها من العز والكرامة »^(٣).

(١) الشوقيات ٢٥٩/١

(٢) الشوقيات ٢١٧/١ (٣) كتاب شوقي إلى أحمد شفيق باشا . مذكراتى فى نصف قرن ٢٥٦/٣

وقد أسلفت في (يناعيع) وطنيته أن هذه القصيدة كانت السبب المباشر لثنيه من مصر .

وأحنقه من بعض المصريين أنهم يخنعون للإنجليز خنوعاً ذليلاً ، ويتظاهرون بالعجرفة والكبرياء ، فشبه أنوفهم المرفوعة في غير شمم بأنف الميت المسجى على فراشه مرفوعاً في غير حياة ولا مقدرة ، وكأنما لم يشف هذا التصوير ما بنفس شوقي ، فليجأ إلى تصوير آخر أقسى وأهجى ، هو أن هؤلاء الخونة فقدوا الشرف والحياء والمروءة ، وجأهروا بخيانتهم للوطن ، فهم كالبلغايا المجاهرات ببيغائهن لذلك يشكر للبساخرة التي أقلته من مصر إلى المنفى أن أراحته من رؤية هؤلاء .

شكرت الفلك يوم حوت رحلى فيا لمفارق شكر الغرابا
فأنت أرحمتي من كل أنف كأنف الميت في النزع انتصابا
ومنظر كل خوان يرانى بوجه كالبعي رمى النقابا^(١)

مظالم الاهل

أبغض المصريون الاحتلال لأنه عدوان عليهم لا مبرر له ، ولأنه عوق نهضتهم ، وحرّمهم خيرات بلادهم ، ورجع بهم القهقري في كل شئونهم ، وقد تحدثت عن ذلك في أسباب ثورة سنة ١٩١٩

ولقد يكون من التدليل على مساوىء الاحتلال بمصر أن أنقل هنا فقرات من كلام راجل إنجليزى لا شك في أن شهادته على قومه ليست إلا بعض الحق : « لقد كانت السياسة الإنجليزية طوال القرن التاسع عشر ترمى إلى أن تكون إنجلترا جسماً وروحاً مع السلطان — الخليفة العثماني — ضد الاستقلال الذي كانت تنتحله مصر لنفسها من حين إلى آخر بتشجيع فرنسا ، فإن فرنسا — وإن أرغمت على الجلاء عن مصر سنة ١٨٠١ — كانت لا يزال لها بمصر نفوذ أدبي عظيم فكان المنتظر والحالة هذه من الحكومة البريطانية عندما استعان بها السلطان على كبح جماح

الحديو إسماعيل أن تذكر إسماعيل بما يجب عليه من طاعة السلطان ، ^(١) . فهذا اعتراف صريح بأن إنجلترا كانت تعوق استقلال مصر .

ويعترف مستر ويلفرد سكاون بلنت بأن المصريين مقتوا الإنجليز ، لأنهم لم يقدموا إليهم خيراً منذ احتلوا بلادهم ، ولأنهم تعسفوا في حكمهم ، فحكموا صحافتهم ، وحكموهم حكماً استبدادياً ، ونكثوا بوعودهم بالجلاء « أى دافع أخلاقى يدفعنا إلى حكم المصريين رغم أنوفهم ؟ وعلام يعتقدوننا ذلك المقت كله إذا كنا حقيقة قد أوليناهم الجميل تلك السنين الطوال ، ولا نزال نوليهم إياه ، ولم يحرصون على أن نخرج من ديارهم إذا كنا قد أنقذناهم ، ولا نزال نتقدم من أسباب الاحتلال والفوضى ؟ وفوق هذا كله ما الذى يضطرنا إلى أن نعامل المصريين معاملة الأمم المقهورة لا معاملة الأصدقاء كما نزعم ، لنحتفظ بنظام أرغمناهم على قبوله ؟

لقد قضينا على حرية صحافتهم بعد أن احتلنا بلادهم طويلاً ، وأبيننا أن نبر بما وعدناهم به من ترقية نظمهم ، وبسلطانا عليهم من جديد سلطان الحكم المطلق ، وسلطانا عليهم شرطة سرية جديدة لا تألوهم تجسسا وتهجماً على الدور واعتقالات ونفياً وسجناً ، كما كان يفعل بهم فى أسوأ أيامهم الأولى .

فإذا ما طالبونا بالجلاء عن بلادهم وفاء بعهودنا عدداً ذلك تمرداً منهم ، وأنذرناهم بأن نرجع بهم — إذا لم يفد هذا الضغط — إلى الحكم العسكرى الصريح ، ^(٢) .

تعويق التعليم

المجمل لا نجبا عليه جماعة

كيف الحياة على يديهم عزيمتهم؟

شوق

(١) لقد كان التعليم فى مصر يسير بخطا حثيثة منذ عهد محمد على ، فعدد تلاميذ المدارس سنة ١٨٤٠ بلغ ٩٠٠٠ ^(٣) ، وعدد المبعوثين إلى أوروبا بلغ ٣١٩ أنفق

(١) تاريخ المسألة المصرية ه تيودور ووستين .

(٢) من مقدمة (تاريخ المسألة المصرية) صفحة ح بقلم المستر ويلفرد سكاون بلنت .

(٣) التعليم فى مصر ١٠ أمين سامى

عليهم ٢٧٢٣٦٠ جنيه^(١). وفي عهد إسماعيل بلغ المبعوثون ١٧٢ طالبا إلى سنة ١٨٧٩. أنفق عليهم ١٦٢٠٥٧ جنيه^(٢). وبلغ عدد التلاميذ والتلميذات سنة ١٨٧٥ في مراحل التعليم ١٤١٤٠٧ عدا المبعوثين إلى أوروبا والدارسين في منازلهم. وكان عدد التلميذات في هذه السنة ٤٠٨٠ بنتا^(٣).

أما في عهد الاحتلال فندع المقال لمؤرخ إنجليزي منصف ، ونجتزئ من قوله بفقرات فيها غناء .

يقول ثيودور روثستين : « إن إهمال التعليم في مصر لمن أظهر وجود حكم اللورد كرومر ، ومن يميزات إدارته كلها . لقد وعد اللورد دوفرين بأن ترقية التعليم ستكون من أهم ما يحرص عليه الحكام الجدد . ولكن ما أعظم الخلف بين القول والعمل في كل معاملة الإنجليز للمصريين ، وإنه لأعظم في دائرة التعليم منه في أي دائرة أخرى .

لقد وصفنا في الفصل الذي عقدناه لأعمال إسماعيل باشا عناية هذا الوالي العظيمة بالتعليم ، ورأينا أنه عندما أرهقه الدائنون كان يستطيع أن ينفق على التعليم سنوياً ٨٧٠٠٠ جنيه منها ٢٣٠٠٠ جنيه من خاصة ماله . والآن نقول إنه بعد مضي خمس وعشرين سنة على عهد إسماعيل أي في سنة ١٨٨٨ بلغت ميزانية التعليم ٧٠٠٠٠ جنيه فقط . على أنها قد خفضت سنة ١٨٧٧ إلى ٢٩٠٠٠ جنيه .

ثم بدأت تزداد بعد سنة ١٨٩٠ حتى بلغت سنة ١٩٠٦ بعد إلحاح الرأي العام المصري والبريطاني ٣٦٢٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ لا يستهان به إذا قورن بما كان ينفق إسماعيل على التعليم . لكن يجب ألا ننسى أنه قد مضى على عهد إسماعيل أكثر من ثلاثين سنة تضاعف فيها السكان أو زادوا على الضعف ، وزاد فيها الإيراد نحو ٥٠ ٪ وأصبح للحكومة في سنة ١٩٠٦ بدل الديون الفادحة احتياطي يقرب من ١٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه .

على أن التقهقر بالتعليم ليس مقصوراً على عدد المدارس ، بل إنه يتناول المنهج ، فقد انقلبت المدارس معاملة تخرج موظفي الحكومة ، وصارت أداة لجلنزة المصريين .

وقد روج الوطنيون لإنشاء جامعة مصرية ، وشرعوا يجمعون المال ، فأظهر اللورد كرومر شيئاً من العطف التافه على المشروع ، وأشار بأنه لا بد من الانتظار قليلاً . لكن الحركة كانت أقوى منه ، فلم يمض عام واحد حتى تحقق خلفه من نجاح المشروع ، ورأى أن تكون الجامعة تحت سلطة الحكومة ، فافتتحت في أواخر سنة ١٩٠٨ .

ولغة التعليم في المدارس العالية ليست العربية ، لكن الإنجليزية ثم الفرنسية إلى حدّ ما ، وهم يعتذرون عن ذلك بأن اللغة العربية ليست لغة علمية ، ولا توجد كتب مدرسية مؤلفة بها وافية بالعرض ، ومن الصعب الحصول على أساتذة يعرفون اللغة العربية . وهذا طعن سخيف أمام ذلك التاريخ المجيد لتاريخ الحضارة والعلوم العربية في القرون الوسطى .

ولغة التعليم لبعض المواد كالتاريخ والجغرافية والحساب والجبر والعلوم الطبيعية والأشياء هي الإنجليزية في المدارس الابتدائية والثانوية .

ولا يفوتنا أن نذكر أن تاريخ المصريين والعرب لا يزال غير داخل في برنامج المدارس الثانوية ، بحجة أنه غير ضروري لامتحان الشهادة الثانوية ، وهي الشهادة الوحيدة التي تفتح لحاملها باب الحياة الحكومية في الوظائف والتدريس .

أما التعليم الابتدائي فيكفي أن يقال عنه إنه ليس إجبارياً ولا مجانياً ولا زائداً زيادة كبيرة على القراءة والكتابة والحساب .

ومن العجيب أن مصر وهي بلاد زراعية قبل كل شيء لا تدرس علوم الزراعة في مدارسها . ومدرسة الزراعة الوحيدة التي بها لا تسد حاجة البلاد .

ليس من شك في أن من أكبر آفات التعليم في مصر إسناد وظائف التدريس إلى الإنجليز دون المصريين ، لأنهم يجتهدون في أن يقرضوا على أمة عددها أحد عشر مليوناً لغتهم وطريقة تفكيرهم ، وهذا هو ما كان يسعى إليه اللورد كرومر فيما مضى .

إنك قلما تجد في قطر من الأقطار أو على الأقل في الطبقات الميسورة الحال في أي قطر من الأقطار ظمأ إلى ورود حياض العلم كالذي تجده في مصر .

ومع ذلك لا تجد حكومة ما قد سعت إلى إطفاء ذلك الظمأ سعياً أضعف من سعي الحكومة المصرية .

إن المصريين يسألون خبزاً فلم يعطهم الحكام البريطانيون خبزاً أو حجارة ، بل سقوهم سماً زعافاً ^(١) .

لقد أقام لورد كرومر بمصر من سنة ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧ ، وكانت نسبة البنات المتعلّيات ثلاثاً في كل ألف في سنة ٨٣ ولم تتجاوز هذا الحد في سنة ١٩٠٧ . أما نسبة المتعلّين من الذكور فقد كانت وقت مجيئه ست عشرة في كل مائة ، وهوت إلى النصف عند رحيله ^(٢) .

وبعد فهذه شهادة من المستر بويد كاربنتر على المستر دانلوب ، وهي في غنى عن أى تعليق : « على المستر دانلوب تقع تبعة فساد التعليم المصرى ، والرجوع به القهقري ، وإخراج موظفين جُلّ اعتمادهم في دراستهم على الاستظهار والحفظ ، لا على القوى العقلية السامية الأخرى من التفكير والموازنة والابتكار والاستنباط . إن الطالب المصرى يعتمد في تحصيله على ذاكرته ، وعلى التكرار الآلى للحقائق المحفوظة ، لا على ذكائه وتفكيره ، فينشأ عن ذلك ضيق أفقه ، وجهله بالحوادث المعاصرة ، وحاجته الشديدة إلى المعلومات العامة ، وإلى السرور والإقبال على ما يدرس » ^(٣) .

ومن مساوئ الاحتلال وخاصة في عهد كرومر أنه اقتصر الطلاب على تعلم اللغة الإنجليزية ليحارب اللغة العربية والثقافة الفرنسية ، وألغى البعثة المصرية في فرنسا في أغسطس سنة ١٨٩٥ ^(٤) .

وكان الشرق العربى أسوأ من مصر حالاً . وكانت الأمم القوية تزداد قوة ، والشعوب المتحضرة تستزيد من أسباب الحضارة ، (٢) فأسى شوقى من ضعف مصر وسوء أحوال الشرق ، وسنعرف أنه لم يقتصر على النواح والبكاء والتنديد بسوء الحال ، سنعرف في فصل آخر أنه طالما حفز الهمم للعمل ، وطالما حُبب إلى المصريين والشرقيين أن يطيروا إلى مثلهم العليا التى نصبها لهم ، وقربها إليهم .

(١) تاريخ المسألة المصرية ٢٩٣ — ٣٠١ (٢) الإحصاء الحكوى العام سنة ١٩٠٧

(٣) فى الأدب الحديث ٢٢/٢ عمر الدسوقي عن تقرير مستر بويد كاربنتر Boyed Carpenter

رئيس التفتيش بوزارة المعارف ١٩١٨ (٤) مصطفى كامل للرافعى ٥٤ .

وكان أساء يتدخل كثيرا من قصائده ، سواء أ كان يدافع عن مصر وحقوقها ، أم يخایل بماضيها العظيم ، ويستحث على نهضتها ، أم يشجع على عمل نافع في العصر الحديث ، أم يعرض لشأن يتداعى معه الأسى من الحاضر الأليم . فهو يلوم اللورد كرومر على تعويقه نهضة التعليم بمصر ، واقتصاره على المظهر دون الجوهر :

هل من نذاك على المدارس أنها تذرُ العالوم وتأخذ الفتيولا^(١)
ويعزو إلى مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩١٩
أنه كان عقبة في طريق التعليم ، فصارت مصر تمشى في ميدانه سخفا ، بينما تمشى الأمم
الأخرى عدوا ، وصار المصريون عاجزين عن صنع إبرة ، وهم الذين بنى آباؤهم
المسلات والأهرام في زمن لم تكن فيه روافع وآلات مسعفة :

وَنَيْتُ خُطَا التَّعْلِيمِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَمَشَى الْهُوَيْنَا بَعْدَ إِسْمَاعِيلَا
كَانَتْ لَنَا قَدَمٌ إِلَيْهِ خَفِيفَةٌ وَرَمَتْ بَدَنْلُوبٌ فَكَانَ الْفِيلَا
حَتَّى رَأَيْنَا مِصْرَ تَخْطُو إِصْبَعًا فِي الْعِلْمِ إِنْ مَشَتْ الْمَمَالِكُ مِيلَا
تَجِدُ الَّذِينَ بَنَى الْمَسَلَةَ جَدَّهُمْ لَا يَحْسِنُونَ لِإِبْرَةِ تَشْكِيلَا
الْجَهْلُ لَا تَحْيَا عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ كَيْفَ الْحَيَاةُ عَلَى يَدَيِّ عَزْرِيلَا^(٢) ؟
ويقسم أن مصر ما كانت لتبلغ ما بلغته من رقى التعليم على الرغم من دنلوب
وخطئه لولا ذكاه بنيتها ، وإخلاص معلميه ، وحماسة شبابه ورجالها :

وَاللَّهُ لَوْلَا أَلْسُنٌ وَقِرَائِحُ دَارَتْ عَلَى فِطْنِ الشَّبَابِ شَمُولَا
وَتَعَهَّدَتْ مِنْ أَرْبَعِينَ نَفْسُهُمْ تَغْزُو الْقَنُوطَ وَتَغْرِسُ التَّامِيلَا
عَرَفْتُ مَوَاضِعَ جَدِّهِمْ فَتَتَابَعْتُ كَالْعَيْنِ فَيَضًا وَالْغَمَامَ مَسِيلَا
تَسْدَى الْجَمِيلُ إِلَى الْبِلَادِ وَتَسْتَحْيِ مِنْ أَنْ تَكْفَا بِالْثَنَاءِ جَمِيلَا
مَا كَانَ دَنْلُوبٌ وَلَا تَعْلِيمُهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ يَغْنِيَانِ فَتِيلَا^(٣)

(١) الشوقيات ٢١١/١ الفتيول : كرة القدم (٢) الشوقيات ٢٢٥/١ دام الفيل : ورم يصيب الساق .
ت ٢٢٦/١ الفطن : جم فطنة وهى الخلق والذكاء . الشمول : الخمر .

وقد كان من أثر الاحتلال وتعويقه نهضة العلم والتعليم بمصر أن صارت المدارس لا تعلم إلا ما يعد للوظيفة الحكومية ، وصار التعليم عاجزا لا يعد للمستقبل ، لأن برامجه محدودة ، ممسوخة ، فأخلى المصريون ميدان التجارة والصناعة للأجانب ، واضطروا إلى القناعة بقتات أرباحهم :

أرى وطناً تحير ناشئوه فما يجدون من عمل قواما
فلا أسس التجارة فيه قرّت ولا ركن الصناعة فيه قاما
مدارس لم تهينهم لكسب ولم تبين الحياة ولا النظاما^(١)

وكان من أثر ذلك كله أن قل النابغون بمصر ، وأن قل الأسخياء على التعليم بمالهم ، وأن تأخرت الزراعة ، واعتمد المصريون على القطن وحده ينبوعاً للثروة ، فإذا كسدت سوقه اضطربوا ، وكادوا يشغلون بسوء حالهم المالية عن متابعة الجهاد ، ومناهضة العدو الغاصب :

فاض الزمان من النبوغ فهل قُيَّ عمر الزمان بعلمه وبيانه ؟
أين التجارة وهي مضمّار الغنى أين الصناعة وهي وجه عَنّانه ؟
أين الجواد على العلوم بماله أين المشارك مصر في فدانه ؟
أين الزراعة في جنان تحتكم كهمائل الفردوس أو بكفانه ؟
أئذا أصاب القطن كاسدُ سوقه قننا على ساقٍ إلى أئمانه ؟
يا من لشعب رزؤه في ماله أنساه ذكر مصابه بكيانه
الملكُ كان ولم يكن قطنٌ فلم يغلب أبوتنا على عمرانه^(٢)

(١) الشوقيات ٢٧٨/١

(٢) الشوقيات ٣٢٧/١ العنان (بفتح العين) : السحاب

إضعاف الجيش

البر مصر حرب القنا والبحر مصر حرب السفينع
شوقي

أحزن شوقي أن نزل الاحتلال بالجيش المصرى إلى دركٍ من الضعف لم تعهده
مصر من قبل ، وأن يتسلط الإنجليز على الجيش ، يستأثرون برتبته العالية ، ويؤملون
في أرقى منها ، على حين أن أبناء مصر محرومون هذا التأميل ، ومحترقون بالآسى
من مهانة مصر ومهاتتهم ، يقول للورد كرومر :

أم هل يعدُّ لك الإضاعة مئة جيش بجيش الهند بات ذليلاً ؟
أنظر إلى فتياته ما شأنهم أو ليس شأننا فى الجيوش ضئيلاً ؟
حرمتهم أن يبلغوا رتب العلا ورفعت قومك فوقهم تفضيلاً
فإذا تطلعت الجيوش وأملت مستقبلاً لم يملكوا التأميلاً

وليس ينسى أن يذكر كرومر بأن الجيش المصرى الباسل هو الذى احتمل
الأعباء الجسام فى استعادة السودان ، وأن الجيش الإنجليزى كان على هامش الفتح ،
وكان جزاء مصر وجيشها أن ادعت بريطانيا اشتراكها فى فتح السودان ، وأن أهملت
شئون الجيش المصرى عامدة :

من بعد ما زفوا لإدورد العلا فتجأ عريضاً فى البلاد طويلاً^(١)
ويناغى توت عنخ آمون فى إحدى قصائده سائلاً : أجزعت على مصر القوية حين
بدالك حماها مستباحا ، لا سلاح يحميه ولا حصون تقيه ؟ أجزعت لما رأيت أرضها
بغير جيش ، وبجرها بغير سفين ؟ إننى أعلم أنك حزنت ، وأبك أعرضت عن النظر
إلى ديارك المستضعفة :

قل لى : أحسين بدا الشرى لك هل جرعت على العرين ؟
آنست ملكا ليس بالشا كى السلاح ولا الحصين

البرُّ مغلوبُ القنا والبخر مسلوبُ السفين
لما نظرت إلى الدنيا رصّدت بالقلب الحزين^(١)
وفي قصيدة ثانية في توت عنخ آمون يصوره قد بعث واجتاز أربعين قرناً حتى
بلغ مصر، فوجد إنجلترا تحتلها، وجنودها تنحكم فيها، واللورد يسيطر على مرافقها،
ووجد إنجلترا قد اغتصبت السودان تبني به سدوداً، واحتلت قناة السويس ورفعت
بها علمها، فحزن توت عنخ أيما حزن، وسخط على سفرته هذه، وود أنها لم تكن،
وأن جدار القبر لم يذشق عنه، وأن عينه لم تتفتح :

سافر أربعين قرناً عندها حتى أتى الدار فألقى عندها
إنجلترا وجيشها ولوردها مسلولة الهندي تحمي هندها
قامت على السودان تبني سددها وركزت دون القناة بندها
فقال والحسرة ما أشدها ليت جدار القبر ماتدهدا
وليت عيني لم تفارق رقددها قم تبني يا بنتشور مادهي^(٢)

دانشوای

نبروه لو ادرکت شهر کرم

لهرفت کیف تنفذ الاطعام

شوق

(١) اعتاد بعض الضباط والموظفين البريطانيين أن يجولوا في بعض القرى ليصيدوا
الطيور، وقد غادرت القاهرة كتيبة تعدادها نحو مائة وخمسين جندياً وضابطاً متجهة
إلى الإسكندرية بطريق البر، فوصلت يوم الأربعاء ١٣ يولية سنة ١٩٠٦ إلى منوف،
وعرض خمسة من الضباط على مأمور مركز منوف أنهم يريدون صيد الحمام في دانشوای،
فأرسل معهم شرطياً وترجماناً، ولما وصلوا إلى القرية شرع بعضهم يصطاد الحمام من
فوق الأشجار على الطريق الزراعي، وهؤلاء لم يمسههم سوء. أما الآخرون

(١) الشوقيات ٢/١٢٠

(٢) الشوقيات ٢/١٩٧ بندها : علمها . تدهده : انقض وتدرج . بنتاءور : شاعر مصري قديم .

فقد جابسوا خلال أجران القمح يصيدون ما بها من حمام ، وأسرع الأهليون إلى تنبيههم على أن نيران البنادق تحرق الأجران ، فلم يأنسوا ، وأصاب قذيفة أحدهم امرأة ، وأشعلت النار في الجرن ، فهجم أحد الأهليين على الضابط الإنجليزي ليستزع منه بندقيته ، وتبعه جمع من الرجال والنساء والأطفال ، وصاحوا بأنه قتل المرأة ، وأحرق الجرن . وجاء بقية الضباط لإنقاذ زميلهم ، ووافى الخفراء في الوقت نفسه ليفرقوا الجمع وينقذوا الضباط ، فتوهم الإنجليز أنهم جاءوا يريدون بهم شرأ ، فأطلقوا عليهم بندقياتهم ، فأصابوا شيخ الخفراء ، واثنين آخرين . فحمل الأهليون على الضباط الإنجليز جميعاً بالعصى والطوب ، فأصيب واحد بكسر في ذراعه ، وجرح اثنان جروحاً خفيفة ، وأحاط الخفراء بهؤلاء الثلاثة وزميل رابع ، وأخذوا منهم أسلحتهم ، وحجزوهم حتى جاء ملاحظ النقطة وأوصلهم إلى المعسكر ، حيث كانت الفرقة قد عسكرت في كمشوش

أما الكبتن بول والطبيب البيطري الإنجليزي ، فقد تركا دنشواى ، وكان الأول قد أصيب بضربة في رأسه ، وأخذوا يعدوان في وهج الظهيرة ، حتى قطعاً نحو ثمانية كيلو مترات ، فلم يكدا الكبتن بول يصل إلى سوق سرسنا حتى سقط من الإعياء ، ثم مات بعد ذلك من ضربة الشمس ، أما زميله الطبيب فاستمر يعدو حتى وصل إلى معسكر الكتبية .

وحينئذ علم الجنود المعسكرون بكمشوش بما حدث ، فأسرعوا إلى دنشواى ، وبعد بضعة كيلو مترات وصلوا إلى سرسنا ، فظنوها دنشواى ، وهناك وجدوا ضابطهم يرقد على الثرى ، ورأوا فلاحاً مصرياً يقدم إليه كوباً من الماء ، فظنوه من الضاريين ، فضربوه ببندقياتهم حتى هشموا رأسه وقتلوه .

ثار مستشار الداخلية المستر متشل ، وهاج الإنجليز ، وأرادوا أن ينكلوا بأهل دنشواى ، ليكونوا عبرة لغيرهم ، فحققوا معهم في سرعة خاطفة ، وقبضوا على الأهليين جزافاً ، وشكلت محكمة مخصوصة لمحاكمتهم ^(١) ، وبلغ عدد المقدمين للمحاكمة ٩٥ تغيب منهم ٧

(١) المحكمة برئاسة بطرس غالى باشا وعضوية ثلاثة من الإنجليز ورابع مصرى هو أحمد فتحي زغلول بك رئيس محكمة مصر الابتدائية .

وكانت المحكمة متحاملة على المتهمين ، وكان الدفاع عنهم ضعيفاً مستضعفاً .
ولم تقض المحكمة في هذه القضية الكبيرة الممتلئة غير ثلاثة أيام ، مما يدل على
التعجل والاستهانة .

ثم قضت بإعدام أربعة أحدهم شيخ طاعن سنه خمس وستون سنة ، وقضت
على اثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وعلى واحد بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة ،
وعلى ستة بالأشغال الشاقة سبع سنين ، وعلى ثلاثة بالحبس مع الشغل سنة وبالجلد
خمسين جلدة ، وعلى خمسة بالجلد خمسين جلدة .

وكانت المحاكمة وحشية جائرة ، فقد أرسلت المشائق من القاهرة إلى دنشواي
قبل انعقاد المحكمة . ثم جاء تنفيذ الحكم غداة إعلان الحكم ، وهنا انسلخ الإنجليز
من الإنسانية ، بل انسلخت منهم الإنسانية ، فقد أعلموا المحكوم عليهم بالإعدام
أنهم سيعدمون ، وسيقوؤا آخر الليل من شبين السكوم إلى قرية دنشواي ، وقضوا
هنالك زمناً ينتظرون قضاءهم المحتوم ، ولم يسمح لواحد منهم بأن يلقى أحداً من أهله .
يا للهول ! يا للبشاعة ! يا للعدالة المغلوطة ! لقد نصبت المشائق في دنشواي ، وافتن
الإنجليز في التنكيل والانتقام الدنيء ، فشقق المتهم الأول على مرأى من أهله ،
وما زال معلقاً في الحبل حتى جلد اثنين ، ثم شقق الثاني ، وبقي في حبله حتى جلد
آخران ، وهكذا .

إن الوحوش الضواري لا تلتذ فرائسها كما التذ الإنجليز بنظر هؤلاء الضحايا
الأبرياء .

نعم هم أبرياء ، لأنهم لم يتربصوا بالإنجليز ، ولم يبدأوهم بالعدوان ، ولم يكونوا
السبب في هلاك الضابط ، فقد قرر الطبيب الإنجليزي نولن أن الموت من ضربة
الشمس لا من ضربة العصا . ولماذا يعدم أربعة ويجلد ويحبس آخرون لقام إنجليزي
واحد حتى على فرض أن المصريين هم الذين قتلوه ؟

لكن هذه الوحشية أفادت الشعور المصري أيام فائدة ، ذلك بأنها أرثت في نفوس
المصريين كراهة الإنجليز ، وكشفت عن أخلاقهم ونظرتهم إلى مصر والمصريين ،
فذارت صحافة مصر تصب على السياسة البريطانية حمماً ، وأبلى مصطفى كامل أعظم البلاء

في التنديد ببريطانيا وجرائمها في مصر ، وفي إشهاد العالم على وحشيتها ، ودوى صورته
بفرنسا وإنجلترا وتردد صدهاء في مجلس العموم البريطاني .

وكان من أثر هذا كله عزل اللورد كرومر سنة ١٩٠٧^(١) .

مع (٢) ماذا كان أثر فظائع دنشواى في شعر شوقى ؟

من عجب أنه صمت عاما كاملا ، ثم نطق مرتين ، الأولى سنة ١٩٠٧ ليهاب العفو
عن سجناء دنشواى ، والثانية إذ ذكر كرومر بويلات حكمه وسيطرته على القضاء ،
ومحاباته أحد قضاة دنشواى بترقيته وكيل الوزارة الحقانية^(٢) .

ولست أجد لشوقى معذرة في هذا الصمت ، إزاء عدوان وحشى مشير ارتجت له
مصر وأسست .

فلماذا صمت شوقى ؟

هل كان صمته رهبة من الإنجليز ؟

لا أظن ذلك ، فإنه طالما ندد بهم ، وحمل عليهم في غير مخافة أو رهبة ، وقد هاجمت
الصحافة والساسة عدوان الإنجليز غير هيايين ، ولم يعرض لهم أحد بسوء ، فكيف
رهب شوقى ما لم يرهبه هو ولا غيره ؟

هل كان صمته مجاملة للقصر ؟

لا إخال ذلك ، لأن القصر كان في صراع مع كرومر ، فمن صالحه أن يشنع به
وبحكمه شعراء مصر وكتابهـا ، وأن يقرعوا الاحتلال البريطاني ، كما فعل شوقى
في تشييع كرومر .

هل صمت لأن الحادثة لم تستثره ليقول فيها شعراً ؟

لا . فكيف لا يستثار شاعر وطنى يرى إخوته يعذبون ظلماً ، ويقتلون طغياناً ،
بل يرى وطنه كله مستذلاً مهيناً وهو يمثل فى هؤلاء الضحايا ؟

هل يرجع صمت شوقى إلى أن الصدمة كانت شادة ، وأن اشتراك بعض المصريين

(١) راجع حادثة دنشواى فى كتاب مصطفى كامل للرافى ٢٠٠ — ٢٤٤

(٢) كان أحمد فتحي زغلول باشا أحد القضاة فى المحكمة المختصة التى شكلت لمحاكمة أهل دنشواى ،
وكان رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية ، ثم عينه كرومر وكيلاً لوزارة الحقانية .

فى الحكم على الضحايا وفى الدفاع لصالح الإنجليز أصاب الشاعر بخيبة أمل وذهول
ويأس ، فلما خفت الصدمة نطق ؟

ليس أدل على شدة هذه الصدمة من وصف قاسم أمين للحالة النفسية يوم تنفيذ
الحكم بقوله : رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا ، وزورا مخنوقا ، ودهشة
عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات .

كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكت مستسلم للقوة ، مختلط بشيء
من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة ، وهيئة
بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين
تطوف فى كل مكان من المدينة . واسكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس
لم يجد سبيلا يخرج منه ، فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان ^(١) .

أم يرجع صمته إلى أن الخديو كان قد بدأ يتطامن للإنجليز ويهادن لورد كرومر ؟
الحق أنى فى حيرة من صمت شوقى عاما كاملا .

ثم خطر لى أنه كان غائبا عن مصر حينما وقعت حادثة دنشواى ، فإذا صح هذا
كان له فيه بعض العذر ، لأنه فى بعده لم يعرف السكارثة على حقيقتها وعلى بشاعتها ،
فلم تجش عاطفته الملتاعة الساخطة .

ولكن من أين لنا أن نعرف غياب شوقى عن مصر ؟

رجعت إلى ما كتبه ابنه فوجدته يقول : « كان الخديو يقضى معظم شهور الصيف
فى الآستانة ولما كان على أبى أن يرافقه فى أكثر سفره إليها فقد اقتنى لنا منزلا
على ضفاف البوسفور واستمرت رحلاتنا الصيفية إلى اسطنبول لغاية إعلان
الحرب العالمية الأولى ^(٢) . فطبيعى أن يشخص شوقى مع الخديو فى كل سنة ، لأنه
شاعره وصفيه .

ورجعت إلى مذكرات أحمد شفيق باشا ، فعرفت منها أن الخديو كان بالآستانة
من ١٠ يونية إلى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ^(٣) .

(١) مصطفى كامل للرافعى ٢٠٧

(٢) أبى شوقى ٢٨، ١٨ (٣) مذكراتى فى نصف قرن القسم الثانى من الجزء الثانى ٩-٩٨

فترجع لدى حينئذ إلى درجة تقرب من اليقين أن شوقي كان غائبا عن مصر ،
حينما وقعت حادثة دنشواي ، لأنها كانت في ١٣ يولية سنة ١٩٠٦ .

وبعد عام نطق شوقي ، فماذا قال ؟

أنكر على لورد كرومر ترقية أحمد فتحي زغلول إلى وكيل وزارة الحفانية
(العدل) في قوله :

أم من صيانتك القضاء بمصر أن تأت بقاضي دنشواي وكيلا ^(١)
وفي ذكرى دنشواي بعد عام رثى للضححايا من قتلى وسجناء وأرامل وأيتام ،
وجزع من السكابة والأحزان التي أظلمت بيوتهم ، وغصت حياتهم ، وشهر بعدهم
كرومر وظلمه :

يا دنشواي على ربك سلام	ذهبت بأفس ربوعك الأيام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا	هيات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم في اللحد أهلة	ومضى عليهم في القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها	وبأى حال أصبح الأيتام ؟
عشرون بيتاً أقفرت وانابها	بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعري في البروج حمام	أم في البروج منية وحمام ؟
نيرون لو أدركت عهد كرومر	لعرفت كيف تنفذ الأحكام

وصور فجعة الأهلين ، بأنهم لا ينامون أسى وحسرة ، وإذا مانام كل حي تمثلت
لهم وحشية العقوبة وضراوة الانتقام في أشباح مروعة تحرم جفونهم الغمض ،
أشباح الهول ، والمشاق ، والسياط ، وزبانية جهنم ، والمستشار ^(٢) الإنجليزي الذي
يتملى النظر إلى الضحايا في غبطة ، في حين أن الشقاء والبلاء يقطع أكباد
الماكين والمكالي :

نوحى حمام دنشواي وروعى شعباً بوادي النيل ليس ينام

(١) الشوقيات ٢١٢/١

(٢) عو المستر ممثل مستشار الداخلية .

إن نامت الأحياء جالت بينه سحرا وبين فراشه الأحلام
متوجع يتمثل اليوم الذي صبحت لشدة هوله الأقوام
السوط يعمل والمشاق أربع متوحدات والجنود قيام
والمستشار إلى الفضائع ناظر تدمى جلود حوله وعظام
في كل ناحية وكل محلة جزعا من الملاء الأسيف زحام
وعلى وجوه الشاكين كآبة وعلى وجوه الشاكات رغام^(١)
على أن عاطفة الغضب في هذه القصيدة أميل إلى الفتور بالقياس إلى عاطفة
الإشفاق والرتاء ، وسنجد هذا الفتور عند حافظ وصبرى .

ولقد يسترعى الانتباه أن شوقي لم يرث فتحي زغلول ، على ما بين شوقي وبين
سعد من صلة ، وعلى ما كان لفتحي من جهود في ميدان العلم والثقافة ، لهذا لا نستبعد
ماروى عن شوقي في تكريم فتحي زغلول ، ذلك بأن نفرا من أصحابه أقاموا له حفل
تكريم بفندق شبرد حين رقى وكيلا للحقانية ، ورجوا شوقي أن يشاركهم بقصيدة
والحوا ، فوعدهم ، وكلما اقترب الموعد استنجزوه وعده ، وإذا بهم قبيل الحفلة بلحظات
يتلقون منه هذه الأبيات :

إذا ما جمعت أمركم وهممت بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تهرموا شعري عليه فحسبه من الشعر حكم خطه يمين
ولا تنسروه في (شبرد) بل انشروا على ملاء في دنشواى حزين
(٣) وإذا كان شوقي قد صمت عاماً كاملاً ، وحيرنا بصمته ، فإن حافظ إبراهيم
قد نطق ، لكنه حيرنا أيضاً بنطقه .

ذلك بأن حافظا نطق في غير ثوران عنيف كان متوقعا منه ، فهو في قصيدته
التي نشرها في ٢ يولييه سنة ١٩٠٦ بعد الحكم بخمسة أيام ، يعاتب ويتهكم في مقام لا يليق
فيه إلا الرجيم بالنار :

أيها التأمون بالأمر فينا هبل نسيتم ولائنا والوداد ؟
 خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتهغوا صيدكم وجوبوا البلاد ؟
 وإذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربا فصيدوا العباد ؟
 إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجياد ؟
 لا تظنوا بناء العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشاد ؟

.....

جاء جهالننا بأمر وجهتم ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا ؟
 أحسنوا القتل إن ضمنتكم بعفو أقصاصاً أردتم أم كيادا ؟
 أحسنوا القتل إن ضمنتكم بعفو أنفوساً أصبتم أم جمادا ؟
 ليت شعري أملك محكمة التفـ تيش عادت أم عهد نيرون عاد ؟
 كيف يحلو من القوى التشفي من ضعيف ألقى إليه القيادا ؟
 إنها مثله تشف عن الغيظ ولنسنا لغيظكم أندادا ؟
 أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجواد الجوادا ؟
 إن عشرين حجة بعد خمس علمتنا السكون مهما تمادى
 أمة النيل أكرت أن تعادى من رماها وأشفقت أن تُعادى
 ليس فيها إلا كلام وإلا حسرة بعد حسرة تنهادى

ثم حمل على المدعى العمومي في القضية إبراهيم الهلباوى حملة حارة مشكورة^(١)
 وله قصيدة ثانية في أكتوبر سنة ١٩٠٦ م في استقبال لورد كرومر حين عودته
 من أوروبا إلى مصر بعد الحادث - وكان متغيباً عن مصر حين وقوعه - وصف فيها
 ما حل بدنشواى من تشكيل ، واستنجد بكرومر ليخفف من فظائع الاستعمار^(٢)
 وله قصيدة ثالثة استقبال بها خلف كرومر السير إلدون غورست في إبريل
 سنة ١٩٠٧ ، أشار فيها إلى يقظة الشعور الوطنى بعد حادث دنشواى :

(١) ديوان حافظ ٢٠/٢

(٢) ديوان حافظ ٢٢/٢

قتيلُ الشمس أورثنا حياةً وأيقظ هاجع القوم الرقود
فليت كرومرا قد دام فينا يطوق بالسلاسل كلَّ جسد
ويتحف مصر آنا بعد آن بمجلود ومقتول شهيد
لنزع هذه الأكفان عنا ونبعث في العوالم من جديد^(١)

صمت شوقي وحيرنا ، ونطق حافظ فحيرنا .

فنحن في حيرة من حافظ أيضاً ، لأن قصيدته الأولى في دنشواي ، وهما اللتان
قالهما في زمن الحادث وبعده بقليل ليست فيهما العاطفة الهائجة الغضوب ، وليس بهما
قنابل مصوبة إلى الاحتلال البريطاني لتدكه ، أما الأبيات الأخيرة فقد قيلت بعد
رحيل لورد كرومر ، استقبالا لخلفه ، وشكوى له من عهد كرومر .
ألمست تشعر معنى بالحيرة من أمر شوقي ، ومن أمر حافظ ؟
ألمست معنى في أن حادثة دنشواي كانت جديرة بأن توحى إلى شعرائنا بملحمة
رائعة ، تغذي العواطف الوطنية وترويه ، وتمدها بالقوة والنماء والبقاء ؟
هذا ما كان من شوقي وحافظ .

(٤) أما صبرى فقد لاذ بالصمت كما لاذ شوقي ، ثم نطق فيما بعد لكن كما نطق
شوقي وحافظ . نطق فيما بعد ، لأنه في سنة ١٩٠٨ شكر للخديو عباس أنه عفا
عن المسجونين في حادث دنشواي ، واستطرد إلى كلمة عن الحادث :

وأقلت عثرة قرية حكم الهوى في أهلها وقضى قضاء أخرق
إن أن فيها بأس مما به وأرنت جأوبه هناك مطوق
وارحمتا لجنساتهم ماذا جنوا وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا ؟
ما زال يُقذى كل عين ما رأوا فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية للناس طى صحيفة تنالق^(٢)

.....

(١) ديوان حافظ ٣١/٢

(٢) ديوان اسماعيل صبرى ٥٧

رجيل كرومر

لا رحمت على اليهود نقيصة فكأنك المرء العياء رهيم

شوق

(١) كان شوقي ترجمان مصر في تشجيع اللورد كرومر ، وصب وابل من اللعنات عليه وعلى عهده .

لقد طالما أساء هذا الرجل إلى مصر ، فهو الذي سعى لعقد الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، فصارت إنجلترا مطالقة اليد في مصر لا تطالبها فرنسا بالجلد ، ولا تعارضها في أى عمل تعمله بمصر .

وقضى بمصر ربع قرن يوطد دعائم الاحتلال .

وكان هدفه الوحيد — كما جاء في حديث له — أن يحق مصالح بلاده ، ومصالح مصر . ولكنه صدق في الأولى وكذب في الثانية ، لأن مصر كانت مهمة مضيعة ، لا يهمه من أمرها إلا ما يضمن الدائنين الأوروبيين سداد ديونهم ، وأما مصالح إنجلترا فقد كانت هي الغاية .

وهو الذى أساء إلى مصر في خطبته قبل رحيله عنها سنة ١٩٠٧ ، وأساء إليها في كتبه وتقاريره .

وخطبته هي التي تهمنا هنا ، لأنها أثارت شوقي فرد عليه رداً مفجعاً مؤلماً .
جاء في هذه الخطبة : « سأظل أنخر باشتراكي مع السير رجيلد ونجت وأعوانه الأكفاء فيما قننا به من إصلاح . إننا في ربع قرن قد أدينا عملاً طيباً على مافيه من قصور وتقصير . ولكن كثيرين يقولون لى إن المصريين لا يعترفون كثيراً بالجميل والخدمات التي لا أشك في أنها قدمت لهم . وإنى أعرف ما يشعر به المصريون ، إذ قال فيلسوف فرنسى : من قاسى آلام الظلم والضميم طويلاً لم يبق له طاقة لشكر من يخلصه من ضيمه . ولا ريب أن المصريين قاسوا الكثير في زمانهم . ومهما كان شعورهم وخماستهم ، ومهما أقاموا من الحجج والبراهين فلا يمكن أن أصدق أنه يمكن للمصريين أن يتنكروا للتمدن الغربى الذى جلبته لهم إنجلترا في خلال الخمسة والعشرين عاماً ، ذلك التمدن الذى نشلهم من وهدة اليأس بعد ما هرموا فيها . وهب أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون

بهذه الحقيقة فإنى لا أزال آمل أن يعترف بها أبنائهم ، إذ المعتاد أن يكون أولاد العميان مبصرين .

إن الاحتلال البريطانى سيدوم ويبقى ، وقد قالت لنا حكومة جلاله الملك ذلك رسميا . وما دام الاحتلال باقيا فنحن مسؤولون عن الخطة التى تسلكها الإدارة المصرية لا تفصيلا بل إجمالا . ولا يكن عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثابتة ، ولتعلموا أن نظام الحكومة الحالى دائم على ما به من عيوب كثيرة ، وليس أقدر على سدد هذا النظام من السير إلدون غورست خلفى القدير البارع .

إننى لا أستحسن تغييراً فى نظام الحكم ، ولا أشير بالخروج على المناهج الحالية . وإذا اقتضى الأمر فسأطلب مُلِحاً مقاومة هذه الحركة المفتعلة الكاذبة التى تريد إنشاء مجلس نيابى ، وهى حركة إن سألتونى عنها قلت إنها لا تستحق أدنى التفات ، إذ هى لا تعبر عن رأى المتنورين من سكان القطر المصرى أوروبيين أو مصريين ، ومتى زال هذا الهذيان صار الاختلاف بينى وبين خصومى فى الطريقة لا فى الفكرة ، إذ هم يريدون أن يعدوا عدواً سريعاً جداً ، وأنا أرى ضد ما يريدون ، لاقتناعى بأنهم إذا أسرعوا عثر الجواد وانكسر .

ولو قُدر لى نقد النظام الذى دام نحو ربع قرن الآن ، لقلت إن التقدم كان فيه سريعاً جداً بطريقة غير مطمئنة .

كانت هذه الخطبة المتحاملة فى الحفل الذى أقامه له مصطفى فهمى باشا رئيس النظار بدار الأوبرا ، وخطب يودعه ويثنى عليه ، وحضره كثير من كبراء مصر وأمرائها وأعيانها وكبار موظفيها . ولقد كان من واجب المجاملة والأدب أن تكون الخطبة غير مارأينا ، لكن حنق اللورد المعزول أو المنقول بعد فضيحة دنشواى استبد بأعصابه فهاج وماج . فهو فى هذه الخطبة يرمى المصريين بالعقوق وإنكار الجميل والعمى وفقدان التمييز والعبودية ، وينذرهم بسرمدية الاحتلال البريطانى ، ويسخف مطالبتهم بالدستور والحكم النيابى ، ويصف حركتهم الوطنية بأنها حركة مفتعلة كاذبة خائرة لا قيمة لها ، ويريد أن يجعل الأجانب فى مصر من جميع الأمم رأيا فى سياستها .

ثم يرمى مصر بعد رحيله في تقريره الأخير بأن الذين أقاموا في الشرق واختلطوا بأهله يعلمون حق العلم أن من المحال على الأوروبي أن يوافق التفكير الشرقى ، لأنه ذو عقلية غربية ، حتى لينخيل إلينا أن الرجل الشرقى يعيش في زُحل . ويدعى أن أفكار المصريين عقيمة عقما يجعل من العسير على الإنسان أن يفهم مقاصدهم وآمالهم^(١) . ولم ينس المصريون أن اللورد كرومر شجع حركة التبشير ، ورمى الدين الإسلامى في تقريره سنة ١٩٠٦ بأنه دين لا يصلح لهذا العصر .

(٢) رد عليه شوقي بقصيدة حارة^(٢) ، عجب فيها من غطرسته بمصر ، وصارحه بأن المصريين فرحوا برحيله كما يفرح المريض بشفاؤه من داء عضال ، ثم أنبه على سوء أدبه في خطبته :

أيامكم أم عهد إسماعيل	أم أنت فرعون يسوس النيل ؟
أم حاكم في أرض مصر بأمره	لا سائلا أبدا ولا مستولا ؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت	فكأنك الداء العياء رحيل
أوسعتنا يوم الوداع إهانة	أدب لعمرك لا يصيب مثيلا
هلا بدا لك أن تجامل بعد ما	صاغ الرئيس لك الشنا إكليلا
انظر إلى أدب الرئيس ولطفه	تجد الرئيس مهذبا ونبيلا

ثم انتقل إلى تأنيب المصريين الذين شهدوا الحفل ، وسمعوا التهم على مصر ، وخص بالذكر الأمير حسين كامل والشيخ عبد الكريم سليمان :

في ملعب المضحكات مشيد	مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله	وتصدر (الأعمى) به تطفيل ^(٣)
جبن أقل وخط من قدرهم ما	والمرء إن يجبن يعيش مرذولا

وفند دعوى كرومر أن الاحتلال باق ، وأنذره بأن قدرة الله فوق قوة الإنجليز ، وضرب له المثل بفرعون ، كان أعظم قوة وغرورا ، لكن ملكه لم يدم :
لما ذكرت به البلاد وأهلها مثلت دور مماتها تمثيلا

(١) من مقال مجريدة المصرى . إحسان عسكر (٢) الشوقيات ٢٠٩/١ — ٢١٣

(٣) الأعمى : الشيخ سلمان لأن بصره كان قد ضعف وكاد يكف .

أُنذرتنسا رقاً يدوم وذلة تَبَقَى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة لا يملك التغيير والتبديلا ؟
الله يحكم في الملوك ولم تكن دول تنازعه القوى لتدولا^(١)
فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين العالمين قبيلا

ثم ندد بإخلاف إنجلترا وعودها المكررة أنها مستجلو عن مصر ، لأنها ادعت
أن الغرض من الاحتلال تثبيت الخديو وتحسين حال مصر ، وصور بقاءها بداء السل ،
وقال إنها فوضت نهضتها ، وضيعت استقلالها :

اليوم أخلفت الوعود حكومة كنا نظن عهودها الإنجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصر فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا

وبدأ يرد على الادعاء بأن إنجلترا أفادت مصر ورقّت مرافقها ، فذكر المدعين
بأعمال محمد علي وإسماعيل ، وبما بنيا من مدارس ومعاقيل ، وما كان لهما من جيوش
وأساطيل ، وبما شقّا من ترع ، وخطّا من مدن ، ومهدّا من طرق ، وغرسا من زروع ،
وأشاد بما أفاء إسماعيل من حضارة ، وشيد من قصور صار بعضها مأوى
للجيش البريطاني

قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى جحدوا الإله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد ونهوضها من عهد إسماعيل

.....

ثم دال على سوء الحكم بضعف التعليم ، وخور القضاء ، وتخلف الجيش ، وسيطرة
الإنجليز عليه :

هل من نذاك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولا ؟
أم من صيانتك القضاء بمصر أن تأتي بقاضي دنشواي وكيلا^(٢) ؟

(١) تدول : المراد تدوم .

(٢) قاضي دنشواي : أحمد فتحي زغلول باشا كان قاضيا في المحكمة التي حاكت أهل دنشواي بالشنق
والجلد والسجن . ثم جعله كرومر وكيل الحقلانية بعد أن كان رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية .

أم هل يُعَدُّ لك الإضاعة منَّةً جيشك بكيش الطند بات ذليلاً ؟
انظر إلى فتياه ما شأنهم أو ليس شأننا في الجيوش ضئيلاً ؟
حرمهم أن يبلغوا رتب العلا ورفعت قومك فوقهم تفضيلاً
فإذا تطلعت الجيوش وأملت مستقبلاً لم يلبسكوا التأميلاً
ثم ذكر ما قدم اللورد كرومر للإنجليز من خدمات بمصر لقاء أضرار بالمصريين ،
في أسلوب متهم ساخر ، أشار فيه إلى تعصبه للمسيحية ، وحرصه على أموال الدائنين ،
ومحاباته للأجانب المقيمين بمصر :

لو كنت من حُر الثياب عبدتكم من دون عيسى محسناً ومنيلاً
.....

أو كنت قسيساً يهيم مبشراً رُتلت آية مدحك ترتيلاً
أو كنت صرافاً يلندن دائماً أعطيتكم عن طيبة تحويلاً
أو كنت (تيمسك) ملأت صحائفي مدحاً يردد في الوري موصولاً
أو كنت في مصر نزيلاً جاهداً سبحت باسمك بكرة وأصيلاً
.....

ويختتم القصيدة بشماتته في اللورد المعزول ، لأن المصريين دعوا الله أن يظهر
ديارهم منه ، ولأنه تهجم على الإسلام :

إنا تمنينا على الله المنى والله كان بفيلهن كفيلاً
من سب دين محمد فمحمد متمكن عند الإله رسولا

(٣) هذه الصرخة الجريئة يقابلها من حافظ إبراهيم صوت خافت ، إذ يودع
اللورد توديعاً فيه إطراء واعتراف بالجميل ، وفيه عتاب رقيق على وحشية الإنجليز
بدنشواي ، وعلى رمي اللورد الشعب المصري بالتعصب ، ووصفه الشرقيين بالبله ،
وهل أدل على رقة العتاب من قول حافظ إن المصريين لولا ذلك لذابوا يوم وداعك
أسى ، لأنك المصلح المتودد المحبوب ؟ ثم عرض حافظ للرأيين المختلفين في حكم
كرومر : الرأي الراضى المقرر بأنه قدم لمصر خيراً كثيراً إذ أطلق العنان للصحافة ،

وأصلح الأرض الزراعية ، والرأى الساخط الذى يرى حكمه معوقاً لنهضة التسليم واللغة ، ومضيقاً حق مصر فى السودان ، لأن بريطانيا أشارت على مصر بإخلائه لما تثار المهدي سنة ١٨٨٤ ، ثم أعادت فتحه بالجيش المصرى يعاونه فى الظاهر الجيش الإنجليزى سنة ١٨٩٧ لتتخذ ذلك ذريعة لمشاركتها فيه ، وهؤلاء الساخطون لا ينسون أن هذا كان بتدبير كرومر ، وأنه منع الصحف المصرية الحرة من دخول السودان ، كما يؤيد . ولا ينسون سيئاته الأخر التى قد سبقت .

وبعد أن يعرض حافظ الرأيين يحجم أن يبدى رأيه الخاص . أفكان مرد ذلك إلى جبن ، أم إلى مجاملة أم إلى شىء آخر ؟ لست أدرى . ولقد نفترض أن مرد ذلك إلى الإنصاف ، وإن هذا الافتراض ليس إلى حافظ ، لأن المقام ليس مقام نصفه ووزن للحسنات والسيئات ، وإنما هو مقام رد على أجنبي طاغية قضى بمصر ربع قرن يسيطر على شئونها ، ويحتلب خيراتها ، ويسىء إلى أهلها ، وإن أحسن فى بعض أعماله إحساناً لا يتوخى به خير مصر ، وإنما يتوخى به الحصول على المال للدائنين الأجانب ، ثم هو فى تقاريره وفى خطبته لم يراع أدب المجاملة ، ولا حرمة العقيدة الدينية ، ولم ينصف فى أحكامه الجائرة على المصريين والشرقيين ، وطعن الوطنية المصرية ، والآمال المنوطة بها ، وأنذر باسترقاق دائم .

فواجب الذى يرد عليه أن يفند دعاواه ، وأن يبرز له مساوىء حكمه ، ويقرعه على تهجمه ، لا أن يذكر حسناته وسيئاته ، كأنه مؤرخ يعتمد الإنصاف فى حال لا مجال فيها لإنصاف .

قال حافظ :

مسالمٌ ولو أنا نُسِئ إلى الأولى	أساءوا إلينا ما مددنا لهم يدا
سنطرى أياديك التى قد أفضتها	علينا فلسنا أمةً تجحد اليدا
أمنّا فلم يسلك بنا الخوف مسلكا	ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدًا
وكنت رحيم القلب تحمى ضعيفنا	وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا

ولولا أسي في دنشواي ولوعة
ورميك شعباً بالتعصب غافلاً
لذبتنا أسي يوم الوداع لأننا
.....

فهذا حديث الناس والناس السن
ولو كنت من أهل السياسة بينهم
ولكنني في معرض القول شاعر
ثم يختتم القصيدة بما ينم عن ميل إلى كرومر :

فيأبها الشيخ الجليل — ل تحية
لأن غاب هذا الليث عنك لعله^(١)
لقد لبثت آثاره فيك شهيداً^(٢)

لكن الإنصاف يقتضي أن نذكر لحافظ أنه قال قصيدة أخرى في يناير سنة ١٩٠٧ رد بها على تهمة كرومر ، وحمل على سياسته ، وبرم بمنه على مصر أنه أصلحها ورقى شؤونها :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذب
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى
أعد عهد إسماعيل جلدأ وسخرة
عملتم على عز الجهاد وذلسنا
.....

(١) ادعى اللورد أنه مريض في حاجة إلى اعتزال العمل بمصر (٢) ديوان حافظ إبراهيم ٢٦/٢

(٣) ديوان حافظ ٢٦/٢

حملة على احتلال البلاد العربية

نهضت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الزمان شرفه
وبجمعنا إذا اختلفت بلاد بياض غير مختلف ونظيره

شوقي

كان شوقي يبغض احتلال مصر ، ويبغض احتلال غيرها من الدول العربية والإسلامية ؛ لأنه لم يحبس عواطفه في نطاق من الوطنية الضيقة ، فיאسى لضعف مصر وحدها ولا يكثر بما يصيب شقيقاتها من ويل ، وإنما كان يأسى لمصر ، ويأسى لكل دولة عربية أو إسلامية ، وكان يناهض الإنجليز في مصر ويناهض الفرنسيين والطلليان في سوريا وطرابلس ، ويدعو إلى مجاهدة هؤلاء ومناضلة هؤلاء .

(١) فقد ثارت سوريا على الاستعمار الفرنسي ، فدمر الفرنسيون دمشق ، ودكوا معالم التاريخ وأحرقوها ، واضطروا عقائلها إلى أن يبرزن إلى الطرق هالعات ، وأسالوا دماء الأحرار أنهاراً في الطرقات ، وتناسوا أنهم دخلاء غاصبون ينكرون بأبناء الوطن الأجداد .

فأقام المصريون في يناير سنة ١٩١٦ م مؤتمر استنكار لعدوان فرنسا ووحشيتها ، وألقيت فيه قصيدة لشوقي ، وهي من روائعه الخالدة .
وقد غاظت هذه القصيدة فرنسا ، حتى لقد حرمت أن يزور بلاد المغرب الخاضعة لها - على رغبته في هذه الزيارة .

في قصيدته (نكبة دمشق)^(١) تحية لدمشق ، وجزع بما أصابها وتمجيد لماضيها وحاضرها ، وتصوير لعزائتها ، وحزن لما أحدثته الفرنسيون بآثارها الإسلامية المجيدة ، واستنكار شديد لوحشيتهم ، وحملة صادقة عليهم ، وتنديد بهم لأنهم تنكروا لمبادئ ثورتهم التي زعموا أنها كانت أول هتاف بالحرية والإخاء والمساواة .

وإن حرارة العاطفة لتجلى في كل بيت من أبيات القصيدة الخمسة والخمسين .
وحسبنا أن نقطف منها بعض أبيات تتخذ منها مثالا على ما نقول .

فهو حزين لما أصاب دمشق حزناً لا يرقأ منه جفنه ، ويعقل بيانه عن وصف
مشاعره ، وهذا الحزن جرح قلبه بجراحاً غائرة لا تلتئم ولا تنسى :

سلامٌ من صبا (بردى) أرقُ ردمعٌ لا يكفكفُ يادمشق^(١)
ومعندرة اليراعة والقوافي جلالُ الرُّزءِ عن وصف يدق
وذكري عن خواطرها لقلبي إليك تلفتُ أبداً وخفق^(٢)
وبي مـارمتك به الليالي جراحاتٌ لها في القلب عمق

وهو حاملٌ على فرنسا الغاشمة ، فبعد أن وصف ما ارتكبت من فظائع ، ندّد
بوحشيتها ، وبوحشية كل مستعمر ، وندّد بطيش القائد الفرنسي الجنرال سراي ، لأنه
قائد غاشم ، كان حرباً على فرنسا نفسها بما جنى ، وبما جرّ عليها من سبة وموء سبعة .
ثم تهكم بفرنسا لأنها نكلت بالأحرار في سوريا ، عقاباً لهم على نشدان الحرية ، ونسيت
أن الفرنسيين قد ثاروا في آخر القرن الثامن عشر ينشدون الحرية ، وأن الدماء
التي أريقَت على أرض فرنسا كانت مباركة نافعة غدت الثورة ، وأقامت دولة جديدة ،
ونسيت أنها ساعدت بعض الشعوب المستعبدة على نيل حريتها ، فدتها بالمال والسلاح
والرجال ، فيا للعجب كيف تتنكر لماضيها ، وتستعبد الأحرار ، وتمكّل بالمجاهدين ؟
فلتعلم فرنسا أن السوريين الأحرار لا بد أن ينالوا حريتهم ، وأن وحشيتها غداة
لحماتهم ، وأن شهداء الجهاد خالدون ، وذكراهم تؤرث النضال :

سلي من راع غيدك بعد وهنٍ أبين فؤاده والصخر فزق^(٣) ؟
وللمستعمرين ولمن الأنوا قلوبٌ كاللحجارة لا ترق
رماك بطيشه ورعى فرنسا أخو حربٍ به صلفٌ وحق^(٤)
إذا ما جاء طـسـالابٌ حقٍ يقول : عصاةٌ خرجوا وشقوا^(٥)

(١) بردى : نهر دمشق . يكفكف : يحف . (٢) خفق : خفوق

(٣) الوهن : نصف الليل . وقد استمر ضرب دمشق ٥٦ ساعة متوالية (٤) صلف : كبر .
والمراد بأخى الحرب الأحمق الجنرال سراي (٥) شقوا : عصوا . كان السوريون يذهبون إلى
القائد سراي يرجونه أن يكف عن ضرب دمشق بالمدافع فيقول إنه يضرب العصاة الذين خرجوا على طاعته .

دُمُ الثَّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نَوْرٌ وَحَقُّ
جَرَى فِي أَرْضِهَا ، فِيهِ حَيَاةٌ كُنْهَلُ السَّمَاءِ ، وَفِيهِ رِزْقُ
بِلَادٍ مَاتَ فَتَيْتُهَا لَتَحْيَا وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَبْقُوا
وَحَرَّتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاها فَكَيْفَ عَلَى قَنَاها تُسْتَرْقُ (١) ؟

(٢) وَكَذَلِكَ نَدَدَ بوحشية الطليان إِذْ ضَرَبُوا بِأَسْطُوْطِهِمْ مَدِيْنَةَ بِيْرُوتِ (٢)

(٣) وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ أَعْدَمُوا الزَّعِيْمَ عَمْرَ الْمُخْتَارِ سَنَةَ ١٩٣١ شَهِيدَ الْمُسْلِمِيْنَ وَالْعَرَبِ
بَطْرَابِلِسَ ، وَلَمْ يَرْحَمُوا شَيْخَوْخَتَهُ وَسَنَّهُ الَّتِي نَبَّهَتْ عَلَى التَّسْعِيْنَ . سَمَلَ عَلَى إِيطَالِيَا الْغَاشِمَةِ
حَمْلَةً صَارِمَةً وَأَنْذَرَهَا بِئْأَرِ أَشَدَّ وَأَنْكَى ، لِأَنَّ رِفَاتَ الشَّهِيدِ الَّتِي وَارَاهَا الطَّيْلِيَانِ بِالْأَثَرِ
ذَخِرَ مِنَ الْحِمَاسَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ يَسْتَنْهَضُ الْعَرَبُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يَثَّارُوا لَهُ ، وَأَنْ يَقْتَدُوا
بِحِمَاذِهِ ، وَلَنْ يَنْسَى الْعَرَبُ هَذِهِ الْعَدَاوَةَ الْمُتَوَحَّشَةَ ، وَسَيُورِثُونَ الْأَجْيَالَ الْمُقْبِلَةَ
بِغَضِّهِمْ لِلطَّيْلِيَانِ ، وَالْدَّأْبَ عَلَى طَرْدِهِمْ مِنْ إِفْرِيْقِيَةِ (٣)

رَكَزُوا رُفَاتَكَ فِي الرَّمَالِ لَوَاءَ يَسْتَنْهَضُ الْوَادِي صَبَاحَ مَسَاءِ
يَا وَيْحَهُمْ نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ يُوَحِّى إِلَى جَبَلِ الْغَدِ الْبَغْضَاءِ
مَا ضَرَّ لَوْ جَعَلُوا الْعِلَاقَةَ فِي غَدٍ بَيْنَ الشُّعُوبِ مَوَدَّةً وَإِخَاءَ ؟
جَرَحَ يَصِيحُ عَلَى الْمَدَى ، وَضَحِيَّةً تَتَلَسَّسُ الْحَرِيَّةَ الْحَمَاءَ

(٤) لَمْ يَكُنْ شَوْقِي شَاعِرَ مِصْرَ وَحَدَّهَا ، بَلْ كَانَ أَيْضاً شَاعِرَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ،
يَفْرَحُ لِفَرَحِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِيْنَ ، وَيَأْسَى لِأَسَاسِهِمْ ، وَيَأْسَفُ لِحَاضِرِهِمُ الْمُتَخَلِّفَ كَمَا يَفْرَحُ
لِمِصْرَ وَيَأْسَى وَيَأْسَفُ .

فَفِي قَصِيدَتِهِ فِي ذِكْرِ مُحَمَّدٍ عَلَى يَتْمَنِ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَرْقَدِهِ لِيَشْتَرِكَ مَعَهُ فِي الْحُزَنِ
عَلَى حَالِ الشَّرْقِ ، وَعَلَى مِمَّا لَكَ الَّتِي انْفَرَطَ عَقْدُهَا ، وَجَرَدَتْ مِنْ قَوَاهِهَا :

(١) قَنَاها . رَمَاحُهَا وَالْمَرَادُ سِلَاحُهَا

(٢) الشُّوْقِيَّاتُ ١٩٦/١ (٣) الشُّوْقِيَّاتُ ١٧/٣

يا مديم الرقاد في خير مَرَقْدٍ قم فما حلَّ قبلك الأرضَ فَرَقْدٌ
وانظر الشرق كيف أصبح يهوى وانظر الغرب كيف أصبح يصعد
وتأمل ممالك بلادها لمس الدهر عقدها فتبدد
كنت تحميه والسيوف عوارٍ من له اليوم بالحُسام المجرد (١) ؟
وحين ودع الخديو عباس وهو شاخص إلى الحج ختم وداعه بأن طلب من الخديو
أن يثبت النبي عليه الصلاة والسلام حسراته من ضعف الشعوب الإسلامية ، وغفلتهم
عن العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وغفلتهم عن استيعاب ماضيهم المشرق ليعملوا كما
عمل أوالهم ، في زمن تتسابق فيه الأمم إلى الإبداع ، وتنافس في إعداد القوى .
ثم طلب منه أن يدعو الله وهو في عرفات أن يوفق مصر والمسلمين إلى
عظائم الأعمال :

إذا زرت يامولاي قبر محمد وقبلة مَثْوَى الأعظم العِطرات

.....

فقل لرسول الله : يا خير مرسل أبشك ماتدرى من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق سُبَات
بأيامهم نوران : ذكرٌ وسنة فما بالهم في حال الظلمات ؟
وذلك ماضى مجدهم ونفارهم فما ضرهم لو يعملون لآت ؟
وهذا زمان أرضه وسمائه مجالاً لمقدام كبير حياة
مشى فيه قوم في السماء وأنشئوا بوارج في الأبراج ممتنعات
فقل : رب وفق للعظائم أمتي وزين لها الأفعال والعزَمَات (٢)
ويعود إلى هذا المعنى في (نهج البردة) (٣)

(١) الشوقيات ١١١/١ الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى يهتدى به .

(٢) الشوقيات ١٠٠/١ (٣) الشوقيات ٢٥٨/١

زَلَّة

أنسميها مهادنة أم زلة؟

(١) لقد هادن شوقي أوزل إذ وصف الإنجليز بأنهم حلفاء مصر الأحرار ،
وأنهم أرقى الشعوب ، وأعز الممالك سلطانا ، وقال إنهم بعد خلع الخديو عباس ولوا
عمه السلطان حسين كامل ، فراعوا نظام الوراثة للعرش ، وهذا عدل منهم وسماح :

حلفـاًؤنا الأحرار إلا أنهم أرقى الشعوب عواطفها وميولها

أعلى من الرومان ذكرا في الوري وأعز سلطانا وأمنع غيلا

لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحا في البلاد عدولا

وأتوا بكبرها وشيخ ملوكها ملكا عليهم صالحا مأمولا^(١)

على أنه عرض بالإنجليز في القصيدة نفسها ، وعرض بتسلط اللورد كرومر ،
وبخضوع الخديو عباس له مضطرا . وجاء نفى شوقي بعد هذه القصيدة .

وما من شك في أنها وليدة ضعف طارىء ، وحال قاهرة ، لأن شوقي قال
هذه القصيدة حين تولية السلطان حسين كامل إثر عزل عباس ، في وقت كان لإنجلترا
فيه السلطان والسيطرة ، وكان السلطان حسين ينتظر فيه المناصرة والمؤازرة ، وفي وقت
كان شوقي فيه غير مرضى عنه ولا مرغوب في بقاءه بمصر .

لكننا كنا نود ألا يشيد شوقي بالمحتلين وإن كانت إشادته خاطفة .

ومن حقه علينا أن نذكر أنه لم يهادن الإنجليز إلا هذه المرة .

لكن له قصائد أخرى أشاد فيها بالإنجليز ، ففي قصيدته (شكسبير) سنة ١٩١٦
أعجب بقوتهم ، وأخلاقهم ، وسعة ملكهم ، وزعم أنهم كانوا يُصفون الود للمسلمين
وخليفتهم .

وإذا كان من حق شوقي الشاعر أن يشيد بعظمة شكسبير الشاعر ، لأن الشعر
والفن والعلم لا تعرف الحدود والفواصل والعداوات الدائرة بين الناس ، فإنه قد زلّ
بأن قدّم لقصيدته بمقدمة ما كان أغناه عنها .

(١) الشوقيات ٢١٥/١ الغيل : مسكن الأسد .

فقد قال هذه القصيدة والاحتلال جاثم على الصدور ، وكان من واجبه ألا يصور
مختصوم بلاده بهذه التصوير الذي ضخمه الخيال والمبالغة . وحتى على فرض أن الإنجليز
يستحقون أن يوصفوا بهذه العظمة فإن من واجب شوقي شاعر مصر أن يصمت ،
فلا يذكّر عظمتهم ، ولا يشيد بهم ، لأن في إشادته بهم إغراء بالخضوع لهم ، وتهويننا
من حدة العزائم في نضالهم .

وليس يشفع له أنه كان يداهنهم ليعيدوه إلى مصر من منفاه :

أعلى الممالك ما كرسيه الماء وما دعامته بالحسق شماء
يا جيرة المنش حلاًكم أبوتكم ما لم يطوق به الأبناء آباء
ملك يطاول ملك الشمس ، عزته في الغرب باذخه في الشرق قعساء
يستصرخون ويرجى فضل نجلتهم كأنهم عرب في الدهر عرباء

.....

وكان ودهم الصافي ونصرتهم للمسلمين وراعيهم كما شاءوا^(١)
وله قصيدة عنوانها (الله والعلم) بمناسبة تأجيل تنصيب الملك إدوارد السابع لإصابته
بدمل سنة ١٩٠٢ يدين فيها بقدرة الله وعجيب صنعه ، ويستنبط من هذا الحادث عبرا
وعظات ، ويصف الاستعداد لحفل التنصيب . وقد جره هذا الوصف إلى الإشادة
بقوة بريطانيا :

أعد لها إدورد أعياد تاجه وما في حساب الله ما هو حاسبه

.....

إلى موكب لم تخرج الأرض مثله ولن يتهادى فوقها ما يقاربه
إذا سار فيه سارت الناس خلفه وشدت مغاير الملوك ركائبه
تحيط به كالنمل في البر خيله وتملا آفاق البحار مراكبه

.....

عجيب يرجى مشرطاً أو يهابه من الغرب راجيه من الشرق هائبه^(٢)

ولم يكن ثمة داع لهذه القصيدة جملة وتفصيلاً ، فليؤجل -حفل تتويج الملك إدورد
أو لا يؤجل ، وليمغ أو يعمل ، وليصب بدمل أو بغير دمل ، فإن هذا كله لا يعنى مصر ،
ولا يصح أن يعنى شعراءها . وكيف يعنى مصر وشعراءها أمر أعدائها وتتويج
ملكهم ؟ وماذا تجنى مصر من تتويج ملك بريطانيا أو تأجيله أو إلغائه ؟

أما رثاؤه لكتشنر فإنه حافل بعبر الحياة والموت ، وفيه لفظة بارعة إلى شباب
مصر ، إذ يريدون أن ينالوا من أسباب المجد ما نال كتشنر لنفسه وقومه ، فهو هنا
إنسان طموح يأخذ بأيدي الشباب إلى الاقتداء بعظيم انقضى ، لأن مقام التاريخ فوق
الطوى . ويذكرهم بما قدمت مصر من جهود وضحايا وأموال في استرجاع السودان ،
وبأن لمصر نصيباً عظيماً في شهرة كتشنر وعظامته ، ويحذرون التفريط في السودان ،
لأنه حياة لمصر :

نشأ النيل إليكم سيرة	لكم فيها عظام وعبر
اقروها يكشف العصر لكم	كل عصر برجال وسير
لا تقولوا شاعر الوادى غوى	من يغالط نفسه لا يعتبر
موقف التاريخ من فوق الهوى	ومقام الموت من فوق الهذر
ليس من مات بخاف عنكم	أو قليل الفعل فيكم والأثر
شدتم دنياه في أحسنها	غزوة السودان والفتح الأغر
وبنى مملكة النوب بكم	فاذكروا القتلى ولا تنسوا البدر
واحدروا من قسمة النيل فيا	ضيعة الوادى إذا النيل شطر ^(١)

(٢) لكن حافظ إبراهيم زل أكثر من شوقى وأشنع . فقد دعا السلطان
حسين كامل إلى موالاتهم ، لأنهم كرام ميامين النقية ، ذوو ملك مجيد ، وخلق حميد ،
وليس مثلهم فى صدق الود ، ومعونة مصر :

فعش للنيل سلطاناً أياً	له فى ملكه عقد وحل
ووال القوم إنهم كرام	ميامين النقية أين حلوا

لهم ملك على الشاميز أضحت ذراد على المهاني تستعمل
وليس كقومهم في الغرب قوم من الأخلاق قد نهوا وعلوا
فإن صادقهم صدقوك ودا وليس لهم إذا قتشت مثل
وإن شاورتهم والأمر جسد ظفرت لهم برأى لايزل
وإن ناديتكم لباك منهم أساطيل وأسياف تسل^(١)
لم يقنع حافظ بهذه الزلة ، بل جامل الإنجليز ، فرثى الملكة فكتوريا^(٢) ،
وعزى قومها ، وهو يعلم أن عهدهما كان بلاء على وطنه ، وأن قومها ساموا بلادهم
الخشف . وفشر قصيدته الراهية سنة ١٩٠١ . وفي العام التالي هنا الملك إدوارد السابع
بالمملك ، وأظهر مصر تابعة ذليلة للإنجليز ، ودعا لهم بالنصر ورغد الحياة :

يا دولة فوق أعلام لها أسد تخشى بواذره الدنيا إذا زارا

.....

إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسم وإن كشرت لنا عن نابه كشرا

.....

(إدوار) دمت ودام الملك في رغد ودام جندك في الآفاق منتصرا^(٣)
وفي سنة ١٩١٥ استقبل معتمد بريطانيا السير مكاهون بقصيدة ، أطرى فيها
الإنجليز فمدحهم بالنبل والإصلاح والأناة والرشاد والعدل ، وزاد على هذا كله أن
استنصر بهم لمصر أضعف أمة مستضعفة :

أنتم أطباء الشـ مو ب وأنبل الأقوام غايه
أنى حللتكم في البلا د لكم من الإصلاح آيه
رسخت بناية مجدكم فوق الروية والهـ دايه
وعسدتكم فملسكتكم الد نيا وفي العدل الكفايه
إن تنصروا المستضعفين فنحن أضعفهم نكايه

(١) ديوان حافظ ٦٥/١ تستهل : تظهر . النهل : المغرب الأول . العلل : المغرب الثاني . ينزل :

ينطىء (٢) ديوان حافظ ١٣٦/٢ (٣) ديوان حافظ ١٤/١

أو تعملوا لصالحنا فتداركوه إلى النهاية^(١)
ويظهر أن حافظاً كان مضطرب النفس ، يقوى تارة فيعذر المصريين دهاء
الإنجليز كقوله في سنة ١٩٠٩ :

فلا تشقوا بوعد القوم يوماً فإن سحاب سامتهم تجهام
وخافوهم إذا لانوا فإني أرى السؤاس ليس لهم ذمام
فكم ضحك العميد على لحانا وغرّ سراتنا منه ابتسام^(٢)
ويضعف تارة فيستسلم ويأس ، ويرى جلاءهم من مصر محالاً ، كقوله بعد استرداد
السودان :

رويدك حتى يخفق العلمان وتنظر ما يجري به الفتيان
فما مصر كالسودان لقمة جائع ولكنها مرهونة بأوان
أرى مصر والسودان والهند واحداً بها اللورد والفيكت
وأكبر ظني أن يوم جلائهم ويوم نشور الخلق مقترنان
إذا غاضت الأمواه من كل مزبد وخرت بروج الرجم للحدثان
وعاد زمان السهرى وربّه وحكم في الهيجاه كل يمانى
هناك اذكرا يوم الجلاء ونبهاً نيماً عليهم يندب الهرمان^(٣)
إنه يائس مؤثس مشبط للعزائم . أليس يومهم شعبه بأن إنجلترا ستبتلع مصر أيضاً
كما ابتلعت السودان ؟

أليس يومهم المصريين أن الجلاء لن يكون إلا إذا ظهرت أمارات الساعة من غيض
المياه . وسقوط الشهب الخ ، أو لن يكون الجلاء إلا إذا حدث المستحيل فعاد الزمن
سيرته الأولى ، أيام أن كان القتال بالسيوف والرماح .
لكن شوقى لم يئأس ، ولم يثبط العزمات ، ولم يصور الاستقلال التام واستعادة

(١) ديوان حافظ ٨٢/٢

(٢) ديوان حافظ ٥٦/٢ جهام : لا ماء فيه . زمام : عهد . العميد : السير غورست .

(٣) ديوان حافظ ٥/٢ الفتيان : الليل والنهار . المزبد : البحر يقذف بالزبد . الحدثان : حوادث

الدهر ونوائبه .

المجد المؤثر بعيد المنال . وإنما كان في عنفوان الاحتلال كما كان في شيخوخته حرباً عليه ، وأملاً بساماً لقومه .

ثم عاد محافظ فقهويت عزيمته في قوله لسعد سنة ١٩٢٤ :

فاوض ولا تخفض جناحك ذلة إن العــــــــــــــدو سلاحه مفلول
فاوض خلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفي البلاد دخيلــــــــــــل
عزل ولكن في الجهاد ضراغم لا الجيش يفزعها ولا الأسطول
أسطولنا الحق الصراح وجيشنا الــــــــــــجج الفصاح وحربنا التدليل^(١)

(٣) أما أحمد نسيم فقد كان نوقا للإنجليز ، وأسيراً لعطاء كرومر^(٢) . ثم تاب وأتاب^(٣) . ولست أدري كيف يقول عنه الأستاذ عبد الرحمن الرافعي . وقد قرأت كتابه شعراء الوطنية بعد الفراغ من دراستي هذه . « شاعر مبدع من أعلام الشعر الوطني . . . ولد سنة ١٨٨٠ م واعتنق منذ صباه مبادئ الوطنية ، فامتزجت الوطنية بروحه الشاعرية . . . سمي شاعر الحزب الوطني ، واعتز هو بهذا اللقب . . . »^(٤)
ذلك أن شعره الأول حرب على الوطنية ، أما بعد رحيل لورد كرومر فقد جنح إلى تأييد مصطفى كامل ، وجهر بتوبته عن إثم مضى .

لا بد أن يكون الشاعر الوطني ثائر النفس ، فائر العاطفة ، يعبر عن ثورته بشعر متدفق ، ينزل في قلوب مواطنيه ناراً تصهر القوى ، وتستثير العزائم ، ويرفع لهم مناراً من مثلهم الأعلى في الحرية . ويدفعهم دفعاً إلى جهاد عدوهم ، والصبر على ما يلقون في جهادهم من تضحية وردى

وإنها جريمة من الشاعر أن يقصر في واجبه هذا ، فيتخلف عن قومه المجاهدين . وأجرم الجرم أن يشيد الشاعر بخصوم وطنه ويمدحهم مراراً ، لأن هذه الإشادة تقتل الهمم ، وتدعو إلى اليأس والاستسلام والرضا بما يسامه الشعب من خسف ومهانة .

(١) ديوان حافظ ١١٠/١

(٢) ديوان نسيم ١٨/١، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١١٤، ١٢٨

(٣) ديوان نسيم ١٩/٢ (٤) شعراء الوطنية ٢١٣

هؤلاء الشعراء ملومون إذاً ، وأقلامهم ملامة شوقي ، فقد كان في أحسن حاله
أقوى عزيمة ، وأعز نفساً من حافظ ونسيم .

فلم يشد بالإنجليز كما أشاد حافظ ، ولم يصور مصر ضعيفة ذليلة تستظل بجناح
إنجلترا كما صورها حافظ .

ولم يسف إسفاف نسيم ، ولم يخنع خنوعه ، فإن الإنسان لا يكاد يصدق أن مصر يا
شاعرا يتردى في حماة أعداء وطنه هذا التردى ، لينال من عرض الدنيا الزائل ، وهو
يرى ما يسومون قومه من صنوف التشكيل والعدوان .

الفصل الرابع

الجهاد والأبطال

طلّبو الجهاد على الجهاد صوبته لم يطلبوا أهر الجهاد زهيدا

إشادة بالمجاهدين

أشاد شوقي بالمصريين الذين يجاهدون لتقويض الاحتلال البريطاني ، قبل أن ينفي ، وبعد أن عاد من المنفى .

(١) فقد مدح الخديو عباسا بأنه شديد البغض للإنجليز ، لأنهم يريدون منه ومن مصر خضوعا وطاعة ، وهو والمصريون أباة أعزة ، لا يخضون ولا يطيعون . وعقّب على هذا بأن الاحتلال إذا ما بلغ غايته من السيطرة على وادى النيل فقد حجب عن المصريين الحياة والحرارة والخير والنور ، وبدل نعماءهم بأساء ، وآمالهم آلاما . ثم هدد المحتلين بأن مصر أنذرتهم تارة بزئيرها ، وتارة بسكونها الحائق ونظراتها الشؤر ، وليس سكونها عجزا أو استسلاما أو رضا ، وإنما هو تأهب للوثبة والثورة :

فما ذقت في هذا المقام مودة	لقوم يذوق الناس ودهم قسرا
يريدون نسر النيل مرسل رأسه	ويأبى إباء النسر أن يخذل النسرا
إذا حمت النيل المؤمل راحة	فقد حمت الشمس الكريمة والبدر
وحلت نظاما من نعيم وكدرت	مشارع الآمال تجمعها طرا
بعثنا وعيدا من زئير وطالما	بعثنا السكون الجم والنظر الشؤرا
وجنبنا حمل الضغينة أنما	من الوثبة الصغرى إلى الوثبة الكبرى ^(١)

(٢) ونوه بمصطفى كامل وجهاده في تحرير مصر ، كقوله في رثائه :
أُتذكر قبل هذا الجيل جيلاً سهرنا عن معالمهم وناما ؟
مهار الحق بغضنا إليهم شكيم القيصرية واللجأما
لواؤك كان يسقيهم بحمام وكان الشعر بين يدي جاما
من الوطنية استبقوا رحيما فضضنا عن معتقها الختاماً

.....

جمعتهم على زبرات صسوت كنفخ الصور حرّكت الرّجاما
لك الخطب التي غصّ الأعادى بسورتها وسأغت للذّدامى
بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثاً من خرافة أو مناماً
بنيت قضية الأوطان منها وصيرت الجلاء لها دعاماً^(١)

(٣) ونوه بسعد زغلول وكفاحه ، كقوله في رثائه :

تسكب الدمع على سعد دماً أمة من صخرة الحق بناها
لقرن الحق عليه كملها واستقى الإيمان بالحق فتاها
بذلت مالا وأمنّا ودماً وعلى قائدها ألفت رجاها
حملة ——— دمة أوفى بها وابتلته بحقوق فقضاها^(٢)

وقد سبق في صلته به أنه كان معجباً ببلائه ، مشيداً به .

(٤) وكذلك رثى محمد فريد وعبد الخالق ثروت وعبد العزيز جاويز وعاطف
بركات وعبد الحميد أبي هيف وغيرهم من الذين كان لهم ضلع في مجاهدة الاحتلال .

(١) الشوقيات ٢٧٧/١ المهار : المراد الشباب . شكيم القيصرية ولجأما : المراد شوكة الاحتلال
وسلطانه . جام : كوب . استبقوا رحيما : تسابقوا إليه . المدام : الخمر . الرجاء : القبور . سورتها :
شديتها وحدتها . خرافة : رجل زعموا أن الجن خطفته ثم أعادته إلى قومه وأخبرهم بما حدث له
فكذبوه ، وصار حديثه هذا مضرب المثل في البطلان (٢) الشوقيات ١٨٥/٣

إشادة بثورة مصر سنة ١٩١٩

ولقد أشاد بثورة مصر سنة ١٩١٩ ، على أنه لم يشهدها ، لأنه كان بالنفى .
ولو أنه رأى الثورة ، وشهد بطوله قومه ، واستهانتهم بالمسال والروح في الذود
عن مصر لسجل الثورة بملاحم طوال خوالده ، وهو نفسه يقول :

يومُ البطولة لو شهدتُ نهاره انظمت للأجيال ما لم يُنظم
غُبِئَتْ حقيقته وفات جمالها باع الخيال العبقري الملمم
لولا عوادي النفي أو عقباته والنفي حال من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الحوادث صورةً مثلتُ فيها صورة المستسلم
وحكيتُ فيها النيلَ كاظمَ غيظه وحكيتُه متغيظا لم يكظم^(١)

لكنه كان يعلم أنباء الثورة وهو بعيد ، فلما عاد ازداد علما بجلالها وقوتها ، فزهى
بها ، وتجلها مرات ، لأنها كانت ثورة عاتية زلزلت أركان المستعمر ، وفوتت عليه
ما كان يبيت لمصر من شرور .

يذكر شوقي أن مصر غضبت فهاجت كما تهيج اللبابة قد اعتسدى على أشبالها ،
فجمعت أبناءها الأبطال من كل مكان ليثوروا ثورة عاتية في وجه الاستعمار ، ورمت
بهم في معامع الحرب ولهب الثورة ، فخاضوها مستهينين بأهوالها .

ويصور قوتها بأنها خيلت لمن رآها أن الرياح قد جنت جنونا ، وأن الأرض
قد زلزلت زلزالا ، وبأنها كانت ثورة عجيبة ، لا نظير لها إلا أن تثور أسود الغابة جميعا
لتسترد أسدها الزعيم . لهذا أعجب العالم بها ، وكانت حديث الصحف والبرق في كل شعب .
وأراد شوقي أن يزيد الشعب ثقة بقوته النفسية ، وروحه المعنوية فقال إن سلاح
الحق أمضى من كل سلاح :

أتذكر إذ غضبت كاللبابة ولمت من الغييل أشبالها ؟
وألقت بهم في غمار الخطوب فخاضوا الخطوب وأهوالها
وثاروا فجئجنون الرياح وزلزلت الأرض زلزالها

وبات تلمسهم شبيخهم حديث الشعوب وأسافلها
ومن ذا رأى غابة كافت فردت من الأسر ربائلها؟
وأهيب ما كان بأس الشعوب إذا سلح الحق أعزائها^(١)

وقد صور حبرته بالشورة في مناجاته لصديقه الطبيب عثمان باشا غالب ، فإنه توفي
بباريس سنة ١٩٢٠ ، فرثاه شوقي ، وتمنى أن يقوم من مرقدده ايشهر يقظة قومه
وجدهم في تحطيم أغلال الاحتلال ، ونوه بالمجاهدين والمجاهدات ، من شيب وشبان ،
وبأن المصريين صاروا يقدرون الرجال بما بذلوا في النضال ، وسمى هذه الفورة معجزة
من معجزات الفكر والوعى ، وتنبأ بأنها ردت الحياة إلى الشعب أو ردت الشعب
إلى الحياة :

عثمانُ قم ترآيةً الله أحياء (الموميات)^(٢)
خرجت بنين من الثرى وتحركت منه بنات
واسمع بمصر الهاتفين بمجدها والهاتفات
والطالبين لحقها بين السكينة والثبات
والجاء عليها قبلة عند الترمم والصلاة^(٣)
لا أقوا أبوتهم على غر المناقب والصفات
حتى الشـباب تراهم غلبوا الشيوخ على الأناة
وزنوا الرجال فكان ما أعطوا على قدر الزنات
قل للمغالط في الحقما تق حاضر منها وآت
الفكر جاء رسوله وأتى بإحدى المعجزات
عيسى الشعور إذا مشى رد الشعوب إلى الحياة^(٤)

(١) الشوقيات ٢٣٣/٢ الغيل : الغابة . غار الخطوب : مدام الأهوال . شبيخهم : سعد زغلول .
الربال : الأسد . أعزل : جمع أعزل وهو الذى لا سلاح معه
(٢) الموميات : الأجساد المحنطة (٣) الترمم : ضرب من العبادة عند المسيحيين كالصلاة
عند المسلمين (٤) الشوقيات ٥٤/٣

ونوه بالثورة في رثاء سعد زغلول ، ومجده بأنه كان مشعلها وقائدها وأباها ،
وليس له نسل غيرها . ووصف تماقت المصريين على نارها ، وصورهم أشبالا تحتشد
وتموج ، وافتخر بأنها ثورة قامت على حق مصر الطبيعي في أن تحيا حياة حرة كريمة .
وذكر من مفاخر سعد أنه غدى الثورة بقلبه ولسانه ، وأنه كان أول من اكتوى
بنارها بنفيه من مصر ، ثم اهتز نشوة وإعجابا بهذه الثورة ، فجعل مصر وسعداً غلابين
للإنجليز على ضعف مصر المادى وبطش إنجلترا ، وشبه هذه الحال بموسى قد لقت
عصاه إفك فرعون وسحرته . ثم قال إن مصر هبت تصرخ في وجه المحتلين مستنكرة
الرق ، وكان النصر لها على عدو مستكبر خرج من الحرب مهزوا بانتصاره ،
وأسلحته نشوى :

ولد الثورة سعد حرة	بحياتي ماجد حرة نماها
ما تمني غيرها نسلا ومن	يلد الزهراء يزهد في سواها
بارك الله لها في فرعها	وقضى الخير لمصر في جناها
قد كتبناها فكانت صورة	صدرها حق وحق منتهاها
رقد الثائر إلا ثورة	في سبيل الحق لم تخمد جذها
جال فيها قلباً مستنهضاً	ولساناً كلما أعت حداءها
ورمى بالنفس في بركانها	فتلقى أول الناس لظاها
أعلمتم بعد موسى من يد	قدفت في وجه فرعون عصاها ؟
وطئت نادبة صارخة	شاه وجه الرق ياقوم وشاها
ظفرت بالكبر من مستكبر	ظافر الأيام منصور لواها
القنا الصم نشاوى حوله	وسيوف الهند لم تصح ظباها (١)
وقد أشاد بالثورة في قصائد أخرى .	

(١) الشوقيات ١٨٩/٣ حياتي : حياة والمراد بالثنائية هنا الأفراد . اللبا : جمع لباة وهى اللبوة .
صدرها : أولها . جذها : جمع جذوة وهى قطعة النار . حداءها : دفعها إلى الأمام . لظاها : نارها .
شاه : قبح . القنا الصم : الرماح اللدنة الصلبة . ظباها : جمع ظبة وهى حد السيف .

وكذلك سجد ذكرها ، ففي الاحتفال بيوم الجهاد الوطني في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٨
حيث شهداء الثورة ، وعرض ضروبا من عظمتها :

دعت البلاد إلى الغمّار فغارت وطنيةً بثقف ومصلّم
ثارت على الحامي العتيد وأقسمت بسواه جبل جلاله لا تحتمى

.....

ثارت من الغاب الشبول غلى بها لبنُ اللبّاء ، وهاج عرق الضيّغ
يومَ النضال كستك لونَ جمالها حرية صبغت أديمك بالدم
أصبحت من غرر الزمان وأصبحت ضحكت أسرة وجهك المتجهم^(١)
ونوه بها في قصيدتين ذكرهما حسين شوقي في كتابه ، ولم أجد هما في الشوقيات^(٢) .
وكثيراً ما مجد الشباب الذين أبلوا في الثورة ، وسجن بعضهم ثم أطلق ، وكثيراً
ما رطب قبور الشهداء بثناء حلو مستطاب .

من ذلك قوله :

ولقد صدقتم هذه الأرض الهوى والحر يصدق في هوى أوطانه
أملّ بذلتكم كلّ غالٍ دونه وفقدم ماعزّ في وجدانه
الليث يدفعكم بشدة بأسه عنه ويطمعكم بفرط ليلانه
ويريد هذا الطيرَ حرّاً مطلقاً لكن بأعينه وفي بستانه^(٣)

وقوله :

لما بنى الله القضية منهم قامت على الحق المبين عموداً
جادوا بأيام الشباب وأوشكوا يتجاوزون إلى الحياة الجودا
طلبوا الجلاء على الجهاد مثوبة لم يطلبوا أجر الجهاد زهيداً^(٤)

(١) الشوقيات ٢/٢٣٦ (٢) أبى شوقي ٩٣-٩٦

(٣) الشوقيات ١/٣٢٦ (٤) الشوقيات ١/١٢٧

شعره في الثورة العراقية

ليس في ديوان شوقي عن الثورة العراقية إلا بيتان اثنان جاء كل منهما عَرَضاً .
فلما رجعت إلى جريدة اللواء وجدت فيها قصائد ثلاثا قالها شوقي في عرابي .
وهنا لابد لنا من وقفة متعملة ، ونظرة فاحصة منصفة . فإن من حق عرابي
أن نحاسب شوقي على ما قال ، لنثنين : أيستحق عرابي حملات شوقي عليه ؟ أم أن
شوقي ظلمه في حياته وبعد مماته ؟

ومن حق شوقي أن نصور الجوّ الذي كان يعيش فيه ويتأثر به ، وأن نفصل
القول بعض التفصيل فيما نسب إلى عرابي من أخطاء . لذلك لابد لنا من هذه الحقائق
عن الثورة العراقية .

(١) كانت الثورة العراقية ثورة وطنية شعبية ، تزعمها رجال الجيش في أول
الأمس ، ثم آزرها الشعب كله .

وحسبنا هنا شهادة المستر بلنت في قوله : إن الأمة بأسرها ، وبعبارة أدق : إن
طبقاتها المستنيرة الدستورية النزعة قد تبينت فجأة أنها ليست من الضعف بحيث
ظنت نفسها ، وأن لها في الجيش قوة طبيعية متجمعة لا يستهان بها ، فإذا ما استطاعت
أن تضمه إلى جانبها في قضية الإصلاح الدستوري ، فإنه لا بد قاضٍ على ما حاق بالأمة
من شدة وهوان طال عهدهما .

وسرعان ما أصبح عرابي وأصحابه مجرماتهم وحركتهم الناجحة معقد آمال الأمة ،
وموضع إعجابها ، واستحال في نظر الوطنيين ما كان يُقصد به أن يكون مجرد احتجاج
عسكري إلى عمل وطني عام ، وأصبح عرابي رجل مصر المِشار إليه بالبنان ، ولُقّب
بالرجل الوحيد . وما هو إلا قليل من الزمن حتى توثقت العلاقات بينه وبين أكثر
الزعماء والسياسيين في ذلك الزمن « (١)

وقال مرة ثانية : « كان في وسع كل إنسان إذ ذاك أن يعلم أن الجيش عندما

تسمح له الفرصة للعمل في ميدان العمل الحر مرة أخرى فلن يحصل لمصالح أفرادهم ، بل يعمل لمصالح الأمة السياسية العامة ،^(١)

(٢) كانت الثورة نتيجة لفساد داخلي ضج منه المستغيرون من رجال الجيش وغيرهم . وقد بينت في (نضال الوطنية) أن أحرار المصريين في آخر عهد إسماعيل وأول عهد توفيق جاهدوا بطلب الدستور والحكم النيابي ، وإصلاح أداة الحكم . وكانت الثورة نتيجة لإصرار إنجلترا على التدخل في شئون مصر ، تهديداً لاحتلالها المرموق .

وقد تكشففت نواياها بعد المذكرة التي أرسلتها هي وفرنسا إلى الخديو توفيق ، تعرضان فيها عليه حمايتهما له ، فقبل المذكرة ، وشكر للحكومتين ودهما وعطفهما^(٢) . ثم أعقبنا ذلك بطلبهما من الخديو أن يبعد عرابي وزملاءه من كبار الضباط ، وأرسلنا أسطوليهما إلى الإسكندرية^(٣) .

وكان توفيق يشعل نار الثورة من حيث يريد إخمادها ، وذلك بدسائسه ، ونفاقه ، ومحاولة أن يفرق شمل الداعين إلى الإصلاح ، وخضوعه لدسائس الإنجليز ، وتلميذته لرغباتهم^(٤) .

وقد أيقن زعماء الإصلاح أن الخديو توفيق ضالع مع الإنجليز ، وأنه يرحب بالاستعمار الإنجليزي ، على حين أن الشعب يرفضه ويأباه .

ومظاهر احتماؤه بالإنجليز وترحيبه بحمايتهم له كثيرة ، فهو في لقاءه لعرابي وللجيش بعابدين في سبتمبر سنة ١٨٨١ م . اصطحب معه قنصل إنجلترا والمراقب المالي الإنجليزي ، واستشارهما ، وأشار عليه أحدهما بأن يقتل عرابي بيده ، وتطوع أحدهما فناقش عرابي في حركته والغرض منها .

ولما انحاز قنصل فرنسا العام في مصر البارون دي رنج إلى عرابي ، ليساعده على صد عدوان إنجلترا على مصر ، كان انحيازه السبب في أن طلب الخديو من الحكومة الفرنسية استدعاءه^(٥) .

(١) المرجع السابق ١٢٢ (٢) المسألة المصرية . روثستين

(٣) أحمد عرابي ٢٠٤ محمود الحفيف (٤) أحمد عرابي ٦٩ — ٧٧ ، ٩٤ — ٩٩ محمود الحفيف

(٥) تاريخ المسألة المصرية ١٢٣ روثستين

ثم من العجب المحزن أن يتهج الخديو بضرب الأسطول الإنجليزي مدينة الإسكندرية في يولييه سنة ١٨٨٢ .

وهو يطلب من السير أوكلند كلفن في ١٩ يولييه سنة ١٨٨٢ أن يستحث الحكومة الإنجليزية على أن تخطو خطوة جديدة بغير إبطاء ، لأن هذه الخطوة ضرورية جداً لمقاومة قوة عرابي التي عظمت^(١) . وفي ٢٢ يولييه سنة ٨٢ يعزل عرابي من نظارة الجهادية والبحرية استجابة لمشورة الإنجليز .

ولما انتصر الجيش المصري على الجيش الإنجليزي بالقرب من أبي قير في ٥ ٢٦ أغسطس سنة ٨٢ انسحب الإنجليز إلى الإسكندرية ، وظن توفيق أنهم قد انتصروا ، فهأنهم ، وأصدر بلاغا في ٧ أغسطس يحذر فيه المصريين من متابعة عرابي ، ويرميه بالعصيان ، ويتوعد من يشايعه . وقد دسّت إنجلترا لعرابي عند السلطان العثماني فأصدر قراراً بأن عرابي عاصٍ خارج^(٢) .

فلم يكن بد من وقف دسائس الخديو ، وتوقيفه عن تمهيد السبل لاحتلال مصر ، بل كان لا بد من خلعه ، لأنه خائن للوطن خيانة عظيمة .

لكن الثوار لم يخلعوه ، وإنما قرر المؤتمر الوطني الكبير الذي اجتمع في ٢٢ يولييه سنة ٨٢ أنه خرج على الدين ، وأن أوامره لا تطاع ، وقرر عرض قراره هذا على السلطان^(٣) . وكان في هذا المؤتمر ٥٠٠ من صفوف الأمة ، بينهم ثلاثة من الأمراء (٣) كان مبعث الثورة نبيلًا ، وكان الغرض منها نبيلًا .

فهي تطلب إصلاح شئون مصر داخليًا ، وقد أسلفت ذلك في (ضحا الوطنية) وهي تطمح إلى استقلال داخلي ، فقد صرح عرابي لصديقه مستر بلنت قبل الثورة بأنه يبتغي لوطنه استقلالاً داخلياً ، ولا يفكر في الانفصال عن الخلافة العثمانية^(٤) . وهو صادق في هذا ، لأن المصريين جميعاً ، كما يقول بلنت ، لم يكونوا ليفكروا في الخروج على الجاهة الإسلامية^(٥) . وسيتبين لنا مصداق ذلك من دراسة

(١) أحمد عرابي ٣٤٨ محمود الخفيف

(٢) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ٨٢ وأحمد عرابي ٣٨١ — ٣٨٤

(٣) الثورة العرابية ٣٩٥، ٤٠٣ الرافعي ومذكرات عرابي ١/١٩٤ — ١٩٦

(٤) أحمد عرابي ١٠٤ الخفيف (٥) أحمد عرابي ١٣١ الخفيف

الحالة السياسية بعد الثورة بربع قرن^(١) .

فالثورة العرابية قامت لتدفع عن الوطن عدوان المتلففين على استعمارهم منذ زمن بعيد .

فهى إذا عمل مفروض تحتمه الشهامة والغيرة على الوطن ، ولا ينكص عنها فى مثل تلك الأحوال إلا خائن أو جبان خوار .

ولقد كان عرابى غير خائن وغير جبان .

ولم يكن هو الذى سهل على الإنجليز تدبير المؤامرات ، ورسم الخطط لاحتلال الوادى ، ولم يكن عمل من أعماله سبباً فى ضربهم الإسكندرية بأسطوطهم فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ .

فهم العادون ، وهم الطامعون فى احتلال مصر . فهل كان خليفاً به — وهو الزعيم الشعبى — أن يتخلى عن زعامة مصر ، وأن يستسلم للإنجليز دون أن يقاوم ؟

يقول السير بلنت فى سنة ١٩٠٧ :

رأى عرابى من واجبه أن يدفع عن وطنه كل عدو مغير ، وبهذا أدى لوطنه فى أسابيع الثورة خدمة لا تقدر ، خدمة أرى من الحق أن يذكرها بها ، فلو أنه كان ألين عريكة مما كان إذ رفض التهديد أو الرشوة^(٢) عند ما طلب إليه مغادرة مصر ، ولم تنشب الحرب ، لو أنه فعل ذلك لبقى الفلاحون كما كانوا فى سنة ١٨٨٠ عبيداً لسادتهم الأتراك وعبيداً للأوروبيين .

وماذا يرى أى وطنى ما كان عسياً أن ينتج من إذعان عرابى ؟ أهو حرية من أى نوع ؟ أهو استمرار لحكم الشعب نفسه ؟ أهو حكم أجنبى أخف وطأة مما هو عليه الآن^(٣) ؟ لا شىء من ذلك يقيناً .

إن النتائج المتوقعة تتمضج فى النظام الذى أخذت به القاهرة عقب الثورة . إنه

(١) راجع باب (الإسلامية والوطنية) من هذا الكتاب

(٢) قبل أن يبت روتشيلد تعهد أن يدفع له معاً مرتباً سنوياً قدره ٤٠٠٠ ج والحكومة الفرنسية عرضت عليه مرتباً سنوياً قدره ٦٠٠٠ ج إذا هو غادر مصر حسب المذكرة المشتركة من إنجلترا وفرنسا تطلبان فيها أشياء منها إخراج عرابى من مصر (تاريخ المسألة المصرية ٢٠٥)

(٣) صدر الكتاب سنة ١٩٠٧

ما كان ليُخرج عن نوع من استبداد الشرطة والفندك والمقربات الخفية ، ولا يخفف من ذلك أى اهتمام بالقومية المصرية ، وكان من الممكن من الوجهة الشكلية أن يسمح لمجلس من الأعيان بالانعقاد بضع جلسات من قبيل ما يسمى هيئة استشارية ، لكنه لن يكون ذا قوة ، ولن يكون له قط روح وطنية ، وكان يعاد الحكم الشركسى أشد مما كان . وكانت تحرص الرقابة المالية — وقد قويت شوكتها بسلطة سياسية جديدة ، واهتمت بأمور مالية ومصالح أوربية بحتة — على ألا تحرر الفلاحين من ساداتهم الأتراك ، وقد غدا هؤلاء الأتراك عبيدا لأوروبا . وكانت تذهب أسطورة الحركة القومية للفلاحين هباء في صورة مشينة ، لأن الشعب الذى لم يجرؤ قط على الدفاع عن وجوده جدير بالاحتقار . وكانت المطبوعات القومية تهوى إلى مثل ما هوت إليه في تونس ، وكان لا يجد المرء أثرا للحرية المدنية ولا للحرية الشخصية ، ولا أى تقدير للحقوق القومية . وكانت مصر في الواقع ترى كما كانت في سنة ١٨٨٣ أرضا لا يستطيع المرء فيها أن يزيد على الخمس ، ولا يأمن جاره أن يشى به .
لقد خلاص عرابى بنى وطنه على أقل تقدير من هذا كله .

وإذا كانوا لم يروا فيه جنديا كما رأوا فيه وطنيا فإنه أنقذهم من وصمة شنيعة ، هى أنهم لم يحاربوا في المرة الوحيدة التى أتيحت لهم حين واتهم الفرصة ليدافعوا عن حريتهم»^(١) .

(٤) وقد أبلى المصريون في منازلة الإنجليز بلاء مجيدا . ومن بواعث الأسى أن يشوه هذا البلاء المجيد مؤرخون من الإنجليز ، ويحاكمتهم بعض المصريين .

لكن المناضلين انكسروا شرفاء . وكان السبب في انكسارهم خارجا عن تدبيرهم وإخلاصهم .

فالحديث ضالع مع أعدائهم وأعداء مصر . وله وللإنجليز صنائع من الخونة يفتنون في القوى ، ويدلسون الأسنار على المحاربين ، ويمهدون للإنجليز أن يباغت

(١) تاريخ المسألة المصرية ٢٠٥ روثتين وأحمد عرابى ٣٣٦ . محمود الخفيف . عن

الجيش المصرى فى جنح الليل بالصحرء الشرقفة (١) .
وقد اعتمدت برطانيا على المال والرشا ، وبخاصة للسدو فى المناطق الشرقفة
من مصر ، ولبعض الكبراء من الوطنفین والضباط (٢) .
فلم تغن الحماسة ، ولا إحكام الخطط للدفاع فى الميدان الشرقى بعد أن أفرخت
الخبانة .

ثم كانت الخبانة القاضفة فى موقعة التل الكبر ، إذ مهدت للجفیش الإنجلزى
أن فباغت الجفیش المصرى فى مأمنه . بل إن الضباط الذفن كانت الحراسة منوطة بهم
هم الذفن سهلوا على الإنجلز أن فبخرقوا السبل إلى الجفیش المصرى .
أما عرابى فقد فوجئ وهو فبصلى الفجر بهذا الهجوم ، فأسرع فى فقلل من رجاله
إلى البطل المناضل محمد عبفد ، فهاله أن الفارفن قد سدت جموعهم الطرفق ، وقد ألقوا
أسلحتهم ، ولم فبستجفبوا لتحمفسه ، فاتجه إلى بلفس فبثبت بها خطأ للدفاع ، فلم فبسطع ،
فأسرع إلى القاهرة لبدافع عنها ، وأعد العدة لذلك ، لكن الخبانة لاحقتة ، فأعجزته ،
فسلم (٣) .

وقد عفف عرابى بأنه لم فبحصن شرقى مصر ، ولم فبدم قناة السوفس .
والحق أنه كان قد فكر فى ردمها ، ثم أحجم لسببفن :
١ — كان لا فبرفد أن فبحقق ما فبصفه به الإنجلز والخبفدو والسلفان أنه عاص
مخرب ، لأن فبثبات هذه التهمة فبفقده عطف العالم .
٢ — كان دى لسبس جاداً فى المحافظة على القناة ، وكان فبخشى من ردمها ، فحمل
حكومته على التدخل ل حمافيتها ، وتعهد لعرابى بأن فبجلترا إذا اعتدت على فبفدة القناة
وأنزلت جندها بالإسماعفلفة قاومتها قوة فبرففة فرنسفة فبضم إلى الجفیش المصرى .
والدفل على صدق دى لسبس أن المسفو دى فرنسفه فبقدم إلى المجلس التشرفعى الفرنسى
فبفتح اعتماد لإعداد حملة فبرففة للدفاع عن القناة ، فلم فبجبه المجلس ، فاستقال فى أول
أغسطس سنة ١٨٨٢ (٤) .

(١) مذكرات عرابى وتارىخ الأستاذ الإمام ٢٥٧

(٢) أحمد عرابى ٤٠٨ — ٤٢٤ ، ٤٤١ — ٤٤٦ الخفف

(٣) أحمد عرابى ٤٤٧ — ٤٥٣ الخفف (٤) أحمد عرابى ٤٠٢ الخفف

وعيب بأنه سلم نفسه للإنجليز ليحاكموه ، وكان من الخير له أن يقضى نحبه في ميدان الجهاد على رأسه من النصر .

وهذا حق ، لأن موته في الدفاع عن مصر كان كفيلاً بأن تظل شعلة الجهاد متقدة مهما حاول الإنجليز إطفاءها .

لكننا لا ننسى أنه ترك ميدان الجهاد للدفاع عن القاهرة ، فلعل هذا الأمل هو الذي حملته على ألا يقدم نفسه طعمة للهوت مع البطل محمد عبيد .
(٥) وقد ظل عرابي في محاكمته وفي منفاه وطنياً عالى الوطنية

فقد كتب إلى جريدة التيمس وهو يتأهب للسفر إلى المنفى يقول إنه يغادر مصر مستريح الضمير ، مؤملاً في المستقبل ، لأنه يعتقد أن إنجلترا لن تستطيع تعويق الإصلاح الذي حارب في سبيله ، ويؤمل أن يكون للأمة مجلس نواب ذو رأى مسموع ، وأن الرقابة الإنجليزية الفرنسية ستلغى ، وأن مصر ستخلص من قبضة الأجانب الذين يحتكرون المناصب الكبار ^(١) .

وكتب بمثل هذا لصحيفة الحق (Truth) فتمنى لمصر التقدم والرخاء والسعادة ، وذكر وسائل الإصلاح التي يراها ، وهي أن يكون للشعب مجلس نواب ينتخب انتخاباً حراً ، وأن يتمتع المصريون بالمساواة في المعاملة وفي الضرائب ، وأن تلغى السخرة والربا وختم كتابه بقوله إنه لا يبالى بالنفى أو ما يخبئه له القدر إذا حققت إنجلترا للشعب هذا الإصلاح ^(٢) .

(٦) لكن عرابي له أنصار وله خصوم .

١ — فقد كتب عنه وأنصفه كثير من الكتاب والمؤرخين . منهم في مصر الأستاذ محمود الخفيف ^(٣) والأستاذ عبد الرحمن الرافعى ^(٤) . ومنهم في غير مصر السير ما كنزى ولاس الذي كان يرافق لورد دوثرين في مصر أيام الثورة العرابية . ولورد شارلز برسفورد الذي اشترك في ضرب الإسكندرية . ومنهم برودلى ، وبلنت

(١) أحمد عرابي ٥٢٠ الخفيف

(٢) أحمد عرابي ٥٢٣ الخفيف

(٣) أحمد عرابي . الزعيم المفترى عليه سنة ١٩٤٧ (٤) الثورة العرابية

وروثستين . وقد أسلفت طرفاً من آرائهم في عرابي ، وكان يحبه ويعضده بعض الأمراء والأميرات من أسرة الخديو توفيق ، ويرون فيه منقذ مصر وحاميها^(١) .

ب — أما خصومه من إنجليز ومصريين فيدعون أن الثورة كانت نزوة لامبربر لها ، ويزعمون أن عرابي كان أخرق أحمق جاهلاً مغروراً ، ويتغالون في ظلمهم للرجل فينسبون إلى ثورته أنها هي التي جرت على مصر نكبة الاحتلال .

واعتقد أن في الفقرة السابقة ما يغني عن تكرار الرد على هؤلاء .

ح — ويتوسط بعض المنصفين ، فيذكرون للرجل ماله وما عليه .

فمن رأى الأستاذ عبد الرحمن الرافعي أن الشوار اصطدموا بالخديو توفيق ، فانقلب عليهم ، وانحاز إلى خصوم الوطن . « وكانت الحكمة تقتضي بعد إجابة مطالبهم في لقاء عابدين ونزول الخديو عن إرادتهم أن يعالجوا الشؤون العامة بالأناة والتريث ، ويعملوا على رأب الصدع وتوحيد الكلمة وإزالة أسباب الفرقة والخلاف بينهم وبين الخديو ، ولكنهم لم يأبهوا ، وداخلهم الشيء الكثير من الغرور ، وعدم النظر في العواقب ، فأخذ الخلاف يتسع ويتفاقم ... إذ أن الإنجليز تذرعوا إلى الاحتلال بدعوى تأييد سلطة الخديو وحماية العرش ... وكانت حوادث العصر تكشف عن نيات إنجلترا في تطلعها إلى احتلال وادي النيل ... لكنهم لم يتبصروا في العواقب ، فهدوا بقصر نظرهم السبيل إلى إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال ... وقد حرمت الثورة الكفاءة الحربية ... وتبلى عدم الكفاءة الحربية في إحجام عرابي وصحبه عن سد قناة السويس ... وعرابي ذاته لم يشترك في واقعة واحدة من وقائع الحرب ، وقد لاذ بالفرار في موقعة التل الكبير دون جهاد أو نضال ، ثم سلم نفسه للإنجليز بالقاهرة .

وموقف الخديو المعيب ، وضعفه وتردده ، وانحيازه إلى التدخل الإنجليزي الفرنسي كان من العوامل في إخفاق الثورة . ثم إن بعض الضباط تزعزعت ميولهم نحو الثورة ، وجاءت على إثر ذلك خيانة طائفة منهم ، وطائفة أخرى من الأعيان

والبدو، مما هيأ للإنجليز التغلب على الجيش المصري في معركة القصاصين وموقعة التل الكبير .

أضف إلى ذلك جهود أوروبا حيال الاعتداء البريطاني ، وسوء نية تركيا نحو مصر منذ قيام الثورة ، ومعها الأخرق في استرداد الاستقلال الذي نالته مصر^(١)

الجو الذي هجأ فيه شوقي عرابي

عاد عرابي من منفاه إلى مصر سنة ١٩٠١ م ، فكثرت القول فيه وفي ثورته من راضين وساخطين ، ومادحين وقادحين .

(١) ولقد كان أشد الناس قدحاً له مصطفى كامل والحزب الوطني وجريدة اللواء . فقد كتب مصطفى كامل مقالة بتوقيعه^(٢) ، عنوانه (عرابي) جاء فيه : « إذا كانت الأمم تفتخر برجل ، وتعتبر برجل ، فلا عجب إذا كان التاريخ يعير الأمة المصرية بهذا القادم المشؤم الذي جر على وطنه وبلاد المصائب الجسام ، وباع استقلالها بجهله وجبنه وغباوته ، وقضى عليها أن تعيش ذليلة حقيرة ، وأن تسير إلى الوراء في وقت تخطو فيه الأمم والدول خطوات التقدم والحياة إلى الأمام .

ولا غرابة إذا كان الناس أجمعون ينظرون إلينا الآن نظرة الساخرين ، ويحكمون على أخلاقنا وأمالياتنا بأخلاق ذلك الذي لا يستحي من أن يلقب نفسه بخادم الوطن الأمين ، وهو علة مصائبه ، ومصدر نوائبه ، وسبب بلائه ، وأصل شقائه .

ما عار الاحتلال ، وعار الجهالة والتأخر ، وعار الفقر ، بشيء يذكر إذا قورن بالعار الذي يحمله عرابي ، ويقرؤه على وجهه أينما سار وحيثما حل .

وأى عار أكبر وأشهر من عار رجل تهور جباناً ، واندفع جاهلاً ، وساق أمته إلى مهواة الموت الأدبي ، والاستعباد الثقيل ، ثم فر هارباً من يادين القتال ، وتوسل إلى عدوه المحارب أن يعفو عنه ، وينعم ، وأبت عليه نفسه التي لا أكيف شعورها أن يموت في منفاه ، وإلا أن يرجع إلى وطن هو مرجع شقائه .

ماذا يكتب التاريخ ، وماذا يقول الشاعر أمام عودة عرابي ؟

(١) الثورة العربية ٥٥١ - ٥٦٠ الرافعي ومذكراتي في نصف قرن ٢٢٢/٣ أحمد شفيق .

(٢) اللواء العدد ٥٩٩ (٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠١)

بل أى مثل فى التاريخ يحاكى هذا المثل ؟

يقتل القاتل فيوارى وجهه خجلاً ، ويعلم عرابى الألوف من النفوس الغالية ،
ويبيع استقلال وطن عزيز شريف ، ويدخل الإنجليز مصر ، ولا يخجل من العودة
إلى هذه البلاد ، ولا يرى من الدناءة والوقاحة أن يقابل المصريين ؟

لم يكفه ما جناه على وطنه حتى سمعناه يفتخر بالاحتلال وآثاره ، ويراه النعمة
الكبرى على هذه الديار الأسيفة ، ويفخر قومه بنتيجة ثورته ، وثمرة حركته . فهل
روى التاريخ من قبل أن رجلاً هدم أركان استقلال أمته جهلاً منه ، أو خيانة ،
ثم فاخرها بالاستعباد والهوان وضياع السلطة والحقوق ؟

ماذا يكون جوابك أيها القادم إذا سألتك أرض مصر : بأى حق تطؤنى وأنت
الذى جعلتنى للإنكليز متاعاً به يلعبون ويشجرون ، وعليه يحكمون ويسيطرون ؟
ماذا تجيب النيل إذا سألك : كيف تشرب مائى ، وتتمتع بنعمى وخيراتى ، وقد كنت
حرّاً مستقلاً سعيداً آمناً فأبيت إلا أن أكون مبدناً للسفن الإنكليزية والجنود
البريطانية وأن يفترسنى كل مفترس ، ويطمع فى كل طامع ؟

ماذا تقول لهذه الأمة إذا سألك صغارها قبل كبارها ، بأى وجه تلاقينا وأنت
الذى قضيت علينا ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا أن نشقى ونستعبد ؟ ألا يضطرب
قلبك ، ويدمى فؤادك إذا ناجتلك تلك العظام البالية : عظام من ذهبوا ضحية وطنيتك
السكاذبة وشهامتك الباطلة ، وقالت : أهكذا حميتك وهمتلك ، تعيش منعماً ، وتعود
إلى الوطن مكرماً ، وترضى بالحياة وطيبها بعد أن متنا تصديقاً لدعوتك ، واعتقاداً
بصدق نهضتك ؟

لا إخال عرابى إلا شقياً حزيناً إذا سمع هذه الأصوات ، وكان إنساناً يحس
ويشعر ، ولكن أنى له بشعور الإنسان وهو الذى رأى أن المصريين لم يؤدوا واجب
العبودية للملك إنكلترا فوعده بزيارته ليشكره على نعمته ، ويترجم له عن صادق
ولائه ، ومزية تعلقه بسدته .

فتباً لوطنية هذا حاملها ، وتباً لنهضة هذا زعيمها ، بل يا شقاء أمة هذا فرد
من أفرادها !

جبل عرابي أو تجاهل أن الإنكليز يحتقرون الخائنين وإن استعخدموهم ، ويزدرون الجبناء وإن انتفعوا بجنسهم ، فإذا يؤمل منهم وما عساه يقول لهم ؟
أقول : هذه بلادى جعلتكم أسيادها ، وجنت قومي العبيد ؟ وهذا وطنى صار رقاً لكم بفضل ما بذلت من غشم وجهالة وجبن وموت شعور ؟

نسى عرابي أو تناسى أن الإنكليز أبوا أن يتسلم سيفه قائدهم أرضابط صغير ، إظهاراً لاستقارهم لزعيم حركة لم يفق جيشه وجنوده إلا بالجن الفاضح والهروب السريع .

فاحمل عارك أيها القدام المششوم فهو نيشانك ، وسربه فى شوارع المدائن ، وممالك القرى ، ليقرأ فيه الناشئون عبرة العبر ، ويروا مثال الجهالة والغباوة والخيانة ، لعل عراطفهم تثور فيندفعوا فى طريق الجدد والعمل ، ويقيموا بنيانا دمرته ييدك ، ويصلحوا ما أفسدته وأفسدته الأيام .

ثم كتب فى اللواء مقالا آخر ^(١) لا يقل قسوة وإقداعا عن سابقه . ونشرت جريدة اللواء ^(٢) مقالا لمراسلها بالسويس محشوا بالسخرية من عرابي والتهجم عليه ، ومنتخبا بكلمات السب .

وفى اليوم التالى نشرت مقالا آخر ^(٣) كسابقه فى الإسفاف والتجريح المقذع . وبعد يوم واحد نشرت مقالا آخر ^(٤) . وبعد يومين اثنين نشرت كلمة اتهمت فيها عرابي بالجنون وفقد الرشيد ، وبالخيانة المتعمدة ^(٥) .

(٢) ومن عجب أن ينسى الناس هذا كله ، ولكنهم لا ينسون أن شوقي هاجم عرابي .

كأنما الناس غير موكلين بالساسة وتتبع هفواتهم أو زلاتهم ، على حين هم موكلون بالشعراء وإحصاء زلاتهم . وليس من شك فى أن مصطفى كامل قد تجنى على عرابي ،

(١) العدد ٦٠٤ بتاريخ ٣ أكتوبر سنة ١٩٠١

(٢) العدد ٦٠١ بتاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠١ (٣) العدد ٦٠٢ بتاريخ أول أكتوبر

سنة ١٩٠١ (٤) العدد ٦٠٤ بتاريخ ٣ أكتوبر سنة ١٩٠١

(٥) العدد ٦٠٦ بتاريخ ٦ أكتوبر سنة ١٩٠١

بل إنه ظلمه ظلماً صريحاً قبيحاً ، فإن الرجل لم يكن غائماً ولا شبه غائماً ، ولم يكن هو السبب في دخول الإنجليز مصر واحتلالهم لها .

وقد أوضحت أن الإنجليز كانوا يعدون العدة لاحتلال مصر قبيل الثورة العراقية ، وبينت أن الثورة نشبت لتحقيق الإصلاح الداخلي ، ولتصد الهجوم الإنجليز على مصر . ولو أن عرابي لم يهب هو وأعوانه للفتنة لحقت عليهم لعنة الوطن ، ولا مستحقوا اسمه القالة من الأجيال المتعاقبة .

(٣) لكن الذي أراه أن الحزب الوطني كان منحازاً في ذلك الوقت إلى الخديو عباس ، فهو يحمل على عرابي ، لأنه أول تائر على البيت العلوي ، ولم ننس بعد أن عرابي كان يفسكر في خلع الخديو توفيق ، وأن المؤتمر الوطني أبطل العمل بأي قرار يصدر عن الخديو ، وأنه قد قرر أنه خارج على وطنه وعلى دينه .

وإذا فمن الطبيعي أن يبغض الخديو عباس بن توفيق عرابي والعراقيين ، ومن الطبيعي أن يجاريه في بغضه لهم الحزب الوطني ، لأنه كان في ذلك الحين موالياً للخديو كل الموالاة .

قصائد شوقي في عرابي

أما شوقي فقد جرى في المضمار نفسه ، فحمل على عرابي حملات قاسية . وليس في هذا كبير عجب ، لأن شوقي ربيب نعمة القصر ، وقد كانت الثورة العراقية خروجاً على سلطان القصر ، وشوقي شاعر الخديو وصفيته ، وقد كان عرابي يريد أن يخلع الخديو السابق ، وينحى الأسرة العلوية عن العرش . ثم إن شوقي كان وثيق الصلة بصطفي كامل كما عرفنا ، فهو يدين بما يدين به صديقه ، وبما يدين به الحزب الموالي للخديو عباس .

لكن هذا كله لا يعفيه من اللوم ، ولا يبيح له موقفه المعيب من عرابي ، فقد كان يستطيع أن يلوذ بالصمت كما لاذ صبري وحافظ ، فإذا ما استبدت به شهوة القول عليه أن يمجّد عرابي في مناح من حياته تستحق التمجيد ، وكان يستطيع أن يتلصص له العذر فيما أخطأ فيه ، وأن ينحى باللام على الخونة من مساعديه .

والحق إن الذين حملوا على عرابي ، وفي مقدمتهم مصطفى كامل وشوقي لم يكونوا موفقين في حملاتهم الظالمة ، لأنها كانت عراكاً في غير معترك ، وأم تسكن ذات «موسم» ، فقد مضت الثورة منذ ربع قرن . واستتب الحكم في البيت العاوي ، فلا حاجة إذاً إلى إرضاء الخديو والبيت العاوي بجمالات على ثورة فات عهدهما ، وانكسر زعمائهما ، وعاد قائدهما من منفاه سيفاً مفلولاً لا قوة فيه .

قال شوقي في عرابي ثلاث قصائد :

(١) القصيدة الأولى نشرها (بالمجلة المصرية) لصاحبها ومنشئها خليل مطران ^(١) . بعنوان (عاد لها عرابي) ، لكنه وقعها بامضاء (نديم) . وتبينت أنها لشوقي ، إذ وجدت بحريدة اللواء ^(٢) تحت عنوان (عاد لها عرابي) : « نشرت المجلة المصرية تحت هذا العنوان قصيدة غراء لشاعر من أكبر الشعراء ، بل أكبرهم بلا نزاع . فأحببنا نقلها ، إظهاراً لشعور أمير القريضة والبيان في عودة عرابي إلى مصر » . وفي هذه المقدمة ما يقطع بأن القصيدة لشوقي . في هذه القصيدة تشهير بعرابي ، واستهزاء بطموحه إلى المعالي ، وحنق على تطلعه إلى ملك مصر .

قال شوقي :

أهـذا كل شأنك يا عرابي ؟	صغارٌ في الذهاب وفي الإياب
فمن يعفو عن الوطن المصاب ؟	عفا عنك الأباعد والأداني
ولا التفتوا إلى القوم الغضاب	وما سألوا بنيك ولا بنيها
رفيع الذكر مقبيل الشباب	فعش في مصرٍ موفور المعالي
وفي كلتيهما حمر الشياب ؟	أفرق بين سيلان ومصر
أناس منك أولى بالمتساب	يتوب عليك من منفاك فيها
ولا ملوكوا القويم من العقاب	ولا والله ماملوكوا عتاباً
وإن ساووك في الشمم الكذاب	ولا ساووك في صدق الطوايا
كعهدك إذ تحييك الطواي	حكومة ذلة وسراة جهل

(١) العدد الثامن من السنة الثانية ١٥ بويه سنة ١٩٠١

(٢) اللواء العدد ٥٣٢ بتاريخ ١١ يولية سنة ١٩٠١

وإذ ضربوا وسيفك لم يجرّد
وإذ ملئت لك الدنيا نفاقاً
وإذ تقى المعالي بالتمنى
وإذ تعطى الأريكة في النوادي
وإذ دخلوا ونعلك في الركاب
وضاقت بالغبوة والتغاي
وإذ يغزى الأعادي بالسباب
وتعطى الناج في هزل الخطاب
رجال الوقت من تلك الصحاب
وقد لاذوا إلى أقوى جناب
وبالإنجيل قد حلفوا لقوم
يريدون النساء بلا حجاب
فماذا يعلم الأحياء عنا
إذا ما قيل عاد لها عرابي ؟

(٢) القصيدة الثانية عنوانها (عرابي وما جنى) نشرها باللواء^(١) بدون توقيع ، لكنني عرفت من العدد نفسه أنها لشوقي ، لأن اللواء نشرت كلمة من أحد مراسليها بالسويس يصنف وصول عرابي ، واستهانة الناس به ، وعلقت اللواء على المقال بقولها : « هذا ما كتب به إلينا ذلك الكاتب النائر ... ولئن أثارت عودة عرابي خواطر الكتاب لقد أثارت عواطف الشعراء ... ومن ذلك قصيدة فريدة في بابها جادت بها قريحة أبلغ الشعراء ، وأشدّهم إصابة للقاتل بسن يراعه ، رمى بها اليوم عن قوس (اللواء) في ذلك السكبد الغليظ . وما من كلمة فيها إلا وهي سهم مسموم ، لو أصاب حجراً صلباً لصدّعه . وفيها من جدّ القول ، وهزل المقول فيه ، ما كشف الحجاب عن سخافة هذا ، وفساد أهواءه وترهاته وجهله وجبنه ، وما فيه من خلال أخرجته عن طور الرجال ، وجعلته أضحوكة الأطفال . »

والقصيدة هجاء لعرابي ، وتهكم به ، واستهزاء بمن تابعوه ، وسخرية من نسبه إلى الحسين بن علي ، ولوم له على أنه لم يمت في ميدان القتال ، ورضي بأن يحاكم ، وقبل تخفيف الحكم عليه من الإعدام إلى النفي .
وفيها حملة عليه ، لأنه ود أن يقابل ملك الإنجليز .

أهلاً وسهلاً بحاميها وفاديها
وبالكرامة يا من راح يفضحها
وعُدّها حين لا تُغني مدافعها
وارجع إليها فيسأل الله فاتجها
وانزل على الطائر الميمون ساحتها
ويضّ لها بيضه للنصر كافلة
واظلم صحیح البخارى كل آونة
وأخرج القوم من مصر بخارفة
من العجائب صاروا من أحبها
كأن ما كان من حرب ومن حرب
وضّع عمامتك الخضراء من شرف
وقصر رؤياك مكذوباً بمضحكها
فلمستَ تعدم غمياً من أكبرها
ولستَ تعدم وغداً من أسافلها
واستَ تعدم في الأجواء ذاسفها
قل للملك إدورده أصبت غنى
هذا عرابي تمنى أن تقابله

ومرحباً وسلاماً يا عرابيها
ومقدّم الخير يا من جاء بخزيها
عن الزعيم ولا تُجدي طوابيها
يوم الإياب ويا الله غازيها
واسجل على تلها وانق بواديها
إن الدجاج عقيم في نواحيها
ونم عن الحرب واقرا في لياليها
تفوق « فاشودة » فيها وتنسيها
فيما زعمت وصاروا من أعاديها
عتب المودة لا يودي بصافيتها
يعرفك كل جهول من أهاليها
على البنين ومكذوباً بمبكيها
ولستَ تعدم بكماً من أعاليها
يزف للأمة البشرى ويهديها
يخصي الديون التي تشكو ويقضيها
عن الهنود وإرلندا وما فيها
وأن ينال يداً جلت أياديها^(١)

(١) إشارة إلى ما ذكره مراسل اللواء بالسويس في العدد ٦٠١ أن عرابي حدثه بأن ولي عهد
انكلترا كتب له من كندا كتاباً يطلب فيه ألا يبرح سيلان حتى يقابله . فأجابه عرابي بأنه لا يقدر
أن يقابل أهل الشرف بغير شرف

فهر بانسكترا تر جى دىالته
ومر بلندرة تبدو بزيفته
فأين « روبرس » منه إذ ييممها
هذا الذى يعرف الإفرنج صولته
وسله بالله إن صاغت راحته
وأين أيمانه اللاتى أشاد بها
وأن يموت عزيزاً دون أربعها
وقل له بلسان النيل توجعه
تلك العظام بلا قبر ولا كفن
فاقر السلام عليها حين تندبها
وناجها مرة فى العمر واحدة
أوردتها الموت لم تبلغ به شرفاً
وما رأت لك سيفاً تستضىء به
باتت يرى الموت فيها كيف يدركها
فأصبحت غنماً مر الذئاب بها
يابن الحسين حسين مات من ظمأ
تلك الأبوة ما هذى شمائلها
وأنت أصغر أن تعطى مفارخها
لم ينصر الله بالأحلام صاحبها
وبالمواقف يغشاها مؤلّبة
أبوة المصطفى ما زال يلبسها

وبالأساطيل تسرى فى موافقها
وتعجلى للبرايا فى مجالها
وأين « سيمور » منه إذ يوالفها
والبر يعلمها والبحر يديرها
ما نفسه ؟ ما منها ؟ ما ساعفها ؟
ألا يمحسكم فيها غير أهلها ؟
ولا يعيش ذليلاً فى مناسفها
والنفس إن صغرت لاشيء يؤذيها
لولاك لم يبل فى العشرين بالها
وأمل العفو منها حين تبكيها
لو كان سهلاً عليها أن تناجها
ولا توخيت بالأوطان تنويها
يوم القتال ولا وجهاً يحجبها
وبت تنظر مصرأ كيف يأنيها
ونام عنها غداة الرّوع راعيها
وأنت محتفل بالنفس ترويه
للعارفين ولا هذى معانيها
وأنت أسمع أن تكسى معاليها
لكن بكل عوان كان يذكيها
والخوض يمنعها والخيل يحميها
حر قشيب ثياب الفخر ضافها

حتى تنار عها في مصر صبيحتها
وأصبحت لجان القوم منقبة
هلا سبقت غداة التل ناعيتها
هلا تكفنت في الميعا برايتها
ما زال جمعهم في الحرب ينشرها
هلا أيت على العافين عفومهم
زعمت أنك أول من أعزتها
وكنت تطرب إذ تتلى مدائحها
دعوى وحتى تردتها غوانها
وزينة لجهول القوم يديها
إلى المنية مسروراً تلاقها
مثل الدراويش خانتها عوالها
حتى أتاها فناء الجمع يطويها
لكي يقال أبا النفس عاليها
بها ، وأحنى عليها من مواليها
فأين دمك إذ تتلى مرأيتها ؟

(٣) أما القصيدة الثالثة فقد نشرتها اللواء^(١) يغير توقيع أيضاً ، بعنوان (صوت العظام أو عرابي أمام قتلى التل الكبير)

لكن في التقديم للقصيدة ما يدل على أن شوقي قائلها . فقد ذكرت اللواء في تقديمها للقصيدة : « ... فإن خير ما سجدت به قرائح شعراء مصر والعرب والإسلام ، قصيدة أنشأها أبلغ البلغاء ، نشرها اليوم عبدة للمعتبرين وغير المعتبرين ، وعظمة عالية الوطنيين والمارقين . وبها نكتفي عن نشر ما كتبه إلينا صفوة أبناء القطر عن مسعى الذين يريدون رد رتب عرابي وفياتينه إليه ، ويحكمون الأمة عارا فوق عارها ، وبلية فوق بلاياها الكبار . »

وقد كرر شوقي في هذه القصيدة ما قاله في قصيدتيه السابقتين ، وزاد .

ودافع عن البيت العلوي ، وعن سياسة الخديو توفيق .

عراي كيف أوفيك الملاما جمعت على سلامتك الأناما
فقف بالتل واستمع العظاما فإن لها كما لهمو كلاما
سمعت من الورى جداً وهزلا فأصبت إذ تقول القول فصلا

كأنك قاتلٌ والحكم يُسلى
 ولا تأملُ من الأموات عفواً
 أرقتَ دماءهم لعباً ولطوا
 دماءُ قدِّ فدتك ولم تُصنِّها
 فكيف تنام عين الله عنها
 لقد سفكتَ بجهلك شرَّ سفكٍ
 وأنت على قديم العز تبكى
 تقول لك العظام مقال صدق
 قتلتَ المسلمين بغير حق
 تقول : لقد بقيتَ وما بقينا
 فما حكم الليالي في بنينا ؟
 تقول وصوتها رعدٌ قوى
 لقد مات الكرام وأنت حى
 تقول وصوتها ملاً الدورا
 عرابى - هل تركت لنا قبورا
 تقول وصوتها بلغ السماء
 إله العالمين أجب دماء
 تقول : جئنت حين الظلم ينمو
 وغرك من أبى العباس حلم
 وقفتَ له وما ظلم الأميرُ
 فجُل الخطب واضطربت أمورُ
 تقول مقالة فيها اعتبارُ
 عليك وأنت تنتظر الحماما
 وإن كان الحسين أباك دَعوى
 ولم تعرف لغاليلها مقاماً
 نفضتَ يدك يوم « التل » منها
 إذا غفل الملائعها وناما ؟
 لغير شهادة أو رفع ملك
 وتندب رتبة لك أو وساما
 ورب مقالة من غير نطق :
 وضيعت الأمانة والذماما
 ثبنتنا للعدى حتى فنيننا
 وما صنع الأرامل واليتامى ؟
 وتحل في الضمير لها دوى :
 حياة تنقضى عاراً وذاما
 وأنت أصم من حجر شعورا :
 يقول الطائفون بها سلاما ؟
 وأسمع خير من سمع النداء :
 تصيح الانتقام الانتقاما
 وثرت ولم يكن في مصر ظلم
 ولما يكتمل فى الحكم عاما
 ولم يكن اطمأن به السرير
 عيسيت بأن تكون لها نظاما
 عشيّة حال بينكما الفرار :

أموت يا عرابي ثم عار
 رمانا بالجبانة كل شعب
 لأجلك حين لم تخرج للحرب
 وقيل : زعيمهم ولي الفيرارا
 وخلف جيشه فوضى حيارى
 نسائل عن عرابي لا نراه !
 ركبنا الموت لم نركب سواه
 رؤيداً يا شعوب الأرض مهلاً
 أراكم واحداً جنباً وجهلاً
 سلوا تاريخنا وسلوا « عليا »
 لقد عاش الأمير بنا قويا
 يعز بنا ويظهر من يشاء
 لنا في ظلمها وله عـلاء
 ألم نكف الحجاز عوان حرب
 فكنا للمهمين خير حزب
 سلوه وأهله أيام ثاروا
 وكان الدين ليس له قرار
 ألم نك خلعت « إبراهيم » لما
 وكبر يوم « مورة » ثم سمي
 ترانا في مواقفه نليه . .
 وليس الجيش إلا قائديه

يلازمنا بقائدنا لزاما ١٤
 وسببنا الخلاق أى سب
 ولا جردت في الهيبة حساما ١٥
 وفي « بلبس » قد ساق القطارا
 وقد بلغ العبدى فيهم مراما
 ونشيد حامياً خلج حماه
 وأنت ركبت للعار الظلاما
 فما كنا لهذا اللوم أهلا
 فأنساكم مواقفنا العظاما
 ألم يملأ بنا الدنيا دويا
 وعشنا تحت رايته كراما
 كأننا تحت رايته القضاة
 ومجد يملأ الدنيا ابتساما
 وأنقذناه من حرب وكرب
 أجرنا الدين والبيت الحراما
 ألم نقبض عليه وهو نار ؟
 فثبتناه يومئذ دعاما
 رمى بجواده الأبراج شماً ؟
 فكنا الصف إذ كان الإماما
 كما جمع الأب الوافي بنيه
 إذا ما قوموا الجيش استقاما

نلبي إن أشار براحتيه
 كأن سميه في بردته
 وفي « اليونان » أحسن البلاء
 وقدمننا بوارجنا فداء
 وفي « البلغار » صلنا ثم صلنا
 وأنزلنا العدو وما نزلنا
 وعل عن بأسنا سودان مصرنا
 بأننا الأسد إقداماً وأجراً
 وفي المسكوف شدنا ذكراً مصرنا
 بلغنا نحن والأتراك عذراً
 وكان لنا بلاء في « كريد »
 أذناها وكانت من حديد
 رفعنا الملك بالمهج الغوالي
 وبالأذكار لم نحى الليالى
 تقول لك العظام : دع الأمانى
 وليس بنى الفقار ولا اليمانى
 أراح الله منك حديدته
 وأنت تنبه الدنيا إليه
 تحن له كأنك لم تضعه
 ودعه في ظلام الغمد دعه
 أما والله ما لعب الصغار
 ولا الأوتار في أيدي الجوارى

إلى حصن فيسبقتنا إليه
 يخوض النار في الهيجا سلاما
 وهز المسلمون بسا اللواء
 على الأمواج تضطرم اضطراما
 وطاولنا الجبال بها فطلنا
 وكنا للرواسى الشم هاما
 فعبد الله والمهدى أدرى ..
 إذا اصطدم الفريقان اصطداما
 على قتلى بها منا وأسرى
 وأرضينا المهيمن « والإماما »
 بيوم ثائر الهيجا شديد
 وأطفأنا لثورتها ضراما
 تسيل على القواضب والعوالى
 ولا بتنا على ضم نياما
 ولا تحفل بسيف غير قان
 ولا المقهور دفعا واستلاما
 وأنسى الناس ما عملوا عليه
 وتفتأ تذكر العار الجساما
 فسعه بجنبك المأثور سعه
 لعل مع الظلام له احتراما
 ولا خشب يقلد في « الحوارى »
 بأحسن منه في الهيجا قياما

وهذا الصدر أضيق أن يحل
فلم يك للقنا يوماً محلاً
لقد ضاع الفخار على الخفير
أمن تحت السلاح إلى وزير
عمى في الشرق كان ولا يزال
ويبلغ شأوها الأقصى رجال
نخذ رتب المعالي أو فدعها
فإنك إن تنلها لا تضعها
تقول لك العظام وأنت لاه
وتكذب بالصلاة على إله
سنأخذ منك يوماً بالخنساق
تلاقى يوم ذلك ما تلاقى
نجيئك يوم يحضرك الحمام
وتسبق سهمه منا سهام
نجيئك يوم تحضرك المنون
نقول : لنا على الجاني ديون
ونسأل : ما جنى ماذا أساء ؟
فرفعهم — إلى البارى دماء
نقول : جنى ومن بما جناه
وضيع أنفساً ذهبت فداه
هناك ترى جهنم وهى تحمى ..
فتشرق بالدم المسفوك ظلماً

وأن يسترجع الشأن الأجل
ولا اتى الرصاص ولا السهام
وضاعت عنده نعم الأمير
يسمى السيد البطل الهام ١٩
فما برحت معاليه تُنال
لهم في الجهل قدر لا يسامى
وإن شئت أشربها أو شئت بعها
وحاشا ترفع الرتب الطغاما
تمنى النفس من مال وجاه
يراك أضل من صلى وصاما
ولما تبلغ الروح التراقى
دماء الخلق والموت الزواما
يسل حسامه ولنا حسام
له — بالحق رام لا يرامى
ويأتى العقل إذ يمضى الجنون
فيا رب الدم احتكم احتكاما
ليلقى عن جنايته الجزاء
ونعرضها له جيشاً وهاماً
وحاول أن ترد له علاه
وأنت الله فانتقم انتقاما
وتذكر ما مضى جرماً فجرماً
وبالوطن العثور ولا قياما

(٤) ولم يتنعم شوقي بهذه القصائد الثلاث ، بل أبي إلا أن يتهجم على عرابي في شأيا
بعض قصائده .

ففي سنة ١٩٠٤ حمل على رياض باشا ؛ لأنه أطرى الاحتلال الإنجليزى . وهذا
موقف حميد لشوقي ، لكنه عرض بعرابي في قوله :

أفى السبعين والدنيا تولت ولا يرجى سوى حسن الختام
تكون وأنت أنت رياض مصر عرابي اليوم في نظر الأنام^(١)
وقال في رثائه إنه كان يصون الأمن في مصر حينما ثار العصاة ، وهو يقصد بهم
العرايين :

قضيت لها الحقوق فتي وكهلا ويوم كبرت وانحنت القناسة
ويوم النهى للأمراء فيها ويوم الآمرون هم العصاة^(٢)
ولم يرث أحدا من زعماء الثورة العرابية ، ولم يستثن منهم البارودي أستاذه ورائده ،
ولا الشيخ محمد عبده مع تخافيه عن الثورة أول الأمر ، وإن كان قد قال فيه ثلاثة أبيات^(٣) ،
ثم عاد في سنة ١٩٢٤ فلام عرابي في مجال تنديده بالجهلة في مصر ، وأنهم لا يميزون
الحبيث من الطيب ، حتى لقد توهموا أن عرابي قيصر من القياصرة ، فهو يخاطب
المعلمين والمثقفين بقوله :

الغافل الأمي ينطق بنفسكم كالبيضاء مرددا ومكررا
.....
آباؤكم قرءوا عليه ورتلوا بالأمس تاريخ الرجال مزورا
حتى تلفت عن محاجر رومة فرأى عرابي في المواقب قيصرا^(٤)
ولو أن شوقي شجع كما شجع في مستهل حياته لجاهر مرات بلوم الخديو توفيق ،

(٢) الشوقيات ٤٨/٣

(١) الشوقيات ٢٦٢/١

(٣) الشوقيات ٤٥/٣

(٤) الشوقيات ١٧٨/١

لأنه شريك في إخفاق الثورة ، وفي دخول الإنجليز مصر ، فقد أشار في سنة ١٨٩٤
إشارة غامضة إلى مشاركة توفيق في نسكة الاحتلال ، وقفي إشارته بالتنويه بنصره
على الثوار :

إن أتاها فليس فيها ببادٍ أو جناها فذا الوري شركاه
أخطأ الأقربون موقعها الداء في وفازت بنيله البعدهاء
ضلة زانها الشقاء لمصر ومن الذنب ما يجيء الشقاء
ثم جبن فعقب على الأبيات بقوله :
وقضى الله للعزیز بنصره فأتي نصره وكان القضاء^(١)

(٥) ويظهر أنه غير رأييه فيما بعد ، أو أراد أن يسترضى الشعور العام ، فنوه بالثورة
العراية ، وقرنها بثورة ١٩١٩ في مجال الإشادة بالدستور والبرلمان ، إذ جعل الدستور
صرحاً ببناء الآباء الذين ثاروا في الثورة العراية ، والابناء الذين هبوا في ثورة ١٩١٩ ،
فجدرانه مسموكة بضحايا التل الكبير ، وضحايا المشانق والسجون في ثورة ١٩ :

بنيان آباء مشوا بسلاحهم وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التل المدرج حائط ومن المشانق والسجون جدار^(٢)

(٦) وليس يخفف من لوم شوقي أن البارودي — أحد زعماء الثورة وقادتها —
حاول أن يتصل منها فيما بعد ، في قوله :

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى عمدتم لتصديقي وقد قضى الأمر
فلم يبق في أيديكم غير حسرة ولم يبق مني غير ما عافه الصدر
نجاء الذين كنتم تخافون شره وزال الذي لم يبق من بعده شعر^(٣)
وفي قوله يحمل على بعض رجالها :
دعوني إلى الجلى فقامت مبادراً وإلى إلى أمثال تلك لسابق

فلما استمر الجُدُّ ساقواُ حوْلهم إلى حيث لم يبلغه حادٍ وسائق

.....

على أنى حذرْتهم غِبَّ أمرهم وأنذرتهم لو كان يفقه مائق^(١)
وقلت لهم: كفوا عن الشرِّ تغنموا فللشرِّ يوماً لا محالة ما حق
فظنوا بقولى غير ما فى حقيقةى على أنى فى كل ما قلت صادق
فيا ليتنى راجعت حلمى ولم أكن زعيماً وعاقبتى لذاك عوائق
ويا ليتنى أصبحت فى رأس شاهق ولم أر ما آلت إليه الوثائق^(٢)
وقد كرر اعتذاره فى قصيدة أخرى^(٣).

لا يخفف هذا من ملامة شوقى ، لأن البارودى لم يكن متشبعا بالثورة فى أول أمرها تشبع عرابى بها ، ولأنه أصيب بصدمة الهزيمة والنفى والتشكر ، فضعفت عزيمته . كذلك لا يشفع لشوقى أن ولى الدين يكن ندد بالثورة العراقية ، فلم يكن الباعث على تنديده تعلقه بالقصر ، وإنما كان الباعث تعلقه بالإنجليز ، فقد كان ضالعا مع الاحتلال يطريه ويدافع عنه ، بدليل قوله : « إن السياسة الإنجليزية كانت إلى عام ١٨٩٢ — أى حين تولى الخديو عباس — مياسة ود وصفاء . قام العراقيون على أمير البلاد عصيانا وطغيانا ، ووقفت الحكومة العثمانية وقفه الغريب ، لا تدرى أى طريق يجب عليها أن تسلكه » ثم يتهج بخيبة الثورة فيقول : « لما يئس الإنجليز من انتباه الحكومة العثمانية ، وارعوا المتمردين كلوا الشجر الإسكندرى بالسنة المدافع ، وهبطوا مصر إن شاء الله آمين » ثم يحذر الإنجليز من الخديو عباس بقوله : « فلما كانت الإمارة الجديدة التى ظهرت سنة ١٨٩٣ وسبق منها من التغير الدال على تغير القلوب وجب على الإنجليز الانتباه » .

فهو يستخط الثورة العراقية كما سخطها شوقى ، لكن الباعث مختلف .

(١) مائق أحق

(٢) ديوان البارودى ٣٣٤/٢ — ٣٤٠ الوثائق : اليهود

(٣) ديوان البارودى ٣٥٤/٢ — ٣٦٣

(٧) يتبين من هذه الدراسة المفصلة لما قال شوقي في عرابي أن شوقي كان ضالعا مع الخديو هو ومصطفى كامل ، وأن الذين تنقصوا من قدر عرابي كانوا ظالمين له . وقد رد عرابي وبعض أنصاره عليهم ، بالثر تارة وبالشعر تارة . حتى لقد جمع بعضهم طائفة من القصائد الذائدة عن عرابي ، وجعل عنوانها (عرابي والشعراء) . وهذا كله مفصل في كتاب (كشف الستار عن سر الأسرار ، في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية . بقلم أحمد عرابي)^(١) . وقد ذكر عرابي عدة قصائد في نقض قصائد شوقي ، ثم علق عليها بقوله : « هذا ما استقبلنا به صاحب جريدة اللواء ومن على شاكلته من أصحاب الجرائد المأجورين ، أو الشعراء المنافقين ، وهذا ما ردّ عليهم به بعض نبهاء المصريين وأشراف اليمنيين »^(٢) .

المجاهدون العرب

كان شوقي يشيد بالأبطال المجاهدين في سوريا وفي طرابلس ، ويتوق إلى أن يظفروا بحقوقهم المسلوبة .

(١) في قصيدته (نسكة دمشق)^(٣) . شجع السوريين على الجهاد ، ونصحهم بأن يأخذوا من سعد فرنسا حذرهم ، لأنها تحاول أن تصرفهم عن الاستقلال بأمانى خداعة ، فتهميهم بالدولة السورية ، ولبنان الكبير ، ودولة جبل الدروز ، وبحكومة العلويين ، وبألقاب توهم بالملك والسيادة ، لكنها في حقيقتها ذل واستعباد ، فهذه الإمارات التي تمنحهم بها فرنسا إمارات محتلة لا مستقلة ، الغرض منها تشتيت قواهم وتفريق جمعهم .

وذكرهم بأن جهادهم حق وطنهم عليهم ، وشجعهم بأن المنيا كأس دوار على الأبطال ، وأنهم بضحاياهم يننون ملكا مستقلا أيما ، وينالون حقهم الطبيعي في الحياة السكرينة ، وصور لهم الحرية التي لا تنال إلا بالدماء المراقبة في الجهاد حصناً أو قصراً مخلقاً احتله الأعداء ، فلا سبيل إلى فتح بابه إلا إذا قرعته أيدي المجاهدين المصبوغة بدم الجهاد :

(١) الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٤٢

(٢) كشف الستار ٦٩٥ (٣) الشوقيات ٨٨/٢

بنى سورِيَّةَ أطرحوا الأمانى
فمن خدع السياسة أن تغرَّوا
وألقوا عنكم الأرحام أنثوا
بألقاب الإمارة وهى رِقْ

.....

والأوطان فى دم كل حرٍّ
ومن يَسْقِي وَيَشْرَبُ بالمنيا
ولا يبنى الممالك كالضحايا
ففى القتلى لأجيالٍ حياةٌ
وللحرية الحمى — راء (٢) باب
بكل يدٍ مضرجة يدق
ولا يدنى الحقوق ولا يحق
وفى الأسرى قدى لهم وعق (١)

وكرر نصحه للسوريين فى قصيدة أخرى (٣) .

ومجد استقلالهم ، وذكر شهداءهم (٤) ، ونصحهم بالجهاد فى قصيدة ثالثة (٥) .

ورثى فوزى الغزى أحد زعماء الثورة العربية بقصيدة ملتهبة سنة ١٩٣٠ م ،
تفجع فيها لوفاة ، ونوه بجهاده (٦) .

(٢) وكذلك نبه الشعب الطرابلسى إلى أن يختار زعماءه ، ويعفى من أثقال
الحرب شيوخه ، ويكلها إلى شبابه (٧) :

يا أيها الشعب القريب : أسمع
ذهب الزعيم وأنت باقٍ خالد
فأصوغ فى عمر الشهيد رثاء ؟
فانقد رجالك واختر الزعماء
وأرح شيوخك من تكاليف الوغى
واحمل على فتيانك الأعباء

(١) عتق : حرية . مضرجة : مصبوغة بالدم

(٢) الحرية الجراء : الحرية التى لا تقال إلا بالدماء .

(٣) الشوقيات ١٢٥/٢ (٤) الشوقيات ٢٢٧/٢ (٥) الشوقيات ١٩٦/١

(٦) الشوقيات ١١٩/٣

(٧) الشوقيات ١٧/٣

الفصل الخامس

الاستقلال الثامن

والله ما دونه الجهد، ويومه
يوم قسمه الكائنات ههنا
شوق

أبغض شوقي الاحتلال، وشهر بمظالمه، وأشاد بالمجاهدين لطرد العدو الغاصب،
وأسمهم هو في هذا الجهاد بشعره .
وكان ذلك قبل أن ينفي وبعد أن نفى .
وكلف بالاستقلال التام قبل النفي وبعد النفي .

فقد ندد في قصيدة له قبل الحرب الكبرى بوعود الإنجليز المكررة بالجلاء
عن مصر، لسكرها وعود كواذب، كالسحاب الجسام لا مطر فيه ولا خير، حتى لقد
ملت مصر وعودهم، وصار بقاؤهم بها داء سئمته الجسوم والأرواح . ولا منجاة
من هذا الداء إلا بالاستقلال التام . وإن مصر لتأمل من تركيا أن تعاونها على نيل
استقلالها معاونة الند للند :

نستميح الإمام نصراً لمصر	مثلاً ينصر الحسام الحسام
وإلى السيد الخليفة نشكو	جور دهر أحراره ظلام
وعدوها لنا وعود اكبارا	هل رأيت القرى علاها الجهم ؟
فللنا ولم يك الداء يحمى	أن تمل الأرواح والأجسام
يمنع القيد أن نقوم فهل تا	ج فبالتاج للـ — لاد قيام ^(١) ؟

رأيه في مشروع ملنر

(١) على إثر ثورة مصر سنة ١٩١٩ بعثت إنجلترا إلى مصر وفدا برئاسة اللورد ملنر ، لدراسة الحالة ، واستطلاع آراء الساسة في قواعد للاتفاق بين مصر وإنجلترا .

وصات لجنة ملنر في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩ ، فقابلها المصريون أشنع مقابلة ، لأنهم أيقنوا أن الغرض من بعثها إضعاف قوة سعد وزملائه المطالبين في أوروبا بحقوق مصر ، فأضرب الطلاب والمحامون والموظفون ، وقامت المظاهرات العامة . فلما اقتحم الجنود الإنجليز الأزهر مجتمع المتظاهرين في ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩ هاج العلماء وثار الشعب . وكان من العسير على اللجنة أن تجنى ثمرة ما ؛ لأن الوفد والحزب الوطني والأمراء والعلماء أعلنوا قطيعتهم لها ، ولأن أعضاء الجمعية التشريعية اجتمعوا بمنزل سعد زغلول في ٩ مارس سنة ١٩٢٠ وقرروا بطلان الحماية ، واستقلال مصر بسودانها ، ورفض ما تبرمه الحكومة المصرية القائمة من اتفاق ينتقص من الاستقلال التام لمصر والسودان أو من مصالحهما^(١) .

عاد اللورد ملنر إلى إنجلترا ووضع مشروعا للاتفاق في ١٧ يولية سنة ١٩٢٠ ، قدمه الوفد المصري بأوروبا ، فرفضه الوفد . رفضه لأنه وجدته حماية مقنعة . وقدم الوفد مشروعا فرفضه ملنر ، وحينئذ توقفت المفاوضات .

ثم استؤنفت المفاوضات بين عدلى يكن وملنر ، وقدم ملنر مشروعا فيه تعديل يسير للمشروع الأول ، وتسلمه عدلى في ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠ ليوصله الى الوفد . وموجز هذا المشروع :

- ١ — تعترف بريطانيا باستقلال مصر دولة ملكية دستورية .
- ٢ — تبرم مخالفة بين بريطانيا ومصر تتعهد فيها بريطانيا أن تعضد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها ، وتتعهد مصر بأنها في حالة الحرب — وإن لم تمس سلامة أرضها — تقدم في بلادها كل المساعدات التي في وسعها إلى بريطانيا ، ومنها استعمال الموانئ والمطارات ووسائل المواصلات للأغراض الحربية .

٣ — تتناول المهادنة اتفاقاً لتحقيق الأغراض الآتية :

- (أ) تتعهد مصر ألا تعقد مع دولة أجنبية أى اتفاق يضر بالمصالح البريطانية .
- (ب) توافق مصر على بقاء قوة عسكرية فى الأرض المصرية ، ولا يعتبر وجودها احتلالاً عسكرياً ، ولا يمس حقوق الحكومة المصرية .
- (ج) تعين مصر — بالاتفاق مع الحكومة البريطانية — مستشاراً مالياً يعهد إليه بالأعمال التى يتولاها أعضاء صندوق الدين الآن .
- (د) تعين مصر — بالاتفاق مع الحكومة البريطانية — موظفاً فى وزارة الخزانة ، يتصل بالوزير ، وله رأى فى جميع المسائل القضائية المتصلة بالأجانب .
- (هـ) تعترف مصر بحق بريطانيا فى تدخلها لمنع أى قانون مصرى من تطبيقه على الأجانب .

(و) يتبوأ الممثل البريطانى مركزاً استثنائياً فى مصر ، ويتقدم جميع الممثلين . ولم يشر المشروع من قريب ولا من بعيد إلى السودان ، بل إن اللورد ملنر نحاه من المناقشة مع الوفد ، وأبان له أن مشروعه لا يمس السودان ، وأن اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ باق على حاله . فلما عرض هذا المشروع على الوفد رأى فريق منه قبوله بشرط التعديل فيه ، ورأى فريق آخر رفضه ، واتفق الفريقان على عرض المشروع على الأمة لاستشارتها فيه قبل أن يبت الوفد بقرار .

وأرسل الوفد أربعة من أعضائه إلى مصر لعرض المشروع على الأمة ، وكانت الاستشارة مجالا فسيحاً لشرح المشروع جملة وتفصيلاً ، ففاضت الصحف بأراء الهيئات والكتاب والسياسة فى نقد المشروع . ثم أصدر الحزب الوطنى قراراً برفضه لأنه تنظيم للحماية ، وأصدر بعض الأمراء رأيهم برفضه ، ونشر آخرون آراءهم راضية به ، وسلكت أكثرية الأمة طريقاً وسطاً ، بإبداء قيود لا يقبل المشروع إلا بها ، وبعض هذه القيود لا يتسق مع قواعد المشروع وأهدافه ، مما يجعلها رفضاً للمشروع . ثم بعد الاستشارة أعاد الوفد المشروع إلى ملنر مقيداً معدلاً ، فلم يرضه ملنر ، فقطعت المفاوضات فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٢٠ بين سعد وملنر^(١) .

(ب) ماذا قاله موقف شوقي من مشروع ملحق؟

خصه بقصيدة^(١). حيا فيها الأعضاء الأربعة الذين ندمهم الوفد لعرض المشروع . ثم جهر برأيه في المشروع .

والذي نفهمه من بعض أبيات القصيدة أنه رافض له ، لأنه يعجب من المصريين المختلفين في قيمة المشروع ، كأنهم أسرى مقيدون يتلاحون في صلافة القيد أو لينه ، ثم يهيب بهم أن يخطموا القيد وينبذوه لأننا في عصر الحرية ، وينفروهم من التقيد بأن هذا العصر يأبى أى قيد وإن جاء من السماء ، وهذه الثورة في كل مكان جنازة العبودية . ويعلل لقبول المصريين المشروع بأنهم حديثو عهد بالإفاقة من غاشية الاستعباد ، فهم يحسبون الحرية المنقوصة أو العبودية اللينة حرية كاملة :

ما بال قومي اختلفوا بينهم	في مدحة المشروع أو ثلبه
كأنهم أسرى ، أحاديثهم	في لين القيد وفي صلبه
يا قوم هذا زمن قد رمى	بالقيد واستكبر عن سجنه
لو أن قيـداً جاءه من عل	خشيت أن يأبى على ربّه
وهذه الضجة من ناسه	جنازة الرق إلى تربّه
من يخلع النير يعيش برهه	في أثر النير وفي ندبه ^(٢)

ثم انتقل إلى الشاء على الشباب وجهادهم واتحاد مسلمهم وقبطيهم ، وعاد إلى المشروع ثانية ، فبين أن بريطانيا المنتصرة في الحرب العالمية تريد أن نقيم ملكنا على نابها ومخلبها ، فنكون في حوزتها أتباعا ، نصل من تصل ، ونقطع من تقطع ، وندعها تتحكم في ماء النيل كما تهوى . وهو بهذا يبغض المشروع إلى الشعب ، ويكشف عن بعض مساوئه :

الليث والعالم من شرقه في هيبة الليث إلى غربه

(١) الشوقيات ٦٤-٦٧

(٢) ثلبه : عيبه . النير : الحشبة المعترضة على عتق الثورين . الندب : جمع ندبة وهى أثر الجرح . الباقي على الجلد

قَضَى بِأَنْ نَبْنِي عَلَى نَابِهِ مَلَأَ بَسِينَا وَعَلَى خَلْبِهِ
وَنَبْلُغَ الْمَجْمُوعَ عَلَى عَيْنِهِ وَنَدْخُلَ الْعَصْرَ إِلَى جَنْبِهِ
وَنُصَلَّ النَّاسِلَ فِي سَامِهِ وَنَقْطَعَ الدَّخْلَ فِي حُسْرِهِ
وَنُصْرَفَ النِّيلَ إِلَى رَأْيِهِ يَقْسِمُهُ بِالْعَدْلِ فِي شُرْبِهِ
يُبِيحُ أَوْ يَحْسِمِي عَلَى قُدْرَةِ حَقِّ الْقُرَى وَالنَّاسِ فِي عَذْبِهِ^(١)

وكأنما خشي أن يكون في مشورته مفتاتا على آراء الساسة ، فلا ين المشروع بعض الملاينة ، ولكنها ملاينة مزيجة بالتنفير ، فقد دعا الشباب إلى ألا يستقلوا هذا المشروع ، لأن الإنجليز أشقاء بحقوق مصر ، ولأن دعاوى الحرية وحقوق الأمم في تقرير مصيرها دعاوى جوف لا قيمة لها ، فإن رضوا المشروع فليرضوه متربصين ، كالأسد تضطر إلى الشرب من القذى في إحجام وإباء ، والاستقلال التام طفرة وهم عاجزون عن تحقيق ما هو أهون منها وهو قلب نظام الحكم . وعاد فقرر أن المشروع قيد كرية في زمن التحرر ، ومناهم بالفوز ، ونفهم من اليأس :

لَا تَسْتَقْلُوهُ فَهَـذَا دَهْرُكُمْ بِحَاتِمِ الْجُودِ وَلَا كَعْبِهِ
نَسْمَعُ بِالْحَقِّ وَلَمْ نَطْلُعْ عَلَى قَنَا الْحَقِّ وَلَا قُضْـبِهِ
يَسْأَلُ بِاللَّيْنِ الْفَقِي بَعْضُ مَا يَعِجْزُ بِالشَّدَةِ عَنْ غَضْبِهِ
فَإِنْ أَنْتُمْ فَلْيَكُنْ أَنْتُمْ فِي الصَّبْرِ لِلدَّهْرِ وَفِي عَتْبِهِ
وَفِي احْتِشَامِ الْأَسَدِ دُونَ الْقَذَى إِذَا هِيَ اضْطَرَّتْ إِلَى شُرْبِهِ
قَدْ أَسْقَطَ الطُّفْرَةَ فِي مَلْسِكِهِ مَنْ لَيْسَ بِالْعَاجِزِ عَنْ قَلْبِهِ
يَا رَبِّ قِيْـمٌ لَا تَحْبُونَهُ زَمَانَكُمْ لَمْ يَتَّقِيْـمٌ بِهِ
وَمُطْلَبٌ فِي الظَّنِّ مُسْتَبْعَدٌ كَالصَّبْحِ لِلنَّـظَرِ فِي قُرْبِهِ

(١) الليث : بريطانيا . خابه : محله وظفره . الشرب : النصيب من الماء

والياس لا يجهل من مؤمن ما دام هذا الغيب في سجنه^(١)
ولم ينس شوقي لعبد الحميد بك أبي هيف معارضته لمشروع ملنر بحوث قانونية
قيمة ، فلما توفي سنة ١٩٢٦ رثاء منوها بمعارضته التي كانت من الحوافز إلى رفضه .
بالأمس كانت لأبن هيف غضبة^(٢) للحق نذكرها يدا بيضاء
مشيت البلاد إلى رسالة ملنر وتحفرت أرضاً لها وسماها

.....

لما رأى (التقرير) ينقث سيمه سبق الحواة فأخرج الرقطاء
هتك الحماية والرجال وراءها يتلمسون لها الستور رياء
ما قبّحوا بالصباح من أشباحها راحوا إليك فحسّوه مساء^(٣)

رأيه في تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٣

(١) وجدت إنجلترا أن اتفاقها مع الوفد المصري وسعد زغلول عسير ، ووجد
بعض المصريين أن الرضا بالاستقلال المنقوص خير من الاحتلال الدائم ، فلم يرفضوا
الأسس التي قام عليها تصريح ٢٨ فبراير على أنه خطوة إلى الاستقلال ، ولم يشاءوا
أن يقيدوا أنفسهم أو مصر بهذه الأسس ، فأصدرت إنجلترا من جانبها هذا التصريح
تعلن فيه :

- ١ — إلغاء الحماية البريطانية على مصر .
- ٢ — اعتراف إنجلترا بمصر مملكة مستقلة ذات سيادة .
- ٣ — مصر مملكة ، الملك فيها ورثي في أسرة محمد علي .
- ٤ — تحكم مصر حكومة دستورية .
- ٥ — تحتفظ إنجلترا بشروط أربعة :

- (أ) تأمين المواصلات الإمبراطورية في مصر .
- (ب) حماية مصالح الأجانب والأقليات .

(١) حاتم الطائي وكتب بن مامة من أجواد العرب . قننا : رماح . قضب . سيوف . احتشام :
إحجام . الطفرة : الوبة إلى أعلى . قلب الملك : تبديله وتغيير نظامه . حجب ، جمع حجاب
(٢) الشوقيات ٨/٣

(ح) الدفاع عن مصر إذا اعتدى عليها بالذات أو بالواسطة .
(د) مسألة السودان .

ولم يرتض سعد تصريح ٢٨ فبراير ، لأنه لا يحقق ما تريد مصر ، ولأن هذه الشروط قبول تلف الحماية في ثوب من الاستقلال الموهوم « فإذا أضيفت إلى القوة العسكرية هذه الشروط فالذي يبقى من الاستقلال لا يساوي عناءه ، والذي يبقى من الحماية أو الضم الصريح هو الجوهر الصميم الذي ليس يعني القوم شيء سواء .

تحدث سعد بعد عودته من منفاه عن تصريح ٢٨ فبراير فقال على أسلوبه في سرد الأمثال : هو ناقة البدوى التي تباع بمائة درهم ، وتباع القيمة التي في رقبتها بألف ، ولكن لا تباع الناقة بغير تيممة ، فما أملحها من صفقة لولا الملعونة التي في رقبتها »^(١) .

(ب) ماذا رأى شوقي في مشروع ٢٨ فبراير ؟

لقد قصر عليه قصيدة طويلة^(٢) ، بدأها بما يشعر برفضه هذا المشروع .
ذلك بأنه بين أن الراحة الكبرى لا ينالها إلا من كد وجد ، وأن الحق لا بد أن يناله طالبه الساعى إليه ، وعجب من أن يطنطن بعض المصريين ويغضبوا في حين أن مصر لم تنل ما تريد ، ونصح بالتريث والتغلب على دواعى الفرح أو دواعى الترح حتى يستبين المصريون الأمر في هدوء وتعقل ، ونصح بالصبر وإعداد العدة الحربية والاتحاد والتعاون :

أُعِدَّتْ الراحة الكبرى لمن تعباً	وفاز بالحق من لم يأله طلباً
وما قضت مصر من كل لبانتها	حتى نجر ذبول الغبطة القشياً
في الأمر ما فيه من جدٍ فلا تقفوا	من واقع جزعاً أو طائر طرباً
لا تثبت العين شيئاً أو تحققه	إذا تحير فيها الدمع واضطرباً
إذا طلبت عظيماً فاصبرن له	أوفاحشدين رماح الخط والقضباً

.....

(١) سعد زغلول ٤١٥ العقاد

(٢) الشوقيات ٦٨/١

إن الرجال إذا ما اُلْجُئُوا لَجُّوا إلى التعاون فيما جبل أو حَزَباً

ثم بين مزاييا المشروع ، فقال إنه خطوة إلى الأمل المنشود ، وإنه اعتراف من بريطانيا بحق مصر المغتصب ، وهو سبيل إلى الحكم الدستوري ، وتحدث عن مزاييا الدستور والبرلمان ، ودعا إلى الاتحاد ونبد التفاهر بالجهود .

وهو في تبيان هذه المزاييا لم يخرج على ما للسياسة من رأى في المشروع ، ولا نستطيع أن نتخذ منها دليلاً على تأييده ومناصرته :

لا ريب أن خطأ الآمال واسعة وأن ليس سراها صبحه اقتربا
وأن في راحتي مصر وصاحبها عهداً وعقداً بحق كان مغتصبها
قد فتح الله أبواباً لعل لنا وراءها فسح الآمال والرحبا

.....

لم يبرم الأمر حتى يستبين لكم أساء عاقبة أم سر منقلباً
نلتهم جليلاً ولا تعطون خردلة إلا الذي دفع الدستور أو جليلاً

.....

ثم صرح بأن المشروع قطع رأس الحماية ، ودعا الله أن يمن على مصر بحزم وعزم وجهاد تستأصل الحماية استئصالاً :

قالوا الحماية زالت قلت لا عجب بل كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عذمت كنانة الله حزمها يقطع الدنيا
أحق أن شوقى كان في قهيدته ينجح إلى رفض المشروع ، ويميل إلى الاستهانة به لأنه لا يحقق الاستقلال المنشود .

وجدير بالذكر أن حزب الأسترار الدستوريين ألف لمنصرة تصريح ٢٨ فبراير وانضم إليه كثير من مشكركى الأمة وكبرائها ، ولكنه قوبل بالسخط الشديد ، واتهمه الوفد بالتخاذل وبشق وحدة الأمة (١) ، وإن كان بعض الوفديين قبلوا التصريح

وانشقوا على حزبهم ، ثم ظل الوفد يرفضه قولا ويقبله عملا ، لآتاه دخيل معركة الانتخاب ، وقولى الوزارة ، وتربع فى كراسى البرلمان .

الجلالة أساس الاستقلال

عرفنا أن شوقى كان وطنياً محباً لمصر ، مخلصاً لها ، نفوراً بماضيها المتألق ، طموحاً إلى مستقبلها المشرق ، وعرفنا أنه كان صديقاً لمصطفى كامل وشريكاً له فى الجهاد ، وأنه كان صديق سعد زغلول وكثير من الساسة .

ورأينا شوقى فى فصول سابقة عدوا للاحتلال ، يجاهر بمناضلته ، ونصيرا للجهاد والمجاهدين ، ثم رأيناه فى هذا الفصل لا يرتضى مشروع ملنر ، ولا يطمئن إلى تصريح ٢٨ فبراير .

وإذا فالنتيجة المرتقبة أن يتمسك شوقى بالاستقلال التام لمصر والسودان . ولقد حقق شوقى ذلك ، فهو يوصى سعد زغلول بالحرص على قناة السويس فى قصيدته التى هناه فيها بالنجاة من الاغتيال :

ويا سعد أنت أمين البلا د قد امتلأت منها أيمانها
وان نرتضى أن تُقدِّ القنا ة ويتر من مصر سودانها
وحجبتنا فيهما كالهـ — با ح وليس بمعيبك تبيانها^(١)
ويشيد بصلابته وضنه بحقوق مصر فى رثائه^(٢) ، كقوله .

يا عدو القيـ — د لم يلبح له شبحا فى خطة إلا أباهها

.....

ذائد الحق وحامى حوضه أنفدت فيه المقادير منهاها

وقد سبق تصويره لتوت عنخ آمون جزعا حينما رأى جنود الإنجليز يحتلون منابع النيل وواديه وقناة السويس .

ولقد جهر بدعوته إلى الجلاء فى سنة ١٩٢٤ فى حفل تكريم الشبان المجاهدين

الذين كانت قد أدانتهم المحاكم العسكرية الإنجليزية ، فأقسم أن الجلاء هو جيد بمصر ،
وأنه لا أعياد ما دام الإنجليز يحتلون أرضها ، وتشوق إلى اليوم الذي تحطم فيه
أغلاها ، وتهكم بتصريح ٢٨ فبراير لأنه قيد مصر بقيود من ذهب بعد أن كانت من
حديد ، يريد أن الاحتلال باق لكن في ثوب آخر خادع ، واستشهد على سلطان
الاحتلال بأن جيوشه تحتل السودان والوادي :

والله ما دون الجلاء ويومه	يوم تسميه الكنانة عيدا
وجد السجين يدا تحطم قيده	من ذا يحطم للبلاد قيودا ؟
ربحت من (التصريح) أن قيودها	قد صرن من ذهب وكن حديدا
أو ما ترون على (المنابع) عدة	لا تنجلي وعلى الضفاف عديدا ^(١)

فإذا ما قايسنا بين شوقي وحافظ ألفينا حافظا مترددا حائرا لم يند رأيا
في تصريح ٢٨ فبراير :

إن تسألوا العقل يقل عاهدوا	واستوثقوا في عهدكم ترحبوا
وأسسوا دارا لنوابكم	للراى فيها والحجا أفسحوا

.....

أو تسألوا القلب يقل حاذروا	وصابروا أعداءكم تفلحوا
إنى أرى قييدا فلا تسلبوا	أيديكم فالقيد لا يسبح
إن همسوا من حرير لكم	فهو على لين به أفدح ^(٢)

.....

ولا نجد في شعر حافظ دعوات شوقي إلى الجلاء والاستقلال التام .

(١) الشوقيات ١/ ١٢٧

(٢) ديوان حافظ ٢/ ٩٦

الفصل السادس

وحدة الوادى

فحص الرياحه وسودانها
عقبه الرياحه وفلاحانها
شوق

الروابط قديما

شطران من قطر واحد اتحد منذ أكثر من خمسة وخمسين قرنا ، يتبادلان المنافع ، ويتقايضان السلع . لهذا راجت سوق التجارة بين شمالى الوادى وجنوبيه منذ عهد الدولة القديمة (٢٨٠٠ ق . م) ، وليس أدل على ذلك من أن كلمة (أسوان) معناها باللغة المصرية القديمة (السوق) .

وكان شباب النوبة الأشداء ولا سيما شبان قبائل البجة (المازوى قديما) يجيئون إلى مصر منذ عهد الأسرة السادسة ليتخبطوا فى الجيش طائعين مختارين ، وكان فرعون يختار منهم رجال الشرطة وحرسه الخاص ، وما زال هذا النظام متبعاً إلى ما بعد العهد الفرعونى .

وقد كشفت البحوث الحديث عن علاقة وثيقة تربط البلدين ، هى علاقة الجنس ، إذ أثبت أن المصرى والسودانى من الجنس الحامى ، وأن اللون الأسود لا يدل على فرق فى الجنس ، فالسودانيون لا يمتون إلى الزوج ، ولم يخالطوهم حتى أوائل الأسرة الثامنة عشرة .

ويتحدث التاريخ بأن فرعون مصر (نفرحتب) أكرم وفدا من (المازوى) إكراما دالا على ما بين شطرى الوادى من وحدة ووئام . ويحدثنا بأن الجنود النوبيين أعانوا إخوانهم المصريين فى إجلاء الهكسوس عن مصر . فلما تحررت مصر ازداد

السودان ومصر اتحادا ، حتى صارا في عهد الأسرة الثامنة عشرة كقطر واحد في نظام واحد .

وفي تاريخ تحتمس الأول أنه عين حكومة للسودان مقرها (نباتا) بعد الشلال الرابع ، وضم إلى حاكم السودان ثلاث مقاطعات من الوجه القبلي ، دلالة على أنه لا فرق في الحكم والإدارة بين مصر والسودان ، ولقب حاكم هذا الإقليم بابن الملك ، إشعارا لأهل الجنوب بالإعزاز والرعاية . ولقب أيضا بابن الملك وحاكم الجنوب ، أى حاكم الشطر الجنوبي من مصر . ولم يكن الحاكم ابن الملك حقيقة ، وإنما لقب بذلك تسكريما وتمظيلا .

ولم يثر على أثر يدل على تضرر السودانين من الإدارة المصرية ، بل عثر في مقبرة (حوى) ابن الملك في عهد توت عنخ آمون على رسم يمثل وفدا سودانيا يحمل هدايا إلى فرعون ، وأعضاء هذا الوفد يرتدون الملابس المصرية التي يلبسها العلية في ذلك العهد .

وعندما غزا الفرس مصر فقدت سلطانتها بالسودان ، لكن حضارتها وثقافتها بقيتا هنالك ، وبقيت علاقتها التجارية بالجنوب .

ولم تنقطع صلة الجنوب بالشمال ، ولا صلة الشمال بالجنوب في عصر البطالمة ، وأكبر دليل على ذلك أن (سيزاريون) بن كليوباترة لم يفكر في حمى يلجأ إليه بعد مقتل أمه إلا السودان^(١) .

الروابط المصرية

أما في العصور الحديثة فقد كثرت الروابط وزادت وثاقة ، فبين المصريين والسودانيين وشائج من الجنس واللغة والدين والتاريخ والمصالح والعادات والآمال والآلام ، وهي وشائج شاملة لمقومات الأمة الواحدة قلما نرى اجتماعها في أمة متماسكة من أمم العصر الحديث .

وإذا كان محمد علي قد فتح السودان ، ثم ارتحل إليه (من أكتوبر سنة ١٨٣٨

(١) من مقال الأستاذ سليم حسن . جريدة المصري ١٩٤٨/١٢/٩

إلى مارس ١٨٣٩) فإنما أراد بفتححه ضم الشطر الجنوبي من مصر إليها ، وإنهاض هذا الشطر الذي أهمل حتى أغنى .

والذي يقرأ أخبار الرحلة يعجب بما كان يتوخى محمد علي من ترقية السودان ، ويجده يذيع في السودانيين بمشوراته أن الجيش المصري لا يحمل لهم سوى السكينة والسلام ، وأن في وسعهم أن يقابلوا الوالى فى غير خوف ، لأنه سيرحب بهم ، وهو لا يبغي من رحلته إليهم سوى العمل لخيرهم وإثناء ثرواتهم . وقد أرشد المشايخ والزعماء الذين قابلوه بالخرطوم ، وملوك سنار وفازوغلى ورؤساء العشائر الذين قابلوه بالرصيرص إلى تنظيم الإدارة ، والعدل ، وتحسين وسائل الزراعة والصناعة .

وخطب فى (فاشقفارو) خطبة شافت العلماء ورؤساء العشائر إلى زيارة مصر ، وطلب محمد على من السودانيين أن يرسلوا أبناءهم معه إلى مصر ، لينشئهم فى مدارسها ، فإذا ما أتموا تعليمهم عادوا إلى بلادهم ، فسروا بذلك ، ووعدوه أن يستجيبوا لمشورته^(١) .

وقد حاول سعيد وإسماعيل أن يبطلا النخاسة ، وجداً فى ذلك ، ففى نوفمبر سنة ١٨٥٧ سافر سعيد إلى السودان ، ولقى فى بربر وجهاء البلاد ، وأعلن لهم رغبته فى إبطال تجارة الرقيق ، ثم اتجه إلى الخرطوم ، وأمر بإنشاء محطة عسكرية على نهر السوبات لمراقبة تجار الرقيق ، وقطع دابر النخاسين^(٢) .

ولما تولى إسماعيل وطد العزم على إبطال الرق ، وكانت النخاسة على أشدها ، على الرغم من جهود محمد على وسعيد ، فأمر حاكم السودان بتعقب النخاسين ، فتعقبهم وسجن بعضهم . ثم عين السير صمويل بيكر سنة ١٨٦٩ حاكماً على البلاد الاستوائية ، وسيره بجيش لبيطل النخاسة فى الإقليم الاستوائى ، وسير بعده الكولونيل غوردون ليواصل ما بدأه بيكر . وفى سنة ١٨٧٧ عقد مع بريطانيا معاهدة لمنع تجارة الرقيق ، وإبطال الرق^(٣) .

(١) جورنال الرحلة ٢١ إبريل سنة ١٨٣٩ باللغة التركية . عن مجلة المصور ١٤/٢/١٩٤٧

(٢) تاريخ مصر فى عهد إسماعيل ٣٠٧/١ الأيونى

(٣) المرجع السابق ٣٠٨-٣٢٣

وظلمت علائق مصر بالسودان قوية منذ عهد محمد علي وإسماعيل إلى أن حاولت إنجلترا قطعها باتفاقيتي سنة ١٨٩٩ .

والإنجليز أنفسهم يعرفون أن السودان ومصر قطر واحد ، وحسبنا أن تشرشل يقول في كتابه (حرب النهر) الذي نشره بعد اتفاق ١٨٩٩ : « لا يملك الناظر إلى خريطة النيل نفسه من الدهشة لذلك التشابه القوي بين نهر النيل وشجرة النخيل . ففي شمالي النيل تجد الخضرة وحقول الدلتا الخصبة ، تنتشر كأغصان الشجرة ذات الأوراق الخضرة . وقد تلاحظ أن جذع النخلة يتعرج ، وهكذا النيل ينساب مثنيا وسط الصحراء . وفي جنوبي الخرطوم تجد شجها تاما بين مجرى النهر والنخلة ، لأن جذع النخلة يبدو متغلغلا إلى أعماق الجنوب . ولا أستطيع أن أتخيل صورة أقوى من هذه لإبراز العلاقة الوثيقة بين مصر والسودان ، فالماء — حياة مصر — يجري من السودان ، وينساب في مجرى النهر كما يدب عصير الحياة في جذع النخلة صاعدا إلى ذروتها لشمر ثمرها .

وفائدة مصر من صلتها بالسودان بديهية لا تحتاج نقاشا ، لكن الفائدة لا تعود على مصر وحدها ، بل تعم مصر والسودان جميعا ، وهما يتبادلانا . وإذا كان السودان جزءا لا ينفصل من مصر طبيعيا وجغرافيا فإن صلته بمصر لا مندوحة عنها ، لتقدمه ورفاهية أهله .

وماذا تكون فائدة الجذور والأرض الخصبة إذا انتزع الجذع عنوة ، وهو الذي يوصل عصير الحياة إلى الفروع والأوراق ؟ لهذا السبب الواضح ، ولهذا الغرض الشريف قامت (حرب النهر) لتحقيق وحدة أرض لم يكن من الممكن أن تظل منفصلة ، ولتجمع شتات شعبين ليس من الممكن التفريق بين مستقبلهما السعيد .

وقد اعترفت إنجلترا بضرورة هذه الوحدة منذ احتلت مصر ، فباسم خديو مصر أخرجت القائد الفرنسي مرشان من فاشودة ، وبرجال مصر وأموال مصر أعادت الأمن والنظام إلى السودان ، وطالما أعلنت في وثائق رسمية أن السودان جزء من مصر . واطالما أنفقت مصر على السودان أموالا عظيمة .

لكن إنجلترا أجبرت مصر في أحوال اضطرارية أن توقع على اتفاق سنة ١٨٩٩ لتشارك مصر في حكمه ، وترفع العلم البريطاني بحوار العلم المصري في أنجائه ، وليحكمه بريطاني لا يعزل إلا برضا بريطانيا ^(١) ، وهذا الاتفاق باطل قانونا ^(٢) .

وعجيب أن تفكر إنجلترا بعد سنة ١٨٩٩ في سلب السودان من مصر ، غير قناعة بادعائها الشركة فيه .

وأعجب السبب أنها كانت تنادي بضرورة السودان لمصر وهي تحتلها ، لأنها طامعة فيهما معا ، فلما استقلت مصر وأفلتت من مطامع إنجلترا جعلت تسعى لفصل السودان ، وصار ما كان ضروريا بالأمس غير ضروري اليوم .

شوقي والسودان

عاصر شوقي هذه الحال ، فكان حريصا على السودان ، داعيا إلى الضن به ، منوها بوثاقة العلائق بينه وبين مصر .

وليس سرحه هذا بجديد ، فإنه في ١٩ مارس سنة ١٨٩٥ م قال قصيدة بمناسبة وصول جثمان الخديوي إسماعيل إلى القاهرة ، أشاد فيها بتوسيع إسماعيل فتوح جده في السودان ، وذكر أنه بذل في ذلك أموال مصر ودماء بنينا ، وأن السودان جدير بهذه التضحيات ، وأشاد بتنظيم إسماعيل للسودان ، ونوه بسعادة مصر بسودانها ، واستغادتها منه ، وأطمئنتها إلى أن شطرها الجنوبي سياج للملكة وحصن .

ولست أدري كيف جانب شوقي كياسته ولباقة فحبر بكلمة (عبد) في البيت الأول:

وملكت السودان في أطول والعرض وفي شأنه المعظم عبدا
نلت بالمال والدماء منه أرضا بحبال الياقوت والدر تُفدى
ثم نظمتة ————— لك كانت نار تنظيمها سلاما وبردا
فهينتنا به السعداء عمرا وأصبنا به المعين الميدا

(١) مذكرياتي في نصف قرن ٢/٢٩٥-٢٩٩

(٢) راجع (الأسانيد الدولية والقانونية على بطلان اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩) للرافعي .

وطريقَ البلاد نحو المع — الى وسياجا لملك مصر وحداً^(١)

وإذا ما قال قصيدته في (مصرع كتشنر) ذكر الشباب بأنه بنى مجسده على دعائم من جهود مصر وشبابها ، فهم الذين فتحوا السودان ، وحذروهم أن يفرطوا فيسه ، لأن فقدان السودان مضيعة للوادي كله :

شدتمُ دفياء في أحسنهم — غزوة السودان والفتح الأغر
وبنى مملكة النُوب بسكم — فاذكروا القتلى ولا تفسوا البسدر
واحذروا من قسمة النيل فيا — ضيعة الوادي إذا النيل شطر^(٢)

وقد جرى على عادته في مناجاة توت عنخ آمون وبثه ما يحبره أو يحزنه من حال مصر ، فهو يفتتح إحدى قصائده في توت عنخ آمون بتمنيه أن تنفخ فيه الروح قبل البعث ، ليملا الأرض عدداً حربية ، ويفتح منابع النيل ويستردها لمصر ، لأن السودان حياة مصر ، فيه منابع مائها ، وأهلوه إخوة المصريين وأحباؤهم . ثم ودعا شوقي ألا يعترى صلة مصر بالسودان ما يرنقها ويبتعث الشكوى من الجفاء أو القطيعة ، وصور حب المصريين للسودانيين تصويراً لائقاً بفضله وافتنانه ، تصويراً جمع الإيجاز والجمال والكياسة واللباقة ، فقال إن القرابة بيننا وبين إخواننا سكان الجنوب ، والوشائج المتصلة بهذه القرابة ، أحالت سواد ألوانهم في عيوننا بياضاً :

قم سابق الساعة واسبق وعدّها — الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها
واملاً رماحاً غورها ونجدّها — وافتح أصول النيل واستردها
ش — لآلها وعذبها وع — واصرف إلينا جزرها ومدّها
تلك الوجوه لا شكونا فقدّها — بيضت القرني لنا مسودّها^(٣)

(١) الشوقيات ١/١٢٠

(٢) الشوقيات ٢/٢٠٢

(٣) الشوقيات ٢/١٩٧ العدد : الماء الجاري الدائم الجريان

ولم يفته وهو يهنيء سعاداً بنجاته من الاغتيال أن يذكره بضرورة السودان
وقيمة لمصر ، وأن ينوه بحرص مصر على السودان وقناة السويس معاً .

وإنه لبارع في تصويره مصر جنات ، والسودان عيونها ، وهل تنبت جنات وتحيا
أشجار وتثمر ثمرات بغير ماء ؟ ثم صور النيل التابع من السودان لا يجري بالماء ،
بل يجري بالحياة ، فهو في أرجاء مصر أوردة وشرابين تحمل الغذاء والنماء ، ولولاها
ما عاش الأحياء .

وزاد على هذين التصويرين ثالثاً أن ينابيع النيل تكمل مصر وتكملها ، وتسكفل لها
الإبصار ، فهي كإنسان العين للعين ، وإذا فقدت مصر سودانها عميت وضلت وحارت
وانطمس جمالها .

وذكر بالأصار التي يجب أن يراها المصريون والسودانيون ، وندد بتعلة إنجلترا
في ادعائها الشركة ، ورد عليها بأن مصر هي التي احتملت مغارم الفتح وأثقال
الاسترجاع ، فليس لإنجلترا حق في دعواها ، لأنها لم تحتل أي نصب في فتح السودان
ولا في استعادته ، ولأنها لا تمت إلى أهليه بسبب من الجنس أو اللغة أو العادات
أو الإقليم . وليس لها من أرب إلا الاستعمار وتدمير أموالها وفسح مجال لأبنائها
ومتاجرها ، وليكنها تسند باطلها بالقوة طبقاً لشرعية الغابة :

ويا سعاد أنت أمين البلا	د قد امتلأت منك أيمانها
ولن نرتضى أن تُقَدُّ القنا	ة ويُتر عن مصر سودانها
وحجتنا فيهمـا كالصبـا	ح وليس بمُعِيكَ تبيانها
فمصر الرياض ، وسودانها	عيون الرياض وخليجانها
وما هو ماء ولكنه	وريد الحياة وشرابها
تُتمم مصر ينابيعه	كما تتم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه	عشيرة مصر وجيرانها

وأما الشريك فعِلاته هي الشُّرَكَات وأقطانها
وخرْبُ مضت نحن أوزارها وخيل خَلَّتْ نحن فرسانها
وكم مَنْ أَتَاكَ بمجموعة من الباطل ، الحق عنوانها
فأين من المنش بحر الغزا ل وفَيْضُ نِيَانِزَا وتَهْتَانِهَا ؟
وأين التماسيح من لجة يموت من البرد حيثانها ؟
ولكن رؤوس لأمواتهم يحرك قرنيه شيطانها
ودعوى القوى كدعوى السبا ع من الناب والظفر برهانها^(١)

(١) الشوقيات ٣٣٢/٢ يتر : يقطع . معييك : معجزك . إنسان العين : الدائرة التي في سوادها .
أوزار : أسلحة . المنش : بحر في الشمال الغربي لأوروبا بين إنجلترا وفرنسا . بحر الغزال : أحد فروع
النيل الأبيض في السودان . نِيَانِزَا : إحدى البحيرات التي ينبع منها النيل .

الفصل السابع

الدستور

وهو اهر التيجان ما لم تتخذ

من مصر الدستور غير صانع
(شوقي)

ببئسه الدستورية

(١) إذا ما رجعنا إلى تاريخ مصر الحديث وجدنا بذورا تلقى غن غير قصد ، ثم تتوالى عليها أحداث تكفل بقاءها ونماءها ، فتنبت منها دوحة الدستور . ولقد يكون من الإنصاف أن نذكر حقيقتين :

الأولى : أن نابليون أنشأ ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم والديوان العام سنة ١٨٩٨ م ليهتدى بآراء الزعماء في حكم مصر ، في وقت لم يسعد الشرق فيه بحكم نيابى ، بل لم يكن يعرف هذا الحكم - من دول الغرب إلا اثنتان : إنجلترا وفرنسا .

ولم يكن نابليون يريد من هذه الدواوين أن يدرب المصريين على حكم دستورى نيابى ، أو أن يكل إليهم تصرف شؤونهم بأنفسهم ، لأن هذا يتنافى والسلطان الذى يبتغيه من فتحه ، وإنما كان يريد من هذه الدواوين ، ومن منشوراته التى وزعها على الأهلين ، ومن ضروب التودد التى أظهرها للشعب وزعمائه ، أن يوطد سلطانه ويدعم بنيانه ، ويؤسس دولة فى الشرق .

الثانية : أن محمد على أنشأ فى سنة ١٨٢٩ م مجلس المشورة من كبار موظفى الحكومة والعلماء والأعيان برئاسة إبراهيم باشا^(١) ، لكن هذا المجلس كان استشارياً ، لا سلطة

(١) أعضاء المجلس ١٥٦ منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الأقاليم و ٩٩

من كبار الأعيان

له في نقد الحكومة أو إلزامها بقرار ما ، فهو إذاً كالديوان الذي أنشأه نابليون ، لكن من حقه أن يشير على الحكومة في شؤون الإدارة والتعليم والأشغال والقضاء ، ومن حقه أن يدرس الشكاوى التي تقدم إليه . وهو ينعقد في كل سنة مرة ، ويجوز أن يستمر انعقاده جلسات عدة . ثم أُلّف محمد على المجلس المخصوص والمجلس العمومي ولم يكن لهما حول ولا طول ، لأنهما في قبضة يده ، أو في قيد السكتخدا^(١) .

فمن البديهي أن محمد على لم يحفيل بإنشاء نظام دستوري أو شبه دستوري بالمعنى الذي نفهمه الآن .

وقد يكون مرد ذلك إلى ميله إلى الانفراد بالحكم المطلق ، في عهد لم يكن الشعب قد بلغ فيه من الوعي ما يدفعه إلى المطالبة بالحكم الدستوري ، لأنما سئرى الشعب في أواخر عهد إسماعيل وبداية عهد توفيق يجاهر بطلب حقوقه ، ويلح في أن يحكم نفسه بنفسه ، بل يتذرع بالقوة أحياناً فيصطدم بالحاكمين .

(٢) ألغى مجلس المشورة في عهد عباس وسعيد .

فلما آل الحكم إلى إسماعيل أنشأ مجلس شورى على نسق جديد ، سماه (مجلس شورى النواب) سنة ١٨٦٦ م ، وهو مجلس استشاري ، ينتخب نوابه عهد البلاد ومشايخها في المديریات ، والأعيان في القاهرة والإسكندرية ودمياط ، لمدة ثلاث سنوات ، و ينعقد في كل سنة شهرين ، ويتمتع أعضاؤه بالحصانة البرلمانية . ويرجع السبب في ضعف سلطانه في أول الأمر إلى أنه منحة من الخديو ، لا استجابة لرغبة الشعب ، لكنه كان على ضعفه المؤقت فجراً للحرية ، وللحكم النيابي ، لا بد أن تعقبه الشمس ، لأن دراسة مضابطه تكشف عن استنارة بعض أعضائه ، ومشاركتهم في ترقية الشعب باقتراحات عدة^(٢) .

(١) تاريخ الحركة القومية ٥٧٢/٣ — ٥٧٩ الرافعي .

(٢) عصر إسماعيل ٩٢/٢ — ٢٣٦ الرافعي .

اقترح بعضهم في الدورة الأولى للمجلس الأول تخفيف السخرة ، ونقسيط الأموال الأميرية ، وتحديد مواعيد لدفعها ، وتعميم المدارس الابتدائية ، وقررت اللجنة التي أحيل إليها هذا الاقتراح إنشاء مدرسة في كل مديرية وكل محافظة ، وأن يكون التعليم بالجان ، ووافقت الحكومة على هذا الاقتراح . وأعان =

وإذا عدنا بالخيال إلى ذلك العصر استبشرنا بأعمال المجلس في دورته الأولى ، وأيقنا أن في الشعب استعداداً كامناً للحكم الشورى ، لا بد من أن ينمو ويقوى مع الزمن ، لأن هذا المجلس شبّ ونهض حتى صار قوة ذات خطر .

ثم نهضت المعارضة والحياة النيابية فيما بين سنة ١٧٨٦ و ١٨٧٩ ، وبدأت النهضة في مناقشات الأعضاء وأعمالهم ، وسرى في المجلس نسيم منعش طرد سحب الخمول والجمود التي كانت تغطي سماءه أحياناً في الدورات السابقة .

لذلك لما دعى المجلس للاجتماع سنة ٨٧٩ : رحبت به الصحافة الوطنية ، وأملت آمالاً كباراً في أعماله « لتعرف مصر قيمته ، وتذكر كنهه حساً ومعنى ، وتجنّى باكورة ثماره »^(١) ، وأملت أن ينهض النواب بواجبهم « ولم لا ؟ وإن من أعضائه رجالاً

== شريف باشا للمجلس أن الحديو وقف على المدارس جميع الأتيان التي يتكون منها تفتيش الوادى . فقابل المجلس هذا بالشكر ، واقترح أيضاً منع مجازاة العمد بالضرب ، فطالب نائب بنم الضرب عن العمد وغيرهم ، وأن يحذف من القانون النص الذى يبيح للحكام الضرب ، فوعدت الحكومة بذلك . وفي الدورة الثانية اقترحوا إنهاء الزراعة ، وإنشاء حقول للتجارب ، والعناية بالرى والترع ، وردم البرك والمستنقعات ، وتعميم لقاح الجدري ، وإنشاء المستشفيات . وفي الدورة الثالثة اقترحوا تنصيب مشايخ البلاد برغبة الأهلى وانتخابهم ، وتوسيع الشوارع الضيقة وتنظيم المباني بالمدن والقرى . وفي الدورتين معا ناقشوا المسألة المالية .

أما المجلس الثانى فن أهم اقتراحاته ترتيب المحاكم ، وإلغاء ضريبة الماشية ، وتعديل النظام القضائى ، وبحث فى الميزانية ، وإن كانت البيانات التي قدمت إليهم غامضة بحجة ، وضلل بهم إسماعيل صديق المفتش . وعارض المجلس بزعمه عبد السلام المويلحى فيما آلت إليه حال مصر من جراء السياسة المالية الختلة والقروض السكثيرة المتتالية ، وشراء إنجلترا أسهم مصر فى قناة السويس بثمن بخس ، حتى لقد قدمت بعثة كيف الإنجليز لدراسة مالية مصر ، وأنشئ صندوق الدين سنة ١٨٧٦ . وقد صرح الحديو إسماعيل فى دور الانعقاد الأول للهيئة الثالثة ١٨٧٦ — ١٨٧٩ فى خطبة العرش أن للمجلس حقاً ثابتاً فى الاشتراك فى شئون الحكم وتصريفها . وأجاب الأعضاء على خطاب العرش سنة ١٨٧٩ بكتاب يختلف عن كتبهم السابقة ، ففيه سمو واعتزاز وتقدير للنيابة والنواب ، وختموه بالهتاف للحديو وللجارية وهم بهذا الكتاب وضعوا أساس المسؤولية الوزارية أمام مجلس النواب . وغضبوا لما تأخر وزير المالية فى إرسال مشروعات وزارته ، ثم غضبوا لأن مرسوم ٦ يناير سنة ٧٩ جعل القوانين المالية تصدر من الوزارة والحديو ، واعترضوا على ذلك اعتراضاً شديداً ، علق عليه جريدة التجارة بقولها : « إن من تصفح ذلك التقرير علم أن فى السويداء رجالاً سودتهم نفوسهم ، فلا تسام خسفاً ، ولا تضام عسفاً » (عصر إسماعيل ٢ / ١٩٠ الرافعى وجريدة التجارة العدد ١٨٠) .

(١) جريدة التجارة عدد ١٥٣ أديب إسحاق

لا تأخذهم في الحق لومة لائم ، مع العلم بواجباتهم وحقوق الأمة ، وما ألمّ بها من الآلام ، وبودهم لو افتدوا الإصلاح بدمائهم . وتساقل الثقة خبرا آخر وهو أنه سيسمح لمراسلي الجرائد بحضور جلسات هذا المجلس ، لاستماع المفاوضات فيه ونقلها إلى الصحف ، فأبشروا أهل مصر بعصر جديد يفتي به طارف المجد عن تليد^(١) ، ولما استقالت وزارة نوبار باشا لم يقف المجلس جلساته ، بل أخذ يجتمع ويتداول الرأي والعمل ، وتلك سنة حميدة أراد بها المجلس أن يبرهن على استقلاله عن الوزارة . وألقت وزارة رياض باشا ، ورأى الوزيران الأوروبيان أن المجلس سيضع العقوبات في طريق الوزارة ، وسيشَلّ سلطتهما ، فاعتزما التخلص منه ، ووافقهما رياض لميوله الاستبدادية ، فاستصدرت الوزارة مرسوما بفض المجلس ، بدعوى أن مدة النيابة وهي ثلاث سنوات قد انتهت ، لكن الأعضاء ناقشوا رئيس الوزارة وألغوه ، ثم قدموا في ٢٩ مارس سنة ٨٧٩ كتابا للخديو يعترضون فيه على مسلك الوزارة^(٢) . ثم خطوا خطوة أخرى موفقة ، إذ اجتمع الأحرار من النواب والأعيان في جمعية وطنية تضم صفوف الكبراء ، واتفقوا على وضع بيان يتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع ريفرز ويلسن ، ويطالبون فيه بتأليف وزارة وطنية مستقلة ، وإقصاء الوزيرين الأوروبيين ، وتقرير نظام دستوري للبلاد قوامه أن تكون الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب .

وقدموا اللائحة بذلك إلى الخديو فقبلها ، واستجاب لمطالبهم ، واستدعى وكلاء الدول ، وأخبرهم أن اللائحة تطلب وزارة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابي ينتخب على نظام جديد^(٣) .

وأعجبت الصحف بقوله في كتابه للقناصل : « إن الأمة قد أجمعت على تنفيذ هذه اللائحة ، ومعلوم لجنا بكم أن الأمة إذا اتفقت كلمتها وإن على خلع ملك أو سلطان فلا بد من تنفيذ إرادتها وإجابة رغبتها^(٤) » .

(١) جريدة التجارة العدد ١٥٣ (٢) عصر إسماعيل ٢١٤/٢

(٣) تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل ٤٨١/٢

(٤) جريدة التجارة ٩ أبريل سنة ١٨٧٩

وكلف الخديو شريف باشا أن يؤلف وزارة وطنية جديدة ، وبذلك نجى
الوزيران الأجنيان .

وقال الخديو في كتابه لشريف باشا الذي يكلفه فيه تشكيل الوزارة : «إني بصفتي
رئيس الحكومة ومصرياً أرى من الواجب على أن أتبع رأى الأمة وجعل
الوزراء مسئولين مسئولية حقيقية أمام مجلس الأمة ، الذي ستنظم طريقة انتخابه ،
و تقرر حقوقه »

لكن هذا المجلس الجديد لم يجتمع ، لأن إسماعيل خلع ، وكان من أسباب خلعه
أن الدول رأتة في آخر عهده يناصر الحركة القومية ، ويعضد الأحرار ، ويستجيب
لمطالبهم ، والدول وبخاصة إنجلترا تسخط على الحركة وعلى من يشجعها .

وبذلك يكون المجلس قد أنشئ في عهد إسماعيل سنة ١٨٧٩ ضعيف الحول محدود
السلطان ، ثم استوفى حوله وسلطانه سنة ٧٩ . والذي يقرأ دستور سنة ١٨٧٩ يجد طفرة
وشبهاً عظيماً في سعة السلطة بالمجلس النيابي الذي قام بمصر منذ سنة ١٩٢٣ .

لذلك قال بعض كتاب الإفرنج إن النظام الذي وضع له كان في غاية من الحكمة
والسماحة ، وإنه يصلح لأن يكون نموذجاً وقودة لعموم الأقطار بغير استثناء ، وإنه
لخلاق بأن يحسد العالم المتمدين مصر عليه (١) .

وجدير بالتنويه أن النواب في الفترة الأخيرة من عهد الخديو إسماعيل كانت لهم
مواقف مشرفة في رعايتهم لمصالح الأمة ، حتى لقد اضطروا بعض الوزارات إلى الاستقالة ،
وكان في الصدارة من هؤلاء المعارضين عبد السلام المويلحي الذي أطلق عليه ميرابو
مصر ، لأنه ألقى في وجه وزير الداخلية حينما أراد أن يفض المجلس بالكلمة المأثورة
عن ميرابو رجل الثورة الفرنسية (نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على أسنة
الرماح) . وقد كان ذلك في جلسة ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩

(٣) ومنذ اعتزت مصر بالحكم النيابي لم تغفل عن الاستمسالك به ، فقبيل الثورة

(١) تاريخ مصر في عصر الخديو إسماعيل ٨/١ — ٧٣ الأيوبي وحقائق الأخبار عن دول البحار

العرايية طلب الضباط إنشاء مجلس نيابي يخول تقرير الميزانية ، والرقابة على الوزارة^(١). ثم نجح عرابي في إرغام الخديو توفيق على تنحية رياض باشا عن الوزارة ، فتولاها شريف باشا ثالث مرة ، وقدم إليه الأعيان طلباً بإنشاء مجلس النواب . وقد حقق مطلبهم ، لأنه كان مقتنعاً قبل الثورة بحاجة مصر إلى حكم نيابي .

وفي ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ افتتح المجلس ، ووضعت وزارة شريف دستورا جديدا^(٢) ، وعرضته على المجلس في يناير سنة ١٨٨٢ م وكان مقتبسا من الدستور الذي وضعه شريف سنة ١٨٧٩ في آخر عهد إسماعيل ، وحال التدخل الأوروبي دون تنفيذه . وقد جهر شريف في خطبته بالمجلس بأنه يعلم منذ ثلاث سنوات أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من مأزقها هي توسيع نطاق الشورى ، واشتراك النواب مع الحكومة في دراسة الأمور المهمة النافعة^(٣)

لكن تدخل إنجلترا وفرنسا عوّق هذا الدستور أيضا بعد أن ناقشه المجلس ، وانتهى منه في ١٨ يناير سنة ١٨٨٢ ، فاضطر شريف إلى الاستقالة ، وسجل في استقالته أنه لا يستطيع في مثل هذه الأحوال أن يحكم حكما دستوريا^(٤) .

وخلفه محمود سامي البارودي في رئاسة الوزارة ، وكان عرابي فيها وزيرا للجهادية والبحرية . فكان طبيعيا أن تستمسك الوزارة بالدستور ، لأن عرابي في طبيعة الملحين في طلبه ، ولأن البارودي من أنصار الحرية والدستور . يقول عرابي عن البارودي في مذكراته وهو يتحدث عن مكيدة دبرت له ولزميلين من زملائه سنة ١٨٧٩ في آخر عهد إسماعيل : « وكذلك طلبنا مأمور الضبطية محمود سامي باشا البارودي وأخبرنا بما أخبرنا به عبد القادر باشا حلمي ... وقد آمنت فيه تأفقا من الظلم والاستبداد ، وميلا إلى العدل والدستور^(٥) . » ويقول عنه أيضا : « وفي أوئل شهر يناير سنة ١٨٨٢ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامي ناظر الجهادية فأطنب في الشئ على لقيامي بنشر راية الحرية

(١) الثورة العرابية ١١٣ الرافعي (٢) تقرر فيه مسئولية الوزارة أمام المجلس ، وحق

المجلس في تقرير الميزانية ، ومراقبة أعمال الحكومة ، وموافقة على الضرائب والقوانين قبل إصدارها

(٣) مذكرات عرابي ١٠٨/١

(٤) عصر إسماعيل ٢٣٧/٢ — ٢٦٣ الرافعي (٥) مذكرات عرابي ٤١/١

في مصر وملحقاتها من بعد مضي خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون في قيود الاستبداد ، ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحي بحياته ويجود بأخير نقطة من دمه في تنفيذ رغبتى^(١) .

في هذه الوزارة نقح الدستور الذي وضعه شريف ، في فبراير سنة ١٨٢ ، ووقع الخديو المرسوم ، وعرضه على مجلس النواب القائم فأقره بالإجماع . وأقيمت في البلاد حفلات الابتهاج ، وعارضت إنجلترا وفرنسا كما عارضتا من قبل ، فلما لم تجد المعارضة بدأت مؤامرات إنجلترا تبرز سافرة ، وبدأت أحداث الثورة العراقية^(٢) .

(٤) ولما نسكت مصر بالاحتلال ألغى دستور مصر ومجلس نوابها ، وعهد إلى لورد دوفرين أن يضع مشروعاً جديداً لنظام نيابي يكون ستارا يوارى مساوىء الحكم المطلق ، ومساوى الاحتلال ، وتمنح تفكير اللورد عن مجلسين : أحدهما مجلس شورى القوانين^(٣) ، والآخر الجمعية العمومية^(٤) ورأيهما استشارى وجلساتهما سرية (من سنة ١٨٨٣ إلى ٢ مارس سنة ١٩٠٩ ثم صارت علنية)^(٥) . وهما في الحق — كما قال المستر لا بوشير — صورة كاذبة للحكم الدستوري ، أجيد رسمها^(٦) .

وفي سنة ١٩١٣ حلت الجمعية التشريعية محلها^(٧) ، على أن اختصاصها لم يزد إلا قليلاً على ما كان لمجلس الشورى ، وقد نشبت الحرب الكبرى بعد الدورة الأولى للجمعية التشريعية ، فأجلت إلى أجل غير مسمى ، وأعلنت الأحكام العرفية في مصر ، وصار الحكم لا يستند إلى هيئة نيابية .

(٥) لم ينتدع المصريون بهذه النظم التي أراد الاحتلال أن يلهمهم بها ، فكانوا

(١) مذكرات عرابي ١٠٠/١ (٢) مذكرات عرابي ١٢١/١ — ١٣٦

(٣) يتألف من ٣٠ عضواً تعين الحكومة منهم ١٤ وتنتخب مجالس المديرية ١٦ . وليس له الحق في إجازة أى قانون ، لأن عمله مقصور على إبداء رأيه فيما تعرضه عليه الحكومة من المشروعات القانونية

(٤) تتألف من ٨٢ عضواً ينتخب منهم ٤٦ بطريقة ضيقة والباقي هم النظار وأعضاء مجلس الشورى . وتختص بالنظر في الضرائب الجديدة قبل فرضها ، وتجتمع في كل عام مرة

(٥) محمد فريد ١٠٧ للرافعى (٦) تاريخ المسألة المصرية ٢٢٠

(٧) تاريخ العصر الحديث في مصر ٢٢٣ — ٢٢٥

يضعون من إشار مصالح الاحتلال على مصالحهم ، ومن هيمنة الإنجليز على شئونهم ، وكانت المقاومة ممثلة في سنة ١٨٩٣ في الخديو والوزارة والموظفين والنباتات النيابية . وكان مجلس الشورى ينتهز فرصة النظر في الميزانية كل عام فينتقد أعمال الحكومة ، ويطالب بالعناية بالتعليم والإصلاح العام ، ويحتج على نفقات جيش الاحتلال .

وفي ٤ مارس سنة ١٩٠٤ طالبت الجمعية العمومية بالدستور والحياة النيابية ، فحنق لورد كرومر حنقا شديداً ، وفي ديسمبر سنة ١٩٠٨ ضم مجلس الشورى صوته إلى الجمعية العمومية فقرر بإجماع الآراء طلب الحكم النيابي . ومن مفاخر الجمعية العمومية أنها رفضت في سنة ١٩١٠ مد امتياز قناة السويس .

ولقد نشطت الدعوة إلى الدستور أيام الخديو عباس ، وكان الخديو يشجع الدعوة كما شجعها من قبله إسماعيل .

والباعث واحد ، فإسماعيل يضيق بالرقابة الأوروبية على خزانة مصر ، ويريد أن يتحمل من هذه الرقابة ، ويسترد سلطانه على حكومته عن طريق مجلس النواب والوزارة الدستورية .

وعباس يضيق بعجرفة لورد كرومر وإشرافه الطاغى على شئون مصر الداخلية ، فهو يريد من الدستور والحكم النيابي أن يحد من هذا الطغيان الذي سلبه مظهر الحكم . (٦) ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر أن دعوة المصريين إلى الدستور لم تكن مجارة لإسماعيل أو عباس ، بل كانت دعوة وطنية خالصة ، لأن الذين دعوا إلى الدستور وجاهدوا في سبيله دعوا إليه والخديو يريده ، ودعوا إليه وهو لا يريده ، وهل كان الخديو توفيق راغبا في الدستور والحكم النيابي ؟ لقد كانت الدعوة إليه في عهده مجلبة وهو مبغض لها وللقائمين بها .

كذلك لما جنح الخديو عباس إلى سياسة الوفاق مع إنجلترا بعد عزل لورد كرومر ومقدم السير إلدون غورست سنة ١٩٠٧ لم يفتّر دعاة الدستور عن المطالبة به ، بل ازدادوا حماسة بعد سنة ١٩٠٤ التي حدث فيها الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا على التراضي في المسألة المصرية والمرآكشية « وكان هذا الاتفاق الذي قصدوا به إطفاء جذوة الحمية الوطنية ، وتخيب رجاء المصريين في مساعدة الدول الأوروبية باعثاً قوياً

من بواعث النشاط واليقظة في عقيدة المصريين ، وبدايةً لاجتماع الآراء العامة على رأى واحد وتسديد الخطأ إلى غاية واحدة ،^(١) . وقد رأينا شعراء مصر يهشون للدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، ويجهرون بأنهم يريدون لمصر دستوراً مثله^(٢) .

(٧) ولا شك أن المطالبة بالدستور ، وأن معارضة الاحتلال ، ومكافحة الاستبداد قد قويت منذ توليها «مصطفى كامل» ، فقد أسس الحزب الوطني ، وأقامه على المطالبة بالجلال بالدستور . وله في هذا جولات وصيحات مدويات . فقد كتبت في (اللواء) في ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ مقالا بعنوان (الحكومة والأمة في مصر) ذكر فيه وعد لورد دوفرين باسم حكومته أن يؤسس في مصر مجلس نيابي ، وتندد باختلاف الحكومة البريطانية وعددها كما أخلفت وعود جلائها ، ودعا إلى الدستور في خطبته في العيد المئوي لمحمد علي يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ وبما قاله : « أين ذلك الدستور الذي يلجم الحكومة بلجام من حديد ، ويهب الأمة حرية الرأي والفكر ، وحق المراقبة لأعمال الحكام ، وسن القوانين والشرائع ، ومناقشة الوزارة في الصغائر والكبائر ... لعمرى إن ما يسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور هو الفوضى في لباس النظام ، والاختلال في قالب الاختلال ، وإلا فأين الطمأنينة التي تطمئن لها القلوب والخواطر ؟ أين مجلس النواب المصري الذي يقف في وجه كل طامع ، ويرد كل ظالم ؟ أين ذلك المجلس الذي وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دوفرين ؟ » .

وكرر هذه الصيحات في مقالات باللواء^(٣) .

ولما حمل بعده محمد فريد راية الجهاد دأب على المطالبة بالدستور والحكم النيابي ، من ذلك قوله في خطبة بالمؤتمر الوطني (الجمعية العمومية السنوية للحزب الوطني) في ٧ يناير سنة ١٩١٠ : « الجناب العالي الخديوي موجود الآن بالمدينة المنورة ، بجوار قبر أشرف الكائنات ، وغداً تذكّر توليته على الأريكة الخديوية ، لذلك أقترح عليكم إرسال تلغراف إلى سموه لتنهئته بعيده الميمون ، وللتوسل إليه بالمصطفى

(١) سعد زغلول ١٤٠ القناد (٢) راجع (ضحا الوطنية)

(٣) ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ و ٩ مارس سنة ١٩٠٤

أن يرد إلينا الدستور ، ليكون ذلك أحسن أثر لقيامه بفريضة الحج المبرور ، تحفظه له الأمة ويذكّره له التاريخ مدى الدهور^(١) .

(٨) ثم أعلنت الحماية سنة ١٩١٤ فثارت الأمة ثورتها الكبرى سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ، لأسباب أهمها إعلان الحماية ، والسيطرة على مشروع الدستور الذي وضعه السير ولیم برويات سنة ١٩١٨ لأنه يرمي إلى إنشاء برلمان مصري أكثره من الأجانب ، كأن مصر مستعمرة بريطانية يتولى سلطة التشريع فيها شرذمة من الدخلاء .

وكان الشعب قد أفاق كله ، وتطلع إلى حياة أرقى ، واستفاد ازدياده سعد زغلول . فلما حاولت القوة أن تصده وترده زار وثار ، وجاهد وناضل ، وبذل الدماء والأرواح يشرى بها حريته واستقلاله ، ودستوره وكرامته . ولم تجد إنجلترا بداً من أن تستجيب لرئيس الوزارة عبد الخالق ثروت فأعلنت من جانبها تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، تعترف فيه باستقلال مصر مقيداً بشروط . ومنذ ذلك الوقت صارت مصر ملكية دستورية ، ونص في دستورها الصادر في ١٩ إبريل سنة ١٩٢٣ على أن الأمة مصدر السلطات .

لماذا تعلق شوقي بالدستور ؟

نشأ شوقي في هذا العصر الحافل بالأحداث ، الزاخر بالعاطفة الوطنية ، المجلجل بالمطالبة بالدستور والحياة النيابية . وأسى كما أسى الأسرار والمثقفون ، لأن الاحتلال سلب مصر ما كانت قد كسبت ، وهدم صرحها النيابي الذي سمكته^(٢) ثم عاد بها القهقري إلى ظلمات الحكم المطلق . وهو قد درس في مصر طرفاً من القانون بـدراسة الحقوق قبل أن يتحول إلى قسم الترجمة ، ثم بعثه الخديو توفيق إلى فرنسا ليدرس القانون ، فأتمها . وزار إنجلترا ، وقضى بها عطلة دراسية^(٣) .

وما من شك في أنه وقف على آراء علماء القانون والاجتماع والسياسة في خير نظم الحكم ، وتأثر بأرائهم في إظهار الحكم الدستوري .

(١) محمد فريد ١٢٦٧ لرائع

(٢) مقدمة الشوقيات بقلم شوقي . الطبعة القديمة ١٦ - ١٩

على أنه شاهد في السنوات الخمس التي قضاها هناك صولة الدستور، وفجئ الشورى
وسلطان الشعب، فطمع إلى ما طمع إليه غيره من المصريين الذين درسوا في أوروبا
كرفاعة الطهطاوى: أن يكون لمصر دستور، وأن يصرف الشعب أموره بنفسه،
وأن ينبج عن سماء الوطن قتام الحكم المطلق.

وشوقى كان مولعا بتاريخ الإسلام، وتمجيد مفاخره، ويعلم أن الشورى دعامة
الحكم الإسلامى، فطبع أن يسترجع ذلك الماضى، إلى ما يتجدد أمامه فى حاضر
الشعوب الراقية، فلا يجد مندوحة من الميل إلى الشورى، والدعوة إليها،
والاستمسك بها.

ثم كانت صلاته بزعماء الشعب مؤثرة لهذا الميل، فقد كان على صلة وثيقة،
وصداقة وطيدة بمصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم.

كان ذلك وشوقى فى ريعان شبابه، وهو شاعر الخديو تقيده الوظيفة، وتحد
من جريانه فى الثورة على الحكم المطلق
فلما نشبت الحرب الكبرى نفى، ثم ألقى الله على العالم أمله، وعاد شوقى إلى مصر
بغرد بالمجد، ويرجع بالدعوة إلى الدستور فى مناسبات شتى فى عهد الملك فؤاد.

آراؤه الدستورية

شوقى فى دعواته إلى الدستور حر يصور عواطف الشعب آنأ، ويرشده آنأ،
لا تلجمه وظيفة، ولا تثنيه رهبة، فقد أفاق الشعب واستقاد لزعمه سعد، وثار ثورته
الفتية يسترد بها حريته وعزته، وشوقى مغتبط بهذه الهبة، يحدو للسائرين أو الطائرين
إلى مثلهم العالية.

ولم يحاره شاعر فى حماسة دعوته، ولا فى تكرار صيحته، ولا فى بلاغة جرأته.
ولم يدانه شاعر فى جلال الصور التى صور الدستور بها، أو فى مهارة الربط بين الفكرة
التي يدعو إليها والمناسبة التي يهتبلها.

ولعل فى هذا بلاغا لنقاده الذين زعموا أنه لا يمثل عصره، ولم يتحدث بلسان
الشعب، ولم يصور عواطف معاصريه وميولهم، وإن هم إلا واهمون أو ظالمون،

لأن شعره في الدستور والشورى وفضلهما وما يتصل بها كثير منوع العصور ، تجاشت به نفسه فنفس عنها ، وأزجته عاطفته فاستجاب لها . وإنما لعاطفته صداقة لا مجارة فيها ولا دين ، ولو أنه جارى لأقل فأشار في معرض أو معرضين ، لكنه طرق الدستور وحكم الشورى في مواضع شتى من ديوانه . وهو في بعضها يخلق المناسبة خلقا ، ليمجد الدستور وأثره ، وليس هذا شأن المجارى . وعاطفته مع صدقها حارة عالية الدرجة نبيلة تثير عواطفنا وإعجابنا .

وإن من يقدر الظروف التي تغنى فيها شوقي بالدستور ليجد حرجها ، ويحس أشواكها فكيف سيلم من معاطبها شوقي ؟ وكيف لبق فأرضى نفسه وعبر عن آمال الشعب ولم يجمع به قلبه أو كآبه ؟

الحق أنه كان يروض الألفاظ حتى لا تثير سخطا ، ويروى المعاني ويصطفها حتى لا يحس منها معارض بحفوة أو نبوة . وليس من السهولة أن تحبب إلى معارض ما يكره وأنت لم تشعره بغضاضة الرجعة ، أو لم توقظ في نفسه نوازع العناد . وهذه درجة عليّة من اللباقة والكياسة والحنافة مershوقي في التوصل بها إلى التعبير عما بنفسه منذ عهد عباس إلى عهد فؤاد .

(١) سقوطه على حكم الفرد

طالما ندّد بالحكم المطلق ، وأنحى على استبداد الفرد برأيه ، فهو يمجّد أحرار التفكير الذين تعالوا على مظالم المستبد وآثروا الهلاك على أن يكونوا إمّعات :

ذهب الذين حموا حقيقة علمهم	واستعذبوا فيها العذاب ويلا
في عالم صحب الحياة مقيدا	بالفرد مخزوما به مغلولا
صرعته دنيا المستبد كما هوت	من ضربة الشمس الرءوس ذهولا
سقراط أعطى الكأس وهي منية	شفتى حب يشتهى التقييلا
عرضوا الحياة عليه وهي غباوة	فأبى وآثر أن يموت نبلا

إن الشهادة في القلوب حكيمة ووجدتُ شجسان العفول قليلاً^(١)
وهو معجب بالانقلاب التركي أيام مصطفى كمال لأنه خلص الأتراك من جبروت
الفرد :

قد أباحوا دمَ آسارِ الشرى فازدراهم وجرى يحسى العرين^(٢)
سال دونك الملك حتى انتاشه من إمام السوء والرهط الميهين^(٣)
حقّ الله رد وألغى حكمه إن حكم الفرد مرذول لعين
ويخاطب أم الحسين والدة الخديو عباس : وقد عادت من تركيا — شيئاً على
الكاملين الأحرار الذين قوضوا عهد الظلم ربوا عهد التحرر :

قد تركت الترك في آجامهم طلقاءً بعد رِقِّ ظافرين
أخذوا دولتهم من دمهم بذلوا الغالي فأبوا بالثمين
لم يؤمنهم ولم يتحد بهم أن يكونوا عشرات أو مئين
بسطوا الأيدي إلى ميثاقهم وإلى الموت عليه متسمين
وتحدوا هازئاً ينعمهم — بالخيسالين أو باطسازتين^(٤)

ولا يرضيه من الحكم النيابي مظهره وحده ، لأنه يريد من النواب حرية الرأي
وحرية القول ، وصمد الفرد المستبد أيا كان . لذلك ندد بالمجلس النيابي في تركيا إذ وجدته
كرة يقذفها مصطفى كمال أتت شاه ، وعاق على ذلك بأن الفرد إذا سيطر على مجلس النواب
صاغ من الأحرار عبيداً ، وجعل من رئيسه مخدراً للأعضاء يحرّكهم وهم رقود ؛
وإذا سبى الفرد المسلط مجلساً ألغيت أحرار الرجال عبيداً

(١) الشوقيات ٢٢٥/١

(٢) الشرى : مأساة جانب انفرات يضرب المثل بأسادها ، والمراد الكاليون .

(٣) انتاشه : تناوله وأخرجه . إمام السوء : السلطان وحيد الدين .

(٤) الشوقيات ٣٢٢/٢

ورأيت في صدر الندى منوماً في عُصبة يتحركون دقوداً^(١)
ويتفجع على الخلافة العثمانية ، ويعزو سقوطها إلى ثورات الشعب وإلى استبداد
الفرد ، ثم ينصح ألا يترك الفرد يستأثر بالحكم سواء أكان ملكاً أم غير ملك ،
لأن الشورى دعامة الحكم الصالح :

خلت القرون وأنت حرب بمالك لم يُغفرِ ضدك أو يتم شأنك^(٢)
يرميـك بالأمم الزمان وتارة بالفرد واستبداده يرميـك
فُضِي نيوب الفرد ثم خذي به في أي ثوبٍ — به به جاءوك
لا فرق بين مسلط متزوج ومسلط في غير ثوب ملك
إني أرى الشورى التي اعتصموا بها هي أحبل ربك أو زمام نبيك^(٣)
وعلى الرغم من حبه للسلطان عبد الحميد ، وأسفه لخلعه ، فإنه يلومه على أنه
لم يُخلص للدستور الذي أصدره ، ويقول إن الدستور زينة المَلِك العاقل وعصمة
المَلِك الطائش ، وهو الوسيلة إلى أن يتعلق به شعبه :

صبروا لدولتك السنين وما صبرت سوى شهور
أوذيت من دستورهم وحننت للحكم العسير
ضنوا بضائع حقهم وضننت بالدنيا الفرور
هلا احتفظت به احتفا ظ مرحب فـرح قرير
هو حلية المَلِك الرشيد وعصمة المَلِك الغرير
وبه يُبارك في المما لك والملوك على الدهور^(٤)

وفي رأيه أن أفسد أنواع الحكم أن يسوس الشعب فرد :
شر الحكومة أن يساس بواحد في المَلِك أقوام عداد رماله^(٥)

(٢) لم يغفر : لم يتم . شأنك : عدوك
(٤) الشوقيات ١/١٣٩ (٥) الشوقيات ١/٢٠٥

(١) الشوقيات ١/١٢٨

(٣) الشوقيات ١/٢٠٢

والفرد المستبد لعين ، والذين يخضعون له يحددون نعمة الحرية والإنسانية والكرامة ، وهم متنافرون متخالفون وإن عاشوا في الزمن الحديث :

إن الزمان وأهله فرغا من الفرد اللعين
فاذا رأيت مشايخا أو فنية لك ساجدين
لاق الزمان تجدهم عن ركبته متخلفين
هم في الأواخر مولدا وعقولهم في الأولين^(١)

لذلك طرب شوقي لأن مصر بلغت رشدها ، وأثبتت بصحتها لها لنيل الدستور رشدها ، وبعت للبرلمان دعاتها وجندها ، وحشدت للاحتفال به حشدها ، ودعا الله أن يملا بالبيان النبوغ نهدها ، وأن يمكّن لها من الحرية حتى لا يعود إليها حكم الفرد : مصر الفتاة بلغت أشدها وأثبت الدم الزكي رشدها

يا رب قو يدها وشدها وافتح لها السبل ولا تسدها
واملا بالبيان النبوغ نهدها ولا تدعها تحي مستقبلها
وتنتحيت براحتها فردها^(٢)

(٢) دعوائه إلى الدستور

لقد تجلّى ميله إلى الدستور والحكم النيابي منذ كان شابا يدرس بأوروبا ، فإنه يقول للتخديوي توفيق في إحدى مدائحہ :

فليسقّ ببيتك وليدم ديوانه وليحي جندك ولتعش شوراكا^(٣)
ولم يفته وهو يشيد بالدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وبالسلاطان عبد الحميد الذي أصدره أن يطالب لمصر بدستور :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
ما بين آمالك اللائي ظفرت بها
حياك من يبعث الموتى ويحييها
وبين مصر ممان أنت تدريها^(٤)

(٢) الشوقيات ١٩٩/٢

(٤) الشوقيات ٣٦٢/١

(١) الشوقيات ١٢١/٢

(٣) الشوقيات ١٧٥/٤

ويمسح الخديو عباساً بميله إلى الشورى .

تضيء به شورى المرائى التى زكت وتشرق أركان الفضاء الذى برأ
وتمرح فى أيامه النفس حرة تناو لها قشبا وتلبسها خضر^(١)
وفى تهنئته للخديو عباس — لما عاد من تركيا فى عهد الخليفة محمد رشاد يمدحه
بأنه ميال إلى الحكم الشورى ، وبأنه يتدرج بمصر فى نظام هذا الحكم :

عروس الشرق مصر ولا أبالى لقد شبت وما بلغ الرضا
أخذت بشورى الحكم فيها وما تألو منهاججه أتباعا
تدرجها على ذل سماح من الأحكام سنا واشترعا^(٢)

وانتهز الفرصة لما أعلن رأيه فى مشروع ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، فخاطب الملك فؤادا
ناصحاً له أن يوطد ملكه على دعائم من العلم والأدب والعدل والنظام الدستورى .
إن سرك الملك تبنيه على أسس فاستنهض البانين العلم والأدب
وارفع له من جبال الحق قاعدة ومد من سبب الشورى له طنباً^(٣)

(٢) إشارته بالدستور وبأثره

هلل شوقى بالدستور العثماني واحتفى به ، وقصر عليه قصيدة كاملة إثر صدوره
عام ١٩٠٨ زف فى بعضها البشرى إلى الترك وإلى الخاضعين لهم ، ولعله استشف
أن الدستور سينتظم مصر وغيرها ، بل هو قد ذكر للسلطان أن مصر أيضاً تتوق
إلى الدستور . وفى رأيه أن الخلافة كانت تعاني الضعف ، وتقاسى الانحلال ، فجاء
الدستور سياجاً لها وقوة وعلاجاً ، وكانت متداعية الأركان فخطت بالشورى
والبرلمان .

وهذا الدستور الذى أصدره السلطان عبد الحميد نعمة على الشعب جليلة كجلال
السلطان ، صافية الحواشى ، إذ لم تُرق لها دماء أو تلابسها ثورة ، ومن عجب أن يرغب
الناس عن الشورى وقد شرعها الله ، وأوصى بها نبيه .

(١) الشوقيات القديمة ٨٤ (٢) الشوقيات ١/١٨٤ تدرجها : تسمى بها تدريجياً . ذل : سهلة

(٣) الشوقيات ١/٧٣

وحشياً نظرت رأيت سمات الفرح ، فإن الشعب الصديان إلى الدستور
والحكم النيابي ينقح اليوم بالشورى صداه ، وكل فرد في الأمة يشعر بالحرية والعظمة
والجاء ، لأن له في سياسة الوطن رأياً وصوتاً :

بشرى البرية قاصيها ودانيها	حاط الخلافة بالدستور حاميا
لما رآها بلا ركن تداركها	بعد الخليفة بالشورى وناديا
أسدى إلينا أمير المؤمنين يدا	جلت كما جل في الأملاك مستيا
بيضاء ما شابهها للأبرياء دم	ولا تصكدر بالآثام صافيا
وإنما هي شورى الله جاء بها	كتابه الحق يعليها ويغليها
أما ترى الملك في عرس وفي فرح	بدولة الرأى والشورى وأهليها ؟
لما استعد لها الأقوام جئت بها	كلما عند غليل النفس صاديا
ففضل لذاتك في أعناقنا ويد	عند الرعية من أسنى أياديها
خلافة الله جر الذيل حاضرها	بما منحت وهز العطف باديا
طارت قناها سرورا عن مراكرها	وألقت الغمد إعجابا مواضيا ^(١)

ولما تنكر السلطان عبد الحميد للدستور ، ودالت دولته تفجع عليه شوقي ولامه ،
وختم قصيدته بتهنئة السلطان محمد رشاد الخامس الذى بعث الدستور المؤود :

بشرى الإمام محمد	بخلافة الله القدير
بشرى الخلافة بالإمام	م العادل النزه الجدير
الباعث الدستور فى ال	إسلام من حفر القبور
أودى مع — أويته به	وبعثته قـبـل النشور
فعلى الخلافة منك	نور تاللاً فوق نور ^(٢)

ومدح الخليفة محمد رشاد الخامس بأنه حر سمح أسعد شعبه بحكمه الدستورى ،
لذلك تعلق شعبه به على اختلاف الأديان ، فأحبه المسلمون والنصارى واليهود

(١) الشوقيات ٣٥٨/١

(٢) الشوقيات ١٤١/١ يريد معاوية السلطان عبد الحميد لأن معاوية حكم حكماً فردياً .

والدروز ، ووجدوا في عهده مثيلا لعهد الراشدين ، لأنه عهد من دان بالشورى :
 حر وأنت الحر في تاريخه سمح وأنت السمح في أقباله

.....

يجدون دولتك التي سعدوا بها من رحمة المولى ومن أفضاله
 جددت عهد الراشدين بسيرة نسج (الرشاد) لها على منواله
 بسنت على الشورى كصالح حكمهم وعلى حياة الرأى واستقلاله

.....

مكنت للدستور فيه وحزقه تاجا لوجهك فوق تاج جلاله (١)
 ثم ازدفت التهمة لتركيا بحكم الخليفة ، الذي جعل الدستور عهده :
 تيمى بعهد في الممالك واسلمى في السلم للآلاف من أمثاله
 واستقبل عهده الرشاد بمجلا بمحاسن الدستور في استهلاله (٢)

افتتح البرلمان المصرى الأول في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ ، وكانت اشوقى قصيدة
 قبيل افتتاحه في حفل بنادى المعلمين ، فبلى بالبرلمان وبالدستور ، فصور يوم الافتتاح
 غرة في تاريخ مصر ، وعيدا من أعيادها ، لأن المصريين سيتفشيون بظلال الدستور
 ويسعدون ، وبارك جهود المجاهدين التي أثمرت هذه الثمرة الحلوة ، وحشهم على العمل
 لخير مصر جنودا مجهولين لا يفخرون بما يعملون ولا يكاثرون بما قدموا من خير ،
 ودعاهم إلى تقدير الشهداء :

مصر إذا ما راجعت أيامها لم تلقَ للسبت العظيم مثيلا
 البرلمان غدا يمد رواقه ظلا على الوادى السعيد ظليلا
 قل للشباب اليوم بورك غرسكم دنت القطوف وذلت تدليلا
 حيوا من الشباب كل مغيب وضعوا على أحجاره إكليلا
 ليكون حظ الحى من شكرانكم جما وحظ الميت منه جزيلا

لا يلبس الدستور فيكم روحه حتى يرى جنديته الجبهولا^(١)

وهو يشيد بيوم آخر من أيام افتتاح البرلمان ، ويصفقه بأن ليلة عرس وضيافته ولائم ، ويصور الشعب مبكراً يزدحم في الطرقات ليشهد الاحتفال ، وبأن الدور كانت خاصة بالمتفرجين المهملين المستبشرين . وإن موكب يوم الخميس الجليل يرويه الزمان ، ولم لا وقد أقبل بالدستور زاهرا أبلج ؟

ثم ينتقل إلى الإشادة بسعد زغلول حارس الدستور في مهده يعاونه الشيوخ والفتية ، ويشبه الدستور الوليد بعيسى ، ويشبه سعدا حاميه بيوسف النجار .

ثم يثنى على الملك فؤاد ليطمئن إلى إبقائه على الدستور ، فيصور تاجه جميلا جليلا لأن الدستور وضيوة يوم الخميس حلاه ، وهذا التاج أجل من الغار الذي يتوج رؤوس الفاتحين :

يومَ الخميس وراء فرك للهدى	صبح وللحق المبهين نهار
ما أنت إلا فارسي . ليلته	عرس وصدر نهاره إعذار ^(٢)
بكرت تراحم مهر جانك أمة	وتلفقت خلف الزحام ديار
وروى مواكبك الزمان لأهله	وتنقلت بحبالها الأخبار
أقبلت بالدستور أبلج زاهرا	يفتن في قسّماته النظار
وذؤابة الدنيا ترّف حدائنه	عن جانبيه وللزمان عذار
يحمي لفائفه ويحرس مهده	شيخ يندود وفتية أنصار
وكأنه عيسى الهدى في مهده	وكان سعدا يوسف النجار
التاج فصل في سمائك بالضحّا	منك الحلي ومن الضحّا الأنوار
يكسو من الدستور هامة ربه	ماليس يكسو الفاتحين الغار
بالحق يفتح كل هاد مصاح	ماليس يفتح بالقنا المغوار ^(٣)

(٢) الإعذار : طعام الزفاف أو الاحتفال .

(١) الشوقيات ٢٢٧/١

(٣) الشوقيات ٢٠٧/٢

وأية علاقة بين توت عنخ آمون والدستور ؟

قد تكون الجمع بين نقيضين : قديم مغرق في القدم يبعث الدهش والتعجب ، وحديث طريف تمت إليه النهضة بسبب . وقد تكون مفاجأة توت عنخ بأروع ما وجد في مصر بعد تلك الحقب ، وقد تكون غير ذلك .

لكنها على أى حال ليست بالعلاقة القوية التى تتداعى لها المعانى وتتوافى الخواطر .

فلم يبق إلا أنها نزعة أصيلة فى نفس شوقى إلى الدستور ، يتلمس للتصريح بها معارض القول ، فيشيد بفضل الدستور فى هداية الأمم وحياتها .

يحدث شوقى توت عنخ آمون فى شماعة بدثور حكم الفرد ، وغبور عهد الظلم . ويفخر عليه بأنه فى عصر الشورى والحرية وسلطان رأى العام على الرعاة والحكام ، وكأنما هجس فى نفسه أن الملك القديم يجد فى خضوع الملوك لشعوبهم غضاضة أو انتقاصا من سلطتهم وأهبتهم ، فبدره بأن الملك فؤادا أجلا منه فى قلوب شعبه المتمتع بالدستور . والراجع أنه كان يخشى أن يتنكر الملك للدستور ، فلواه عن التنكر بلباقة إذ جعله بالدستور أعز شأنا وأعلى مكانا .

وكانما وازن شوقى مجد مصر فى عهد توت عنخ آمون واتساع ملكها ، ومناعتها وبأسها ، بحالها فى عهد فؤاد ، فرجح الدستور وحده ذلك المجد ، وإنه لشرف عظيم له أن يرجح عند الموازنة ، وشرف للملك فؤاد أن يفوق فى المفاضلة والمقارنة .

وأرجح أنه كان يبتغى من هذه الموازنة أن يمكن للدستور فى قلب الملك ، لأنه كان أجنح إلى الحكم المطلق ، وأرغب عن الحكم الدستورى .

ثم انتقل إلى أثر الدستور فى إعزاز الرعاة والرعية ، فبين فى نخامة وضخامة وجلال أن قوة الملوك وسلطانهم وحبهم إنما يكفلها الحكم النيابى وحده لهم ، وأنه لا استقلال لمصر مالم يصنه الدستور وحكم الشورى ، لأنه يجمع رواد الأمة وزعماءها فى ناد واحد ، يتحاجون ويقترحون ويراقبون ، وإذا لم يضمهم مجلس النواب فقلوبهم شتى ، تجدد الحوادث وهم لاهون . وأمور مصر فوضى وإن وليها الخلفاء الراشدون .

فلا عاصم لمصر إلا دستورها ، تصالح به ما فسد من أمورها .
 وإن شوقى لصنع بارع الحيلة في مطالبة الملك فؤاد بالتعجيل به ، وفي بيان آثاره
 وفضائله ، فهو النور يهدي الضالين ، والمصباح يستضيء به المصلحون ، فيبعثون من
 الكهوف الجهال الغافلين الذين يعدون بالملايين ، يرسفون في قيودهم ، وينقادون
 لأفراد يحكمونهم طاغين . وليس مثله في علاج هؤلاء الزماني إلا معجزة عيسى ،
 فنوره سيشع على السُمى الجهلة فيبصرون ويعلمون ، ويده الرقيقة القوية ستحطم
 قيود المتخلفين فينهضون ويعدّون ، وإنه للحق والعدل والدواء الوحيد لأدواء مصر .
 ها هنا جلال الفكرة ، وجلال الأداء ، وتأثير الشعر ، وطرافة التصوير ، وها هنا
 قلب الشعب يخفق ، ولسانه ينطق ، ويده تصفق ، ومن أولى من شوقى بذلك كله ؟

زمان الفرد يا فرعون ولى	ودالت دولة المتجسبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض	على حكم البرية نازليننا
(فؤاد) أجبل بالدستور دنيا	وأشرف منك بالإسلام ديننا
بنى (الدار) التي لا عز إلا	على جنباتها للسالكينا
ولا استقلال إلا في ذراها	لمتبوع ولا للتابعينا
ترى الأحزاب ما لم يدخلوها	على جدّ الحوادث لاعبيننا
وإن فقدت فأمر القوم فوضى	وإن وليته أيدي (الراشدين)
إذا سارت به أيدي شمّالا	أتت أيدي فسرنا به يميننا
فعجل يا بن إسماعيل عجل	وهات النور واهد الحائرنا
هو المصباح فأنت به وأخرج	من الكهف السواد الغافليننا
ملايين تجر الجهل قيذا	وتسحب بالقليل المطلقينا
فداو به البصائر فهو عيسى	وفك براحتيه المقعدينا
ومن ير دونه حقاً فإني	أراه وحده الحق المبيننا ^(١)

(١) الشوقيات ١/٣٤٢ في ذراها : ملجئها وسندها . الراشدين : المراد الخلفاء الأربعة الأولون .

وشوقى حريص في إشاراتته بتوت عنخ آمون على المخيلة بالدستور ، لأنه في قصيدة أخرى (توت عنخ آمون) يعزى بالحكم النيابي ، وكفالاته بأن تسود مصر ، ويحكمها بنوها ، وكأنه يابح دعاوى خصوصيتها بأنها لم تبلغ بعد رشدها ، فليست صغيرة بالحكم النيابي ، فيرد عليهم في حماسة وثقة بالشعب وسلامة مقصده وجدانه بالدستور والبرلمان .

وتنطق آيياته بهيجته بافتتاح البرلمان يوم المهرجان ، وقد احتفى به الشعب من شيب وشبان وعقائل وفتيات ، وتهادى موكب الملك فؤاد على الرياح ، لأنه يقيم في دار الندوة بمصر ، ويوطد دعائم الشورى ، ويسوس بالدستور هذا الجيل السعيد ، ويتنازل عن سلطته للشعب :

وأثبت الدم الزكي رشدها	مصر الفتاة بلغت أشدها
وجربت إرخاءها وشدها	ولعبت على الحبال وحدها
وحشدت للمهرجان حشدها	وبعثت للبرلمان جندها
وأبرزت حكمائها وخودها ^(١)	حدت إليها شيوخها ومردّها
واستقبلت فؤادها ووفدها	ونثرت فوق الطريق وردّها
وان الذين قوموا بمقدّمها ^(٢)	مؤثّلها وحكمتها وردّها

.....

لمصر تبى في ذراها مجدها	حتى أتى الدار التي أعدها
وقلّل الجليل السعيد عهدّها	فثبتت الشورى وشدّ عقدّها

سلطته إلى بنينا ردها^(٣)

وعلى زهو شوقى بآثار مصر الفرعونية ، وإشاراتته بما خلف الفراعين من خاليدات ، وحفاوته بتوت عنخ آمون وحضارة عصره ، فإنه انتهى إحدى قصائده في توت عنخ آمون على عصره بحضور مصر المجيد بالدستور . وإنه ليزجى زهوه

(١) المرء : الشبان . السكاب : المراد الفتاة . الخود : الخيلة الناعمة

(٢) ردها : عمادها . مقدّمها : طريقها ومكانها

(٣) الشوقيات ١٩٩/٢

واثقاً من صدق مقالته ، فيخاطب توت عنخ آمون مقسماً بالله الذى يبعث الموتى أن إياه هذا لو كان من سفره أو فتحه ، أو بعثه من قبره حياً ، وأهل من وادى الملوك مكللاً رأسه بغار النصر ، فى موكب من مواكبه الحافلة الحاشدة ، لراى شعباً غير شعبه ، شعباً يصرف أموره نوابه ، وتهيمن على شئونه حكومة دستورية :

قسماً بمن يحيى العظام ولا أزيدك من يمين
لو كان من سفر إيا بك أمس أو فتح هبين
أو كان بعثك من ديب الروح أو نبض الوتين
وطلعت من وادى الملوك عليك غار الفاتحين
الخيال حولك فى الجلال العسجدية يثنين^(١)
وعلى نجادك هالة من القنا والدارعين
والجند يدفع فى ركابك بالملوك مصفين
لأيت جيلا غير جيلك بالجبابر لا يدين
ورأيت محكومين قد نصبوا وردوا الحاكمين
روح الزمان ونظمه وسبيله فى الآخرين^(٢)

وفى مناجاة أنى الهول يفاخر بأن مصر أرسلت وفدها إلى مؤتمر الصلح الذى عقد على إثر انتهاء الحرب الأولى سنة ١٩٢٠ ، تطالب بالاستقلال ، وتفخر بدستورها الذى كان لها قبل الاحتلال ، وتريد بعثه :

وأنا ركبنا غمار الأمم ر وأنا نزلنا إلى المؤتمر

.....

ولم تفتخر بأساطيلها ولكن بدستورها تفتخر^(٣)

وقد التفت فى قصيدة (الأزهر) التفاتة بارعة ، فقرن إصلاح الأزهر بإصدار

(١) الجلال : جمع جل وهو ما يوضع فوق الفرس تحت المخرج

(٢) الشوقيات ١٢٠ / ٢

(٣) الشوقيات ١٦٥ / ١

الدستور . أليس بإصلاح الأزهر يستقيم الدين والدنيا ، وبالدستور تنهض الأمة وتسلك طرقها إلى الرقي صعدا ؟ أليس الأزهر نثار مصر المسلمة والدستور شعار مصر الناهضة ؟ .

الله أكبر يا ابن إسماعيل لم تترك الصنّاع المآثر مفخرا
بالأمس تنهض مصر في دستورها واليوم تنهض للسماك الأزهر^(١)
وفي قصيدته (شهيد الحق) في ذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٤ دعا الملك فؤدا
إلى ضروب من الإصلاح ، ثم مدحه بأن الدستور عظم شأنه ورفع مقامه ، ورجاه
أن يعلم الدستور للشباب لتشرّبه قلوبهم ، أما الرعاع فإن الزمن كفيل بتعليمهم إياه :
وأنت أعز بالدستور شأننا وأرفع خلف هالته مقاما
فرّ بالنشء أن يتعلموه وخلّ الدهر يقرّئه الطغاما^(٢)
وكثيراً ما خايل شوقي بالدستور وبالبرلمان ، لأن البرلمان صرح الحق ومشرق
النور وسيّاج العدل ، يشبه في جلاله وتقدير الشعب له البيت العتيق ، وكأن شرفاته
أروقة من الضحى ، وكأن جذرانه عمد من الصباح .

وهو حصن الحق ، تحتمى به حقوق الشعب وتقوى ، ويراقب النواب الحكام
ويرشدونهم إلى خير الوطن . وهو حصن الحرية وهيكلها ، طالما بذل الشعب الدماء
والضحايا ليناله ، ثم شيده في معمة الجهاد ، كما يحفر المحاربون الخنادق والحرب دائرة ،
تحت النبال المنهالة

وكأنما لم يقنع شوقي بتشيمه البرلمان بالبيت العتيق ، وبهيكل الحرية فذهب يزيده
جلالا بتصوير آخر ، أن الاستبداد ينهار في البرلمان مثلها انهار الشرك واندكت
الأصنام في مكة ، وأنه يكب الملك الطاغية ، والفئة الباغية ، ويقوض معالم الاستبداد .
وكاد لا يفتأ يذكر بأن مصر نالت دستورها وبرلمانها بجهادها وشهادتها ، فهي
قد بنت برلمانها بجهاد بنيتها العزل الذين ناهضوا الاحتلال والاستبداد بأكفهم ،

واستشهد بعضهم في جهاده فبنوا البرلمان بأرواحهم . ولم تنل مصر دستورها ورلمانها على هيئة ، ولم يُقدّم لها هبة ، وإنما نالته بتضحيات جعلت بعض أيامها سوداً ، وبعض لياليها وأيامها حمراً من دماء قتلاها . وقد اشترك شبابها وشيوخها في هذا الجهاد ، ومشوا إلى الدارين عزلاً .

باللظمة ١ إن البطولة في الدفاع عن الحق هي الوسيلة للفوز ، وإن الشعب الذي يشهد مسكاً وطيداً لا مندوحة له من أن يقيم الجدران بشهادته وضحاياه ، ولا بد له من أتراح تعقبها أفراح .

صرح على الوادى المبارك ضاحي	متظاهراً بالأعلام والأوضاع ^(١)
ضافي الجمالة كالعتيق مفصل	ساحات فضل في رحاب سماح ^(٢)
وكان رفرفه رواق من ضوا	وكان حائطه عمود صبايح
الحق خلف جناح استدرى به	ومرشد السلطان خلف جناح ^(٣)
هو ميكال الحرة القسياني له	ما للهياكل من فدى وأضاح ^(٤)
يلبى كما تبلى الخساق في الوغى	تحت النبال وصوبها السحاح ^(٥)
ينهار الاستبداد حول عراضه	مثل انهيار الشرك حول (صلاح) ^(٦)
ويكتب طلائعوت الأمور لوجهه	متعظم الأضنام والأشباح
هو ما بنى الأعزال بالراحات أو	هو ما بنى الشهداء بالأرواح
أخذته مصر بكل يوم قائم	ورد السكواكب أحر الإصباح
هبت سماحا بالخير لـ	والشيب بالآرماق غير إشباح
ومشت إلى الخيل الدوارع وانبرت	للظافر الشاكي بغير سلاح
وقنات حق لم تقفها أم	إلا اثنت آمالها بنج

(١) الأوضاح : جمع وضع : وهو بياض الصبح وهو أيضاً حل من الفضة
(٢) العتيق : البيت الحرام
(٣) استدرى به : انتصم (٤) أضاح جمع أضحية
(٥) صوبها السحاح : نزولها المنهمر (٦) صلاح : مكة

وإذا الشعوب بنوا حقيقة ملكهم جعلوا المآثم حائط الأفراس^(١) وبعد . فقد كرر شوقي أن الدستور منجاة من الاستبداد ، وأنه يحقق الديموقراطية الصحيحة بين الشعب ، فيجنى كل مجد ثمار جهده . وإذا كان قد أشار في بعض شعره إلى أن الملك قد منح شعبه الدستور فإنه يذكر هنا في صراحة أن مصر لم تنل دستوراً عفواً ، أو يوهب لها هبة ، وإنما نالته بجهادها ودمائها ، فقد جالد رجالها بسلاحهم في الثورة العراقية الخديو توفيق وأنصاره الإنجليز ، ثم جاهد أبناؤها في ثورة سنة ١٩١٩ وباعوا دماءهم وأرواحهم ليشتروا حريتهم .

فالدستور يقوم على دعامين : إحداهما ضحايا النضال في التل الكبير ، والآخرى شهداء الصيال في ثورة سنة ١٩١٩ :

الحق أبلج والكنانة حرة	والعز للدستور والإكبار
الأمر شورى لا يعيث مسلط	فيه ولا يطفئ به جبار
عهد من الشورى الظلمة نضرت	آصاله واخضلت الأسمار
تجنى البلاد به ثمار جهودها	ولكل جهد في الحياة ثمار
بنيان آباء مشوا بسلاحهم	وبنن لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التل المدرج حائط	ومن المشائق والسجون جدار ^(٢)

استبان مما سبق أن شوقي كان عظيم الحفاوة بالدستور ، وأنه كان ينتهز الفرص للإشادة به ، والدعوة إلى صيانه . ولم ينس الدستور وهو يرى الذين لهم صلة بالدستور ، ففي رثاء أبي هيف يقول لسعد :

أخرج لأبناء الحضارة مجلساً يسبق على اسمك في العصور ثناء^(٣)
وفي رثاء سعد يشيد بقيادته الثورة التي ظفرت بالدستور :
ولد الثورة سعد حرة بحياتي ما جد حرة نأها

.....

(١) الشوقيات ٢/١٩٠

(٢) الشوقيات ٣/١١

(٣) الشوقيات ٢/٢٦

بارك الله لها في فرعها وقضى الخير لمصر في جنبها
أولم يكتب لها دستورها بالدم الحمر ويرفع منتهادها^(١)
وفي رثاء إسماعيل أباطه يقول :
إذا سلم الدستور هان الذي مضى وهان من الأحداث ما كان آتيا
ألا كل ذنب لليالي لأجسسه سدّ لنا عليه صفتنا والتناسيا^(٢)

حرصه على الدستور

كان شوقي حريصا على الدستور والحكم النيابي .
وإن حرصه على الدستور ليتجلى في كثير من قصائده التي لا صلة لها بالدستور
ولا بالسياسة / فمثلا يقول في قصيدته (بنك مصر) في مايو سنة ١٩٢٥ إن الشعب
مطمئن إلى بقاء الدستور ، لأن الملك فؤادا يرعاه ، وهو ملك مرجو للخير وترقية
الشعب ورعاية مصالحه فلا خوف منه على الدستور .

يؤمننا على الدستور أنا نرى من خلف حوزته فؤادا
أبو الفاروق نرجوه لفضل ولا نخشى لما وهب ارتدادا^(٣)
ويمدحه بأنه في المملكة بدر تحف به هالتان من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ،
ويدعو الله أن يزيد عزاً بالبرلمان .

وليس من شك في أنه يريد بذلك تحبيب الدستور والحكم النيابي إلى الملك ،
وبيين له في جلاء وصراحة أن البرلمان عز له وسند :

هو في الملك بدره المتجلى حُف بالهالتين من (برلمانه)
زاده الله بالنيابة عزاً فوق عز الجلال من سلطانه^(٤)

حرص شوقي على أن يحجب الدستور إلى الملك فؤاد بوسائل شتى ، فهو يشيد به

(١) الشوقيات ٧/٤

(٢) الشوقيات ١٩٦/٣

(٣) الشوقيات ١٨٩/٣

(٤) الشوقيات ٢٤١/٢

تارة ، ويفضله على سابقه تارة ، ويعلو بملكه وعصره على حضارة توت عنخ آمون ،
ويؤكد له أن الدستور أعظم تاج يزدان به رأسه . وكان يقتضى من ذلك أن يمكن
للدستور فى قلب الملك حتى لا يسترده ويبطله . ولم يكن ذلك أمراً بليداً ، لأن شوقى
رأى السلطان عبد الحميد قد استرد الدستور بعد ما أعلنه بعام ، ولأنه كان يعلم ما يعرّفه
الساسة من ضيق الملك بالحد من سلطانه ، وكان يعلم ما حدث بين الملك والحكومة
والبرلمان من خلاف ونزاع ، وكان يعرف أن الإنجليز يتربصون للدستور وللبرلمان
يريدون أن يقوضوا صرح الحرية ورمز الاستقلال ، ولهم فى مصر أنصار كلت
عيونهم من التطلع إلى الحكم ، فهم يريدونه على أشلاء الدستور وأنقاض البرلمان .
وقد تحقق ما كان يخشاه شوقى ، فحارب الدستور وأوقف ، وعرض له ما يعرض
لكل وليد أو لكل جديد ، فماذا كان موقف شوقى نصير الدستور ؟
أخشى صولة الملك أوجامله فسكت ؟

أرهب الحكومة المطلقة وابتعد عن الصراع القائم بينها وبين الدعاة
إلى الدستور ؟

لا لقد ساهم فى الصراع ، وشارك فى الدفاع ، وجلجل بشعره فى الهتاف
بالدستور ، والسخط على الحكم المطلق . ذلك بأن الأحزاب ائتلفت فى ١٩ فبراير
سنة ١٩٢٦ فى مؤتمر لإنقاذ الدستور برئاسة سعد زغلول ، فسجل شوقى اجتماع
القادة فى قصيدته (المؤتمر) ، فامتدح الحرية ، ومدح الزعماء ، ثم خلص إلى أن الله
أنعم على مصر بائتلاف أقطابها ، وهم ذوو كفايات متنوعة ، ففيهم الحول الداهية ،
وفيهم الصراحة العلية ، وهم جميعاً أسنادها وأعلامها وأبطالها ، يشيدون سياج الملك
بالدستور لا بالقنا والسيوف .

وأراد شوقى أن ينبه الملك إلى ضعة الملك القائم على الاستبداد ، فصرح
فى جلال وفى روعة أنه لا جمال ولا جلال لتاج لا تتلأأ فيه جواهر الدستور ،
وإن شريق بنوادر الماس ، وروائع الدر .

ومن ذا الذى يقرأ له هذا المعنى فلا يشعر بالجلال ؟

ومن ذا الذى يقرأ هذا المعنى ثم يتحدث أن الشاعر كلفٌ بالدستور أيما كلف ؟
ثم يأسف شوقي لأنَّ عطل الدستور ، وأقفر نأديه ، وطيرت عنه بلائله ،
ويصف فى حسرة هذا التعطيل ، وبشاعة إغلاق البرلمان حصن الحق كما يسميه ، فشكته
فى شوق إلى أبطالها وكُتبتها ، ومقاعده مهجورة ، ومنبره معطل ، وإنه لموحش قد نسج
العنكبوت به بيوته ، ويشبه حاله إذا بغار ثور حين اختبأ فيه الرسول عليه الصلاة
والسلام ومعه صديقه أبو بكر ، فنسج العنكبوت على بابه .

ولعله يريد أن الغار حمى الرسول والإسلام ، وأن البرلمان يحمى الحق والعدل
والشورى ، أو أن نسج العنكبوت موقوت لا بد أن ينجلي عن نصر مؤزر للدستور
والبرلمان كما انجلي عنكبوت الغار عن سلامة الرسول وظفر الإسلام :

الله ألف للبلاد صدورها	من كل داهية وكل صراح
وزراء مملكة دعائم دولة	أعلام مؤتمر أسود صباح ^(١)
يبنون بالدستور حائط مملكتهم	لا بالصفاح ولا على الأرماع
وجواهر التيجان ما لم تتخذ	من معدن الدستور غير صحاح
احتل حصن الحق غير جنوده	وتكالبت أيدٍ على المفتاح
ضجت على أبطالها مكنااته	واستوحشت لكلماتها النزاح
هجرت أرائكه وعطل عوده	وخلا من الغادين والرواح
وعلاه نسج العنكبوت قزاده	كالغار من شرف وسمت صلاح

وأثنى على سعد رئيس الوفد وعلى عدلى رئيس الأحرار الدستوريين ، وبشر
الامة بهذا الائتلاف^(٢)

نصائح للنواب والناخبين

لقد كان شوقى جديرا بالثناء لو أنه دعا إلى الدستور واستمسك بالحكم النيابي ثم اكتفى ، لأنه أثار وأثار ووجه . لكنه لم يكتف بذلك ، وإنما زاد عليه أن رسم للنواب أعلاما تهدي ، وأرشد الشعب إلى واجبه في اختيارهم .

(١) فماذا كان ينتغى من الشيوخ والنواب ؟

أراد أن يكونوا رجالا عاملين نافعين لمصر ، فقد هاله أنه رأى في عشر السنوات التي عاصر فيها الحياة النيابية أن النواب اتخذوا النيابة وسيلة لقضاء آرائهم الشخصية ، وتحقيق مطامعهم الحزبية ، وآهم يناصرون الوزارة ما دامت قائمة ، فإذا سقطت — وهم لم يسقطوا وزارة قط — وخلفتها أخرى ناصروها أيضا ، حفاظا على مقاعد البرلمان التي أنفقوا في سبيلها ما أنفقوا من أموال ، حتى لقد استحقوا قوله فيهم :

ولينا الأمر حزبا بعد حزب فلم نعد الخصام ولا السلام
جعلنا الحكم تولية وعزلا ولم نعد الجزاء والانتقام^(١)

لكن شوقى في نصحه لهم لم يزج إليهم نصائحه معرّة أو محلاّة ، وإنما وصفهم بما يجب أن يكونوا عليه من خلق ومن وطنية ، وهو إذ يصفهم بهذا الوصف يريد أن يثبت في نفوسهم أنهم أهل له ، وأن الأمة تطمئن إلى اتصافهم به ، فسكأنه يقرر الواقع ولا يدعوهم إلى جديد .

وهو لبق في مسألكه هذا ، لأن النصيح المجرد قد يشعر بتعالى الناصح ، أو بنقص المنصوح ، فلا يثمر ما يثمره هذا النصيح اللبق الكيس .

ذكر شوقى أن الدستور عصمة من الهوى ، وأن نواب الأمة حراس على مالها لا يغتبنونه ولا يفرطون فيه ، فهم يحاسبون الحكومة ، ويشرفون على أعمالها . وذكر أنهم وكلاء الأمة يؤدون للوكالة حقوقها كاملة .

وهم إخوة يتساندون في الضراء ، ويتعارفون في السراء ، ويعالجون الأمور برفق وأناة ، إذا عصف الجو ، وتنمر العدو . أو اصطدم الإصلاح بقديم من التقاليد

لا خير فيه ، فترسو السفينة على شاطئ السلامة ، وقد سلم ربانها وبخارتها وركبها :

أبت التقيّد بالهوى وتقيّدت
بالحق أو بالواجب الأسرار
في مجلس لا مال مصر غنيمة
فيه ولا سلطان مصر صغار
ما للرجال سوى المرائش منهمج
فيه ولا غير الصلاح شعار
يتعارنون كأهل دار زُلزلت
حتى تَقَرَّ وتطمئن الدار
يجرون بالرفق الأمور وفلسكها
والريح دون الفلك والإعصار
ومع المجدد بالأناة سلامة
ومع المجدد بالجناح عشار^(١)

ولم ينس في تحيته لأول طيار مصر — محمد صدقي — وقد قدم طائراً من برلين إلى القاهرة سنة ١٩٣٠ أن ينوه بأن أعضاء البرلمان ذادة عن الحق ، يتنافسون تحت قبة البرلمان في صيانة الاستقلال ، وحل المشكلات ، ويوكلون بالحكام عيوناً غير غافلة :

قف تأمل من علو قبة
رفعت للفصل والرأى الصراح
نزل النواب فيهما فتية
في جناح وشيوخنا في جناح
حملوا الحق وقاموا دونه
كرعيل الخيل أوصف الرماح^(٢)

(٢) كذلك أوصى الناجحين ، فحضرهم على أن يتخيروا نوابهم ، لأنهم السفراء عن الشعب ، المعبرون عن رغباته ، الناظرون بعينيه ، الناطقون بلسانه ، الذائدون عن حريته وسلطانه ، فليحسن اصطفاؤهم ، وليحذر عوامل الخديعة ومضلة الاختيار . يريد شوقي من الشعب ألا يؤثر الثراء أو الجاه ، وألا يبيع اختياره بالمال ، وألا يتخدر بخلاصة الخطابة ، أو يتأثر بسحر الوعود السكندرية ، لأنه قد رأى كثيراً من ذلك ، ورأى الانتخاب يزيف ، والأصوات تشتري .

ولا ضمان لحسن الاختيار إلا أن ينشر الناجحون أمام عيونهم صفحات المرشحين للنيابة عنهم ، فيشرّفوا بالنيابة ذوى الجهاد والوطنية والخلق والعلم والنزاهة والاعتزاز بكرامتهم وكرامة مصر ، فلا حسابان للغنى والفقير ، ولا للعصبية والانفراد .

وقد أسف شوقي لأن يبعث الناصبون إلى البرلمان تماثيل من نحس أو من خشب ، لها حساب في العدة ، ولكن لا أثر لها في رخاء أو شدة ، من أولئك الذين كانوا يسمون حقاً (بالمر) .

وإذا كان الدستور قد استنقذ من بين أنياب الاحتلال فإن الإنجليز يرصدون على الشعب هفواته ، ويحصون على كل نائب زلاته ، فليدقق الشعب في الاختيار ، وليفقه النواب تبعه هذا الفخار :

أيها الشعب لقد صر	ت من المجلس قابا
فكن الحر اختيارا	وحكن الحر انتخابا
إن للقسوم لعيناً	ليس تألوك ارتقابا
ليس بالأمر جديراً	كل من ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو قد	م جاهها وانتسابا
أو رأى أمية فاح	تلب الجهل اختلابا
فتخير كل من شـ	ب على الصدق وشابا
واذكر الأنصار بالأمـ	س ولا تنس الصحابا ^(١)

ويكرر هذا النصيح في قوله :

قل للكفانة قول الصدق من ملك	مؤيد بالهدى لا ينطق الكذبا
دار النيابة قد صفت أرائكم	لا تجلسوا فوقها الأحجار والخشبا
اليوم يا قوم إذ تبنون مجلسكم	تبنون للعقب الأيام والحقبـا
فما هو الفرد إن شئتم سما صعدا	إلى الثريا وإن شئتم هوى صيبا
وإن رضيتم عمرتم ركنـه ثقة	وإن غضبتم تركتم ركنه خربا
وإنما هو سلطـان يدان له	إذا تكفل بالأعباء وانتدبا

يقول عنكم ويقضى غير منهم
ويقول في قصيدته (المعلم) :

ناشدتكم تلك الدماء زكية
فليسألن عن الأرائك سائل
إن أنت أطلعت الممثل ناقصا
فادعوا لها أهل الأمانة واجعلوا
ويختتم قصيدته (الأزهر) بهذه الصيغة :

دار النيابة هيئت درجاتها
الصارخون إذا أسىء إلى الحمى
لا الجاهلون العاجزون ولا الآلى
فليرق في الدرج الذوائب والذرا
والزائرون إذا أغير على الشرى
يمشون في ذهب القيود تبخترا^(٣)

موازنات

نقلب دواوين شعرائنا الذين سبقوا شوقي ، والذين عاصروه ، والذين خلفوه ،
فلا نجد لأحدهم لسان صدق في الدستور كلسان شوقي . بل نشفع ما قالوه جميعاً بعضه
إلى بعض فلا يبلغ عشر ما قال شوقي وحده ، فإذا ما أغفلنا الكم واحتكنا إلى الكيف
ألفينا شعر شوقي في الدستور يتفرد بجرارة العاطفة وقوتها ، وغزارة الفكر ورجدتها ،
وجلال الصور وطرافتها .

فالبارودي لم يقل في الدستور غير ثمانية أبيات ، في معرض التهنية للخد يو توفيق
بعيد جلوسه سنة ١٨٧٩ ذكره فيها بالمجلس النيابي الذي وعده به ، وبين له آثاره في صلاح
الحكم في قوله :

سن المشورة وهي أكرم خُطّة
هي عصمة الدين التي أوحى بها
فمن استعان بها تأيد ملكه
يجرى عليها كل راع مرشد
رب العباد إلى النبي محمد
ومن استهان بها لم يرشده

أمران ما اجتماعها لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار الشؤد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى ، وجند للعدو بمرص
هيات يحيا الملك دون مشورة ويعين ركن المجد ما لم يعتمد
فاعكف على الشورى تجد في طيها من بينات الحكم ما لم يوجد
لاغرو إن أبصرت في صفحاتها صور الحوادث فهي مرآة الغد^(١)
وإسماعيل صبرى طالب الخديو عباساً سنة ١٩٠٨ بالدستور ، لأن الممالك كلها
تنعم به ، ومصر محرومة ، وحببه إليه بأنه يجعل منه راعياً لشعب أبى حر مستأسد ،
أما الحكم المطلق فيجعله راعياً لشعب ضعيف متخاذل لا يؤمن عليه من العدوان :
كل الممالك نوات ما ترتجى من أنعم الشورى وملكتك مطلق
مر بالذى صرحت قبل به وقل واصدق فملكك من يقول ويصدق
سدد سهام الرأى بالشورى يحط بك منه في ظلم الحوادث فيلق
واسبق به واضرب به وافتح به ما شئت من باب أمامك يخلق
عوذت بجدك بالكفانة أن يرى آمال قومك فيك لا تتحقق
كن راعياً يرعى الأسود فمن رعى غنا يبت يخشى الذئاب ويفرق^(٢)
أما حافظ إبراهيم فقد ورد الدستور في شعره بضع مرات . ففي تهنئته للسلطان
عبد الحميد سنة ١٩٠٨ بعيد الجلوس يمدحه بأن حكمه شورى^(٣) . وفي قصيدة وجهها
للأمير حسين كامل رئيس مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ذكر الدستور
في بيت واحد^(٤) . وفي ابتهاجه بخلع السلطان عبد الحميد خص الدستور ببيتين
اثنتين^(٥)

وفي قصيدته تحية العام الهجرى ١٣٣٧ هـ (١٩٠٩ م) استعرض شئون مصر
والعالم الإسلامى ، وخص الدستور بهذه الأبيات من قصيدته الطويلة :

(١) ديوان البارودى ١/١٣٤

(٢) ديوان لإسماعيل صبرى ٥٦ ، ١٧١

(٣) ديوان حافظ ١/٣٨ (٤) ديوان حافظ ٢/٥٧ (٥) ديوان حافظ ٢/٤٨

ويا طالبي الدستور لا تسكتوا ولا تبيتوا على يأس ولا تنزعجوا
أعدوا له صدر المسكان فإني أراه على أبوابكم يتخطر
لقد ظفـر الأتراك عدلاً بسؤلهم ونحن على الآثار لا شك نظفر^(١)
هم لهم العام القديم مقسدر ونحن لنسا العناب الجديد مقدر^(٢)
ثم صدقت الأحلام ، وافتتح أول برلمان على مرأى ومسمع من شوقي وحافظ .
أما شوقي فقد عرفنا خبرته بذلك البرلمان ، وحفاوته به .

وأما حافظ فقد تخلف وأكدى ، إذ لم يوجع إليه افتتاح أول برلمان إلا بقصيدة
فاترة العاطفة ، ضحلة المعاني ، ناصلة الصور .

فإذا ما غايستنا بين احتفاء شوقي بالدستور في قصيدته (قفي أخت يوشع) واحتفاء
حافظ في قصيدته التي قالها في المناسبة نفسها (ديسمبر سنة ١٩٢٢) وجدنا بونا واسع
المدي ، في التعبير والتصوير والعاطفة والفكرة .

ذلك بأن حافظا دعا مصر إلى شكر الله ، ودعاها إلى أن تطرب قاعدة قائمة ،
فقد تم بناء دار البرلمان ، وسيزف إليها قريبا بشرى افتتاحه رئيس الوزراء محمد نسيم .
ثم قال إن البرلمان دار مشيدة لطالب المجد العميم ، بها يتجمل المليك ، وتسعد
مصر ، وناشد المليك أن يسعد مصر بدستور كامل .

وليس في أبياته نفحة من نفحات الروعة ، ولستنا نستطيع أن نجد أشراً لقوة
العاطفة وعظام البهجة ، ولا لجلال الدستور والبرلمان ، ولا لتوجيه الناهبين والنواب
كذلك الذي وجدنا عند شوقي .

وقد صدق الدكتور طه حسين في قوله : إن الموازنة بين ما قال شوقي في الدستور
وبين ما قاله حافظ في الدستور أيضاً مرة مؤلمة النتيجة . تقرأ أبيات شوقي فلا تشك
في أنه يصف ما يشعر به ، وما تشعر به أنت أيضاً . وتقرأ أبيات شوقي فتجد فيها
المعاني العالية القيمة قد أدبت في اللفظ العذب الرشيق ... فإذا قرأت أبيات حافظ

لم تجد شيئاً ، وإنما أذتلك ألفاظ متكلفة ، وقواف أنزلت في غير منازلها ، وأكرهت
على أن تستقر حيث لا تحب^(١)
قال حافظ :

البرلمان	تهيات أسبابه
هو في يدك وديعة لرعية	لم يبق من سبب سوى المفتاح
رد الوديعة يا فؤاد فإنما	تثنى بالسنّة عليك فصاح
.....	رد الوديعة شيمة المسحاح

هذا منار البرلمان أمامكم	لهدى السبيل كإبرة الملاح
فتمموا مخلصين فما لكم	من دونه من غبطة وفلاح
الفضل للشورى وتلك هي التي	تزع الهوى وترد كل جماح
هي لا تفضل سبيلها فكأتما	خلق السبيل لها بغير نواحى
هي لا براح ترد كيد عدوكم	وتغل غرب الغاصب المحتاح ^(٢)

شوقى إذا شاعر الدستور غير منازع ، كما كان أمير الشعراء غير مدافع
بل أجهز في غير تعصب لشوقى أو تحامل على غيره بأنه كان شاعر الوطنية
في العصر الحديث ، وما آراؤه في الدستور إلا غصن من وطنيته الفينانة ، المنوعة
الجنى والثمر .

الفصل الثامن

استنهاض العزائم

واطلبوا المجد على الأرض فإياه
هي ضاقت فاطلبوه في السماء
شوق

اشادة بحاضر مصر

قضى شوقي لبائته من المباهاة بماضى مصر ، ونفخ فى العزائم غيرة على هذا الماضى ،
وحماسة له ، وشوقا إلى استعادته .

لكنه لم يحبس خياله فى ذلك الماضى ، وإنما كان يرقب الحاضر ، فيعيبه تارة ،
ويشيد به إذا ما استحق الإشادة ، يريد أن يستزيد المصريين من وسائل الرقى
والعزة ، ويريد أن يشجع العاملين فلا يخملوا ، ويحفز الخاملين إلى أن يعملوا ، ويعلم
للعالم أن الشعب المصرى شعب حتى سليم العنصر تواق إلى المجد .

فقد خايل مرارا بثورة مصر سنة ١٩١٩ . وأشاد بعظمة مصر أيام محمد على ^(١) .
وأيام إسماعيل ^(٢) . ونوه بكل عمل عظيم نافع لمصر .

بنك مصر :

فى مايو سنة ١٩٢٥ احتفل بوضع الحجر الأول فى بناء (بنك مصر) فرحب به
شوقى ، ونوه بآثاره ، وحمد لطلعت حرب جهودده فى تحقيق أمل مصر أن يكون لها
بنك ، وأثنى على مساعدته ومشجعيه :

دعا فتنافست فيه نفوس
تقدم عونها ثقةً ومالا
بمصر لـكل صالحة تنادى
وأحيانا تقـدمه اجتهادا
وأقبل من شباب القوم جمع
كما بذت الكحولُ بني وشادا
كأن جوانب الدار الخلايا
وهم كالتحل في الدار احتشادا^(١)

.....

ولما افتتحت دار البنك في يونية سنة ١٩٢٧ نوه بهمة الشعب ومقدرة الذين
أسسوا البنك وهم محكومون لا يحكام ، يريد بذلك أن الشعب أحـرص على ترقية نفسه ،
وأنه جدير بالمسعاة لمجده ، فقد مضى الزمن الذي كان العمل العظيم فيه منوطا بالملوك
وبالحاكمين ، وهو يهد لهذا المعنى بوداده لو أن الوفود العربية التي كانت مجتمعة
لتكريمه لم تشخص إلى أوطانها ، لتشهد هذا اليوم الأغر ، وترى حقيقة ما كان وهما
أو آملا :

ما ضرَّ لو حبسوا الركائب ساعة
ليضيف شاهدهم إلى أيامه
وثنوا إلى الفسطاط فضل زمام
يؤما أغر ملـح الأعـلام
ويرى ويسمع كيف عاد حقيقة
ما كان تمتعا على الأوهام
من همة المحكوم وهو مكبل
بالقيد لا من همة الحـكام
ثم أثنى على طلت حرب ، وسمى البنك الهرم الرابع :
ما زلت تبني ركن كل عظمة
حتى أتيت برابع الأهرام^(٢)
وكذلك يشيد بالبنك في قصيدة ثالثة^(٣) .

مَشروع القَرش :

نهض الشباب بمشروع القرش ، يجمعون من كل متبرع قرشا ليؤسسوا مصانع
مصرية تغنيهم عن الحاجة إلى الأجانب ، وتشغل المتعطلين من الأمة .

(١) الشوقيات ٨/٤

(٢) الشوقيات ١٢/٤

(٣) الشوقيات ١٤/٤

وأقبل الشعب على تشجيع المشروع فنجح .

وفي سنة ١٩٣٢ حياهم شوقي بقصيدة ، هي آخر ما جادت به شاعريته :
بدأ القصيدة بأن الأسود لا تقيم على ضيم ، فكذلك أبناء مصر ثاروا على قيد
الاختلال وساططاته الاقتصادية واحتكاه لينابيع الثروة ، وأولئك هم شبان الوادي
بل أشبال الوادي شورا فصاروا أسدا ، يدفعون عن وطنهم عدوان الغاصب ،
وينزعون منه ثروة الوطن :

لا يقيم على الضيم الأسد نزع الشبل من الغاب الوتد
كبير الشبل وشبت نابه وتغطي منكياه باللبد
اتركوه يمش في آجابه ودعوه عن حصى الغاب يند
واعرضوا الدنيا على أظفاره وابعثوه في صحارها يصد

ثم حيا الشباب وأثنى عليهم ، فهم أطهار من الآراب الخاصة لا يرتجون لأنفسهم
نفعاً ، ولا يحملون لأحد حقداً ولا حسداً ، وهم بلا بل مصر الفردة حركوا
بشدوهم أعطاف الوادي نشوة وفرحة ، وقد كان اليوم ينعب فيه ترخا ومهانة ، وهو
يعنى باليوم الأجانب الذين احتكروا ميادين الثراء . وهؤلاء الشبان زنبق المسدائن
وريحان القرى ، يسمعون لجمع القروش من كل مكان ، يهكرون إلى سعيهم جماعات
جماعات كالنحل تنفر خفافا إلى الأزهار ترتشف رحيقها ، ثم يجتمعون آخر النهار
ليقدموا ما جمعوا ، كالنحل تعود إلى خلاياها لتفرغ الشهد :

فتية الوادي عرفنا صوتكم مرحبا بالطائر الشادي الفرد
هو صوت الحق لم ييغ ولم يحمل الحقد ولم يخف الحسد
وخلا من شهوة ما خالطت صالحا من عمل إلا فسد
حرك البلبـل عطفي روبة كان فيها اليوم بالأيك انفراد
زنبق المدن وريحان القرى قام في كل طريق وقعد
باكراً كالنحل في أسراها كل سرب قد تلاقى واحتشد

قد جنى ما قلَّ من زهر الربا ثم أعطى بدل الزهر الشهد

ثم حض الشعب على الاستجابة لهم :

أيها الناس اسمعوا أصغوا له أخرجوا المال إلى البر يعد
لا تردوا أيدهم فارغة طالب العون لمصر لا يرد

وخلص من ذلك إلى آثار مشروع القرش في إنهاض الصناعة ، والإكثار
من المنشآت النافعة ، وضرب المثل ببنك مصر دعامة الاستقلال الاقتصادي ، وحث
على العناية بالصناعة والاعتماد على القطن وحده ينبوعا لثروتها :

يسرى الناس عجيبا في غد يغرس القرش ويبنى ويلد
ينفض الله الصناعات به من عثار لبثت فيه الأبد
أوزيد البر داراً قعدت لكفاح السبل أو حرب الرمد
وهو في الأيدي وفي قدرتها لم يضيق عنه ولم يعجز أحد
تلك مصر الغد تبنى ملكها نادى الباني وجاءت بالعدد
وعلى المال بنت سلطانها ثابت الآماس مرفوع العمدة^(١)

أعمال شتى

واحتمى في قصائد أخرى بإنشاء الجامعة المصرية^(٢) ونادى الموسيقى الشرقى^(٣) ،
وبمقدم محمد صدقي أول طيار مصرى^(٤) ، وبأحمد حسنين الرحالة^(٥) ، وابتهج بتمثال
نهضة مصر الذى نحتته محمود مختار^(٦) .
وسنعرض لهذا فى مناسباته .

(١) الشوقيات ١٦/٤

(٢) الشوقيات ١٨٠/١ (٣) الشوقيات ٣٦/٤ (٤) الشوقيات ١٩٤/٢

(٥) الشوقيات ١٨١/١ و ٢١٢/٢ (٦) الشوقيات ٢٣١/٢

أما اعتزازه بالاستور وبالبرلمان فقد سبق . وهذه كلها مفاخر لمصر الحديثة ،
نوه بها شوقي ، ليوفيها حقها ، وليشيد بالقائمين بها ، وليشجع الآخرين على أن يعملوا .

حفر العزائم

لم يقتصر على بكاء الماضي ، والسخط على الحاضر ، ولم يكن ليحقق له ذلك
الاقتصار ، لأن التشديق بالماضي قد يلهي عن العمل ، ويمد في أسباب الغرور ، ولأن
السخط وحده قد يورث ، ويقعد عن السعي والسير قدما إلى البناء .

وإنما بكى شوقي ماضي مصر والشرق ، وسخط على حاضر مصر والشرق ، ثم
صاح صيحات مندويات داعيا إلى استعادة الماضي المشرق ، وإلى تنقية الحاضر الآسن ،
 وإقامة مستقبل مجيد متآق .

(١) وكان كثيرا ما يوجه الخطاب إلى الشباب ، لأنهم الجيل الحديد الذي لم
تتلوث نفسه بأدران الاحتلال ، وأقذار الخنوع ، ولأنهم مصر المستقبلية . أما الشيوخ
فهم مصر المستضعفة المستدلة ، وهم أضعف من الشباب منة ، وأجنح إلى اليأس ،
وربما كان بعضهم راضى النفس بما هو فيه ، إما لقنوطه ، وإما لأنه لا يحس بوخزات
الاحتلال ، وبمفسد الأحوال .

يتجلى أمله في الشباب في كثير من شعره منذ شبابه ، ففي سنة ١٩٠٦ هتف فيهم
أن مصر لهم وإليهم مستقبلها ، فعليهم أن يذودوا عنها ويحملوا لواء الجهاد ،
لأنهم الأشبال المعدون للجهاد وحماية العرين ، ومصر لا تعتمد إلا عليهم ، ومن
واجبهم أن يمشوا بمصر إلى الأمام ليحققوا عظمته المشودة :

يا شباب الديار مصر إليكم ولواء العرين للأشبال
كلما رُوعت بشبهة يأس جعلتكم معاقل الآمال
هيئوها لما يليق بمنف وكريم الآثار والأطلال^(١)

وفي قوله لشباب مصر سنة ١٩١٤ إنه يفديهم بولديه ، وأنه يتمنى أن يمد الله

في حياته حتى يراهم سعداء في وطن حر عظيم السلطان ، ويعتذر لهم من شرور ربما جناها الجيل السابق ، ثم يحفز عزائمهم إلى العمل ، وإلى المجد :

يا شباب الغد — وأبناء الفدى
هل يمد الله لي العيش عسى
وأرى تاجكم فوق الشها
من رأكم قال : مصر استرجعت
إنما مصر إليكم وبكم
عصركم حر ومستقبلكم
لا تقبلوا سلطانا الدعر فما
هل علمت أمة في جهلها
نفذوا العلم على أعلامه
واقروا تاريخكم واحتفظوا
واحكموا الدنيا بسلطان فما
واطلبوا المجد على الأرض فإن

لكم — أكرم وأعز بالفداء
أن أراكم في الفريق السعداء ؟
وأرى عرشكم فوق ذكاه
عرها في عهد خوفو ومناء
وحقوق البر أول بالقضاء
في يمين الله خير الأماناء
هو إلا من خيال الشعراء
ظهرت في المجد حسناء الرداء ؟
واطلبوا الحكمة عند الحكماء
بفصيح جاءكم من فصحاء
خلقت نصرتها للضعفاء
هي ضانت فاطلبوه في السماء^(١)

ويصرح لهم بأن الكبار في السن ضيوف عليهم :

أنتم غداً أهل الأمور وإنما كنا عليكم في الأمور وفرداً^(٢)

وينذكروهم بأن وطنهم يعتمد عليهم ، ويحمل بهم ، لأنهم زينته ومظهر حيويته ،
فيهم فيه كالريحان في الروضة ، وكالواسطة في العقد . وطنهم يأمل فيهم أن يعيدوا إليه
قوته وربيعة ، ولم ينس لهم تضحياتهم في الذود عنه :

وطن يرف هوى إلى شبابه
هم نظم حليته وجوهر عقده

كالروض رفته على ريشانه
والعقد قيمة يتسيم جملانه

(١) الموقيات ٣/٢ ذكاه : الشمس . السها : نجم من بنات نعت الضوى . خوفو وهينا من ملوك
مصر الفرعونية . ما هو إلا من خيال الشعراء : القول بأن الدعر حطيم ، أى أنه قول لاصحة له .

(٢) الشوقيات ١/١٢٧

يرجو الرياح بهم ويأمل دولة
من غاب منهم لم يغيب عن سمعه
وإذا أتاه مُبَشِّرٌ بقدرهمهم
هيمات ينسى بذلهم أرواحهم
وقفوا له دون الزمان ورية
في شدة نُقِيلَتْ أناة سكهمه

من حسنه ومن اعتدال زمانه
وخميره وفؤاده ولسانه
فن القميص ومن شذى أردانه
في حفظ راحته وجلب أمانه
ومشت حدائقهم على حدائنه
فيها وحكمتهم إلى فتيانه^(١)

(٢) وهو يرف إلى مصر البشري بأن أشبالها كبروا وصاروا أسوداً . ويشيد
بجهادهم الخالص لا من فيه ولا مباهاة به ، ويثني على يقظتهم وحذرهم مما كان يراد
بمصر من خديعة وصرف عن الاستقلال ، ثم ينصح لهم نصائح شتى ، وذلك
في قصيدته التي قالها سنة ١٩٢٤ لما أطلقت وزارة سعد زغلول المسجونين السياسيين :
يا مصر أشبال العرين ترعرعت ومشت إليك من السجون أسودا

.....

قالوا : أتنظم للشباب تحية
قلت : الشباب أتم عقد ما أثر
قبلت جهودهم البلاد وقبلت
خرجوا فما مدوا حناجرهم ولا
ما كان أفطنهم لسكل خديعة
لما بنى الله القضية منهم
طلبوا الجلاء على الجهاد مثوبة

تبقي على جيد الزمان قصيدا ؟
من أن أزيدهم الثناء عقودا
تاجا على هاماتهم معقودا
منوا على أوطانهم مجهودا
ولكل شر بالبلاد أريدا
قامت على الحق المبين عمودا
لم يطلبوا أجر الجهاد زهيدا^(٢)

.....

(١) الشوقيات ١/ ٣٢٥ الحان : الأوّل أو حبات من فضة . القميص : يشير إلى قميص يوسف .
شذى أردانه : عطر أكمامه . الحدائنة : صغر السن . الحدائق : نوايب الدهر . الأناة : الوقار والحلم
(٢) الشوقيات ١/ ١٢٦

(٣) وينصح الشباب في جرأة وصراحة ، داعياً إلى طرح الأوهام ، ونقد التنازع والتفاخر ، مشبهاً على جهادهم في الحركة الوطنية ، محذراً من دهاء الإنجليز :

ناد الشباب فلم يزل لك ناديا	والمسرة ذو أثر على أصدانه
ألق النصيحة غير هائب وقومها	ليس الشجعان الرأي مثل جبانته
قل للشباب : زمانكم متحرك	هل تأخذون القسط من دورانه ؟
قتم على الأحلام تلزمونها	كالعسل الخالي على أوثانه
وتنازعون الحى فضل ثيابه	والبيت ما قدرث من أكفانه
ولقد صدقتم هذه الأرض الهوى	والحر يصدق في هوى أوطانه
أمل بذلتكم ككل غال دونه	وفقدتم ما عز في وجودانه
الليث يدفعكم بشدة بأسه	عنه ويظلمكم بفرط ليانه
ويريد هذا الطير حراً مطلقاً	لسكن بأعينه وفي بستانه ^(١)

(٤) ويشفع إلى أسفه لضعف مصر أن الأمم تملأ جو مصر بطياراتها في حين أن مصر لا تنتفع بجوها ، ويحفز الشباب إلى أن يتعلموا الطيران ، فيكون منهم كثير ، مثل محمد صدقي أول طيار مصرى ، فقد احتفلت مصر بمقدمه ، ورأى الشبان كيف يكرم الأبطال :

مصر للطير جميعاً مسرح	مالنا فيها ذنابى أو جناح
رب سرب قاطع مر به	هبط الأرض ملياً واستراح
لم لا يفتن فتیان الحى	ذلك الإقدام أو ذاك الطماح ؟
من قى حل من الجوبه —	فتلقوه على هام وراح
إنه أول عصفور لهم	هز فى الجو جناحيه وصاح ^(٢)

(١) الشوقيات ٣٢٦/١ الأخدان : الأصدقاء . الأوثان : الأصنام . وجدانه : إدراكه والظفر به .

ليانه : لينه

(٢) الشوقيات ١٩٤/٢ ذنابى : ذيل . سرب : جمع من الطيارات . ملياً : طويلاً . الطماح : الطموح

والرغبة فى المجد . هام : رهوس . راح : أيد

(٥) ولقد يبلغ به الاحتفاء بالشباب وينصحده أن يقدمه على العرض الأول من القصيدة، فهو في قصيدته (رحلة الشرق) التي قالها في تكريم أحمد حسنين بعد رحلته في صحراء ليبيا، يصدر التوجيه بتحديث عن شبان مصر، فينصحههم بالإقدام، وبإعداد القوة برا وبحراً، وينصحهم أن يتسابقوا إلى المجد، ويبين لهم أن المجد ليس في المال والجاه، وإنما هو في الجهاد والتفوق والإقدام والعلم والأدب.

قل للشباب بمصر : عصركم بطل	بكل غاية إقدام دام له ولم
أس المهالك فيه همة وسجما	لا الترهات لها أس ولا الخدع
ماذا تصيدون بعد البرامات له	إذا خياركم بالدولة اضطلعوا ؟
البر ليس لكم في طوله الجم	والبحر ليس لكم في عرضة شرع
هل تنهضون عماكم تلهقون به	فليس يلحق أهل السير مضطجع ؟

.....

ما الجاه والمال في الدنيا وإن حسنا	إلا عوارى حظه ثم ترتجع
عليكم بخيال المجد فأنلفوا	حياله وعلى تمثاله اجتمعوا
وأجتمعا العسير في جد وفي عمل	فالعسير ينفع ما لا ينفع الجزع
ولنت نبغتم في علم وفي أدب	وفي صناعات عصر ناسه صنع ^(١)

(٦) لم يلق شوقي تبعة الجهاد والبناء للمستقبل على شباب مصر وحدهم، وإنما نصح شباب البلاد العربية بما نصح به شباب مصر، وألقى عليهم ما ألقى على شباب مصر، كقوله يخاطب الشعب الطرابلسي في رثائه للشهيد عمر المختار:

ذهب الزعيم وأنت باق خالد	فانقد رجالك واختر الزعماء
وأرح شيوخك من تكاليف الوغى	واحمل على فتيانك الأعباء ^(٢)

(١) الشوقيات ١/ ١٨٦

(٢) الشوقيات ٣/ ٢٠

الفصل التاسع

العلم والتعليم

إله سرك الملك تهنيتي على أسمى

فاسقهم البانيين : اللهم والدي

شوق

سقف باللهم

أبرز سمات العصر الحديث أنه عصر العلم والثقافة واستغلال العلوم ، فكل ما نشهده من جديد في العالم ، وما نعجب به من طريف في هذه الحياة ، وما نستمتع به من خير أو نصطلي به من شر إنما مرده إلى العلم ، ومرجعه إلى الثقافة . والأهم تسهمو بعلمائها ، فتعجد في عمود السلم ، وترهب في أعاصير الحرب .

ولسنا نبعد عن الصواب إذا ما ذهبنا إلى أن الاستعمار في الزمن الحديث إنما هو سيطرة العلماء على الجاهل . ومأساة الشرق بالغرب تؤيد هذا ، فإن أوروبا لم تستعمر الشرق إلا في عهد جهالة ، الجهالة التي جنت عليه الضعف والفقر والمعجزة والتواكل والمرض ، وجرت وراءها الفرقة والانقسام واختلاف الوسيلة والغرض ، وأعمت الشرقيين عن كنوز الخيرات التي يطئونها بأقدامهم ، فتزاحم الغربيون على استغلالها وأمتلاكها واحتكارها ، ومنوا على بعض المواطنين بأن يكونوا عمالا فيها . وظل الشرق في غفلته أو سكرته إلى أن بعثه العلم من رقده ، إذ تعلم أفراد منه ، فتصمدوا صنفوه ، ونفخوا من روحهم القوى في روحه ، ونصبوا أمامه المثل العالية لحياة العزة والكرامة ، واتخذوا من نشر العلم وسيلة لبث آرائهم . فسرعان ما استفاق

الغافل ، ونشط الخامل ، وهبت أمم الشرق كلها تجاهد وتناضل . فالعلم هو الباعث على وثبات الشعوب ، ونهضات الأمم ، وأيما نهضة اصطفتها القوة التي لا تعتمد على العلم كانت كالحصن المشيد على دعائم من الرمال ، لا بقاء له ولا مسوالة ، ولا طاقة له بأول جولة .

لهذا كان أمير الشعراء حريصاً على أن تسليح مصر بالعلم . في الحرب والسلام ، وكان كافياً بالدعوة إليه يرددها في كثير من قصائده ، حتى ليصح أنها عقيدة من عقائده . وليس ذلك بمعجيب منه بعدما ذاق حلاوة الثقافة شرقية وغربية ، قديمة وعصرية ، وعلم من تجارب الأيام وعبر التاريخ أن العلم ذريعة القوة ، وعاش في عصر إسماعيل وما بعده ، عصر الإفاقة واليقظة ، وإشراق العلم بمصر . ثم إنه رأى أوروبا تتسابق في ميادين المعرفة ، وتتنافس في حلبة الاختراع ، وتعزى بعلمائها وأدبائها كما تعزى بملكها وفتوحها ، فود لو تقتدى مصر بها ، ولا يبقى جاهل تحت سمائها .

إشادته بالعلم والتعليم

آثار العلم

(١) ذهب إلى أن العلم وسيلة الفوز والغلب ، وحياة السعادة والسيادة ، وأنه سياج الممالك وحارسها وحامها ، لأن العلماء بآرائهم وتدابيرهم واختراعاتهم يذودون عن الحى ، ويقون الوطن غير المسوان كما تحمى الأسود عرينها .

قال في مدحة للخديو عباس :

بالعلم تملك الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال
والعلم يعتصم الملك الكبير به كالغاب ما بين آساد وأشبال^(١)

وقال في حفل افتتاح الجامعة المصرية القديمة :

يا بنى المجد وابن المولعين به انشر ضياء الهدى من طى أرماس
وألقي فى أرض منف أسس جامعة من نورها تهتدى الدنيا بنبراس

ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلا طب ولا آس^(١)
وقال الملك فؤاد :

إن سرك الملك تبنيه على أسس فاستنهض البانين العلم والأدب^(٢)
وقال له أيضا :

فلم تبرح القصر إلا شفيحت جُذوب العقول وإيماها
لقصد ركب الله في راحتيك يمين الجود وشمالها
تخط وتبني صروح العساو م وتفتح للشرق أفاقها^(٣)
وقال في قصيدة (الأزهر) :

والله ما تدري لعل كفيفهم يوماً يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد غنياً وجل المشتري والمشتري^(٤)
وقال في قصيدة (دمشق) :

الملك حول لسان تحته أدب وتحت عقل على جنبه عرفان^(٥)

ولم ينس في الاحتفال بذكر مصر أن يقرن المال بالعلم في الجلال والقدر ، لأنه
دعامة من الدعائم التي يقوم عليها صرح الوطن . وما قيمة المال بغير علم ؟ أليس العلم
هو الذي يثمر المال في ميادين نافعة له ويبتكر الوسائل للحسن على المال ؟ هل هذه مصر
قد احتكر الأجانب صناعاتها وتجارتها ، وزاحوا المصريين حتى في زراعتها منذ كانت
مصر تجهل كنوزها ، فلما تعلمت شرعت تدبر شأنها ، وتسترد بعض ما لها ، لأنها
أحق بخيراتها :

يا طالباً لمعالي الملك مجتهداً خذها من العلم أو خذها من المال

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل وإقلال^(٦)

وكلما صاغ شوقي قصيدة في موضوع ذي صلة بالعلم أو الفن سكب في قلوب
الشباب من روحه الوثاب .

(١) الشوقيات ١٨١/١ (٢) الشوقيات ٧٣/١ (٣) الشوقيات ٢٣٤/٢

(٤) الشوقيات ١٧٧/١ (٥) الشوقيات ١٢٥/٢ (٦) الشوقيات ٢٢٩/١

ها هو ذا في قصيدته عن الطيران عند قدوم (فدرين) و (بونيه) طائرين من
من باريس إلى القاهرة سنة ١٩١٤ ، يلتفت إلى الشباب المصري يوقظه من غفلته ،
ويبعث فيه الثقة والغيرة والطيران بمصر إلى جو المعالي على أجنحة من العلم :
إنما مصر إليكم وبكم وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم سحر ومستقبلكم
في يمين الله خير الأبناء
لا تقواوا : سخطنا الدهر فما
هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة في جهلها
ظهرت في المجد حسناء الرءاء
نخذوا العلم على أعلامه
واطلبوا المجد على الأرض فإن
هي ضاقت فاطلبوها في السماء^(١)

وفي تحيته لطيارين فرنسيين آخرين بمجد العلم المخترع ، العلم الذي لو تقدم به الزمن
واقترن بالتحدي من فرد لعصره لعد معجزة ، ثم أثنى على الشجعان من العلماء الذين
أهلكتهم جرأتهم ، مثل (إيكار) و (عباس بن فرناس) ، وحسبهم من حسن
الأحوثة أنهم خلفاء الرسل في المعرفة والاستشهاد .

ونزه الفرصة فصرخ في آذان الشرق الغافل ليستفيق ، فالحياة زحام وصراع
يهلك فيها من استنام ، والحياة جد وكفاح لا يغنى عنهما شيئاً ماض مجيد كان للآباء
والأجداد :

قم سليمان بساط الريح قما	ملك القوم من الجو الزماما
حين ضاق البر والبحر بهم	أسرجوا الريح وساموها اللجاما
صار ما كان لكم معجزة	آية للعلم آتاها الأناما
قدرة كنت بها منفرداً	أصبحت حصّة من جدّ اعتزاما
طلبة قد رامها آباؤنا	وابتغاهم من رأي الدهر غلاما
أسقطت (إيكار) في تجربة	وابن (فرناس) فما استطاع قياما
في سبيل المجد أودى نفر	شهداء العلم أعلاهم مقاماً

خلفاء الرسل في الأرض هم يبعث الله بهم عاماً فعاماً
أيها الشرق انتبه من غفلة مات من في طرقات السيل نأماً
لا تقولن : عظامي أنا في زمان كان للناس عصاماً
شأقت العلياء فيه خلفاً ليس يألوها طلاباً واغتناماً
كل حين منهم نابغة يفضل البدر بهاء وتماماً (١)
وفي قصيدته التي كرم بها أحمد حسنين باشا الرحالة يقول للشباب :
قل للشباب بمصر : عصركم بطل بكل غاية إقدام له ولع
ما الجاه والمال في الدنيا وإن حسنا إلا عوارى حظ ثم ترتجع
عليكم بخيال المجد فأتلفوا حياه وعلى تمثاله اجتمعوا
وإن نبغتم ففي علم وفي أدب وفي صناعات عصر ناسه صنع
وكل بنيان قوم لا يقوم على دعائم العصر من ركنيه متصدع
شريف مكة حر في ممالكه فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا (٢)

كان شوقي يؤازر دعواته إلى العلم بأن الإسلام طالما دعا إلى العلم وكرر الدعوة ،
إذ قام على السمو بالروح ، وتطهير القلب ، وتربية العقل بالتفكير في خلق السماء
والأرض ، وأقام الإسلام أسسه على العقل والتفكير ، فرفع من قواعد العلم وحبيه
إلى النفوس .

لذلك عد شوقي من مآثر الرسول عليه الصلاة والسلام أنه بعث بدين يربي العقول
ويرفع من أقدار العلماء . وأشاد برعاية المسلمين للعلم ورجاله (٣)

(٢) فعلى شيوخ الأمة ونوابها أن يتداركوا التعليم في مصر ، فينشروا المدارس
في كل مكان تظله سماؤها :

البرلمان غداً يمسد رواقه ظلًا على الوادي السعيد ظليلاً

(١) الشوقيات ١٠٧/٢ (٢) الشوقيات ١٨٦/١

(٣) الشوقيات ٢٩/١ و ٢٤٨/١

نرجو إذا التعليم حرك فتحوه ألا يكون على البلاد بغيره^(١)
(٣) وعلى الشباب أن يسهموا في تنوير الشعب ليتخير العلماء الأكفاء نوابه
للدفاع عن حقوقه ، حتى لا يوصم الرأي العام بأنه كالقطيع يساق ولا يقاد :

قل للشباب : اليوم بورك غرسكم دنت القطف وذلت تدليلها
ناشدتكم تلك الدماء زحكية لا تبشروا للبرلمان جهداً ولا
إن أنت أطلعت الممثل ناقصا لم تلق عند كماله التمسلا
فادعوا لها أهل الأمانة واجعلوا لأولى البصائر منهم التفصيلا^(٢)
ويقول :

دار النيابة هيئت درجاتها فليرق في الدرج الذوائب والذرى
الصارخون إذا أسىء إلى الحمى والزائرون إذا أغبر على الشرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الأولى يمشون في ذهب القيود تبخترا^(٣)

(٤) والأهم تسمك ملسكها الوطيد على العلم والعدل ، وكل ملك شيد بالقهر
والغلب وحده السيف مع محافة العلم فقصيره الزوال ، لأن أسباب بنائه ، ومضان بقاءه ،
هى أسباب فنائه . يقرر شوقى ذلك فى قصيدته (الأندلس الجديدة) إذ يتحصر على
سقوط أدرنة فى يد البلغار سنة ١٩١٢ ، ويعزو تقويض ملك الترك إلى أن دولتهم
قامت على البطش والجبروت لا على الشفافة والعدل :

رفعوا على السيف البناء فلم يدم ما للبناء على السيوف دوام
أبقى الممالك ما المعارف أسسه والعدل فيه حائط ودعام
فإذا جرى رشداً ويمناً أمرهم فامشوا بنور العلم فهو زمام^(٤)

وقد كرر هذا فى تحيته للترك . وكأنما كان يستشف من وراء الغيب أن الكلمة
الآخيرة فى الحروب ستكون للقلم وللعلم ، لأن المخترعات الفتاكة فى غنى عن كثرة
العدد والشجاعة :

هذا الزمان تناديكم حوادثه يا دولة السيف كوني دولة القلم
فالسيف يهدم فجرا ما بنى سحرا وكل بنيان علم غير مهديم
قد مات في السلم من لا رأى يعصمه وسوت الحرب بين البهم والبهم
وأصبح السلم ركن الآخذين به من لا يقسم ركنه العرفان لم يقم^(١)

صرائر الجهل

(١) إذا كان عزرائيل ينتزع الأرواح من الأجساد فتعول جثثا هوامد ، فإن
الجهل ينتزع من الأرواح سماتها الإنسانية ، فينزل بالجهل إلى فضاء البهم ، إذ ليس
لهم من الإنسانية إلا أعمها :

الجهل لا تحيا عليه أمة كيف الحياة على يدى عزريلا^(٢)
ويقول :

إني نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهل داء للشعوب مبيدا
الجهل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فبات وليدا^(٣)
ويقول :

أيقنت أن الجهل علقة كل مجتمع سقيم^(٤)

(٢) يمد شوقي بصيرته إلى بواعث الجرائم فيجسدها ناجمة من ضيق العقل
واضطراب الرأي والجهل بمصائر الأمور ومصادرها .
ففي تهنيئته لسعد زغلول بالنجاة من إطلاق الرصاص عليه وهو يتأهب للسفر
إلى إنجلترا للمفاوضة ، عاب على الشباب أنه منصرف عن واجبه الأول ليأمر بالسلاح ،
وأنه طائش لا يميز ، وأن اغتيال الزعماء ليس بوسيلة التحرر ، وما وسيلة التحرر
إلا الجيش اللهم ، والعلم الهادي ، والخلق الممسك بالزمام :

(١) الشوقيات ٢٨٠/١ البهم : جمع بهمة بفتح الباء وهى ولد الضأن والمعز والبقر . البهم : جمع
بهمة بضم الباء الرجل الشجاع
(٢) الشوقيات ٢٢٦/١ (٣) الشوقيات ١٢٨/١ (٤) الشوقيات ٢٧٢/١

أرى مصر يابو بجند السلاح ويذهب بالنار ولسانها
وراح به — ير بحال العقو ل يجيل السياسة غلامها
وما القتل تحيا عليه البلا دولا هممة القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضى دولة وتقبل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلا دوبا لـ لم تشتد أركانها
فأين النبوغ وأين العـلو م وأين الفنون وإتقانها ؟
وأين من الخلق حظ البلا د إذا قتل الشيب شبانها ^(١) ؟

(٣) والجهل يعمى الناصحين عن اختيار الكفاء الصالح للنيابة ، لأنهم ينخدعون بالوعود المعسولة ، والدعايات الجوف ، والزلفى الخادعة :

تلك الكفور وحشوها أمية من عهد خوفو لم تر القنديلا
يتاو الرجال عليهم شهواتهم فالناجحون ألذهم ترقيلا ^(٢)

الثقافة المستزيرة :

لم يرد شوقي بالعلم الاقتصار على برامج المدارس ، لأنها ليست إلا فاتيح للاستبحار والتعمق . وكـم من متعلم اقتصر على ما تعلمه في المدارس ، وودع الكتاب يوم غادر المدرسة فصار بعد حين في عداد القارئين ، لا في عداد المثقفين الذين يسايرون الحركة الفكرية ، ويغذون عقولهم كما يغذون أجسامهم .

وإنما يريد بالعلم هذا النشاط الذهني المتوقد ، وهذا النهـم إلى الاستزادة من المعرفة ، وليس أضر على العلم والمتعلم من أن يطلبه المتعلم للوظيفة وحدها :

واطلبوا العلم لذات العلم لا لشهادات وآراب آخر
كم غلام خامل في درسه صار بحر العلم أستاذ العصر
ومجد فيـه أمسى خاملا ليس في من غاب أوفى من حضر ^(٣)

(٢) الشوقيات ١/ ٢٢٦

(١) الشوقيات ١/ ٣٣١

(٣) الشوقيات ١/ ١٤٨

ويقول :

وكم منجب في تلقى الدرو من تلقى الحياة فلم ينجب^(١)

ويقول في (أسواق الذهب) تحت عنوان (شهادة الدراسة وشهادة الحياة) :
« ما بال الناشئ وصل اجتهاده ، حتى حصل على الشهادة ، فلما كمل بأحرفها عينيه ،
وظفرت بزخرفها كلتا يديه ، هجر العلم وربوعه ، وبعث إلى معاهده بأقنوعة . طوى
الدفاتر ، وترك المحابر ، وذهب يخاليل ويفاخر » ويدعى علم الأوائل والأواخر ،
فمن ينبيه أن الشهادة طرف السبب ، وفاتحه الطالب ، والجواز إلى أقطار العلم والأدب ؟
ومن يقول له — أرشده الله — : إن شهادة المدرسة غير شهادة الحياة ؟ »^(٢).

تعليم الفتاة

حرض شوقي على تعليم الفتاة ، لأنها بعد حين الأم التي تلد الأطفال أو الأشبال ،
وتربيهم على أحسن مثال ، الأم التي تستحق كلمة نابليون : إنها تهن المهد بيمينها ،
وتحرك العالم بيسارها .

(١) ففي رأيه أن اليتيم ليس هو الطفل الذي مات والداه ، وإنما هو الطفل الذي
لا يستطيع أبواه أن يربياه ويُسهرهما في تعليمه :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاء ذلي — لا
فأصاب بالدنيا الحسيسة منهما وبحسن تربية الزمان بدلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له أما تخلت أو أبا مشغولا^(٣)

(٢) ويبين أثر الأم في قوله إنه — لولا التقى — لقال إنها هي التي خلقت طفلها ،
وإنها هي التي تطبعه فيكون فسلا أو عظيما ، غويا أو راشدا ، لأنه صورة من تربيتها ،
يردد ما سمع منها ، ويتشكل بما شكلته به :

لولا التقى لقلت لم يخلق سواك الولدا
إن شئت كان العير أو إن شئت كان الأسد

(٢) أسواق الذهب ٨ د

(١) الشوقيات ٢ / ١٨٦

(٣) الشوقيات ١ / ٢٢٧

وإن تُردَّ غَيًّا غَوَى أو تبغ رشدا رشدا
واليت أنت الصوت فيـــــــــــــــــه وهو للصوت صدى
كالبغـــــــــيا في قفص قيل له فقهـــــــــــــــــا لدا
وكالقضيب اللدن قد طارح في الشكل اليدا
ياخذ ما عودته والمزم ما تسودا^(١)

(٣) لذلك يدافع عن حق النساء في التعلم ، فيضرب المثل بحاطن في صدر الإسلام ، وفي عصور الازدهار ، ويفاخر بما كان لمن آثار :

هنا رسلـــــــــول الله لم ينقص حقوق الأمهات
العلم كان شريعة لنساءه المنفقات
رُضن التجارة والسيا سة والشئون الآخريات
ولقد علمت بناته لجج العلوم الزاخرات
كانت ســـــــــكينة تملأ الد نسا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفُـسرت آى الكتاب البينات
وحضارة الإسلام تـد طق عن مكان المسلمات
بغــــــــداد دار العالما ت ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمــــــــية أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس تـــــــــمىــــــــن الهافتات الشاعرات^(٢) .

(٤) ولهذا كان شوقي أسيفا من بطء خطا الفتيات إلى المدارس ، لأن تعليمهن أجدر بالعناية من بناء الحصون والقلاع ، فمن اللائى سيلدن النابغين ويربينهم ، وينجبن الأبطال ويرضعنهم ، وينشئن للأمة جيلا عظيم الأخلاق .

يقول فى رثاء عاطف بركات باشا وكيل وزارة المعارف :

أرى التعليم لما زلت عنه ضعف الركن مخذولا مضاعا

.....

قم ابن الأمهات على أساس ولا تبين الحصون ولا التلاع
 فمن يلدن للقصب المذاكي وهن يلدن للغاب السباعا
 وجدت معاني الأخلاق شتى جسمين فكُن في اللفظ الرضا^(١)
 (٥) وليس من سبيل للنهوض بالوطن إذا جهلت الأمهات ، وجهل الأمهات
 بمصر جعله يشفق على المعلمين ، لأنهم وسدتم ينهضون بأعباء التعليم ، ولا يجدون
 عوناً من الأمهات ، والأمهات الجاهلات يرضعن أبناءهن جهلاً ونحو لا :
 إني لأعذرکم وأحسب عباکم من بين أعباء الرجال ثقيل
 وجند المساعدة غيرکم وحرمتم في مصر عون الأمهات جليلا
 وإذا النساء نشأت في أمة رضع الرجال جهالة ونحو لا^(٢)
 (٦) وبعد فقد كان شوقي قوى الإيمان بقيمة المرأة في إنهاض الأمم ، عظيم الأمل
 في أن تنهض بمصر ، وفي ديوانه مظاهر شتى لإيمانه وأمله ، منها تمجيده للأشي في قصيدته
 (مملكة النحل) :

مملكة مدبرة بام — رأة مؤمره
 تحمل في العمال والص — ناع عبه السيطره
 فاعجب لعمال يؤلو ن عليهم قيصره

.....

تحكم فيه قيصره في قومها موقره
 من الرجال وقيو د حكمهم محرره
 الملك للإناث في الد ستور لا للذكره

.....

أنى ولكن في جنا حيا لباة نخدره

.....

(١) الشوقيات ١٠٨/٣ القصب : الخطر الذي يتراهن عليه المتسابقون . المذاكي : الخيل المستكملة القوة

(٢) الشوقيات ٢٢٧/١

وهم الأبطال كانت حربهم منذ شنوها على الجبل عوانا^(١)
أما العلم الذي يفتن في ابتكار معاول التدمير والتخريب ، والإزهاق والإحراق ،
وتسليط الحق على الباطل ، والشر على الخير ، فالجبل خير منه . يقول في قصيدته
التي وصف فيها الغواصة :

فلا كان بانيها ولا كان ركبها ولا كان بحر ضمها وحوها
وأف على العلم الذي تدعونه إذا كان في علم النفوس رداها^(٢)
ويقول في رثاء مصطفى فهمي باشا معرجا على الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ :
يتقاذفون بذات هول لم تهب حرم المسيح ولا حمى العذراء
من محدثات العلم إلا أنها إثم عواقبها على العلماء^(٣)

مكانة المعلمين

مجد شوق العلم والمتعلمين تمجيذاً ، فما قدر المعلم في نظره ؟
إنه لقدرة عظيم ، وبحسبه أنه يكاد يكون رسولا ، وأن الله تعالى هو المعلم الأول ،
علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وأنه ابتعث الأنبياء معلمين . وليس في الأمة أعظم
من المعلم أثرا ، ولا أجل خطرا ، لأنه يبني نفوسا وعقولا .
والمعلمون هم الذين يحملون العبء ثقيل ، وهم هداة الأمم إلى الخير والحق ،
وقادتها إلى العزة والكرامة ، لذلك قال بسمرك بعد حرب السبعين : إنما غلبنا جارتنا
(يريد فرنسا) بمعلم المدرسة .
قال شوقي :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشيء أنفسا وعقولا

(١) الشوقيات ٢٣٩/٢ الرعان : جمع رعن : الجبل الطويل . طبقات الهند : السيوف . السمر
اللدان : الرماح القوية (٢) الشوقيات ١٣٤/٢ (٣) الشوقيات ٥/٣

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الإنجيل
وفجرت ينبوع البيه ان محمد فسقى الحديث وناول التنزيلا^(١)

الجامعة المصرية

نادى مصطفى كامل منذ سنة ١٩٠٤ بإنشاء جامعة أهلية ، تسكفل لمصر انطلاق
التعليم من قيود السيطرة الحكومية ، ورقابة الاحتلال ، وتضييقه المجال^(٢) .
وأيده في دعوته بعض الأمراء والأثرياء ، وجمعت أموال لإنشاء الجامعة ،
ثم ركزت الحركة .

وبعد دعوته بعامين اثنتف بعض المصريين الدعوة ، وألفت لجنة لجمع المال ،
أشرف عليها سعد زغلول وقاسم أمين — وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف —
ثم وقفت الحركة مرة ثانية ، لأن الاحتلال أراد أن يلوى المصريين عن الجامعة ،
فزين لهم العناية بالإكثار من الكتاتيب ، ودعتهم الحكومة إلى التبرع لها .
لكن تعويق الاحتلال لم يفت في عزائم الدعاة ، لأنهم أيقنوا أن لورد كرومر
يتشوق إلى إخفاق مشروعاتهم ، ليضمن أن تبقى مناهل العلم في قبضة الإنجليز ، فيتعلم
الشباب ما يريد الاحتلال أن يعلمه ، ويتخرج مستهيناً بقوميته وبتراثه وبماضيه ،
لأنه يحمله ، أو لأنه يعلمه مشوهاً بمسوخا .

وكان من أثر جهادهم أن بعث المشروع ثانية في سنة ١٩٠٨ ، وافتتحت
الجامعة في ٢١ ديسمبر من السنة نفسها .
وكان لشوقي نصيب في الإشادة بالجامعة .

فهو في رثائه لقاسم أمين سنة ١٩٠٩ يشيد بجهده في إنشاء الجامعة ، ويصفها بأنها
مشرق النور في الشرق ، وبأنها كانت أملا يرجوه المستنيرون :

لله جامعــــــــــــــــة نهضت بأمرها هي في المشارق مصدر الأنوار

(١) الشوقيات ١/٢٢٤

(٢) اللاواء ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ و ٨ يناير سنة ١٩٠٥

أَمْنِيَّةُ الْعُقُلَاءِ قَدْ ظَفَرُوا بِهَا بَعْدَ اخْتِلَافِ حَوَادِثِ وَطَوَارِي
وَالْعُقُلُ غَايَةَ جَرِيهِ لِأَعْنَةِ وَالْجَهْلُ غَايَةَ جَرِيهِ لِعِشَارِ
لَوْ يَعْلَمُونَ عَظِيمَ مَا تُرْجَى لَهُ خَرَجَ الشَّحِيحُ لَهَا مِنَ الدِّينَارِ
تَشْرِى الْمَمَالِكُ بِالدَّمِ اسْتِقْلَالَهَا قَوْمُوا اشْتَرَوْهُ بِفَضَّةٍ وَفَضَارِ
بِالْعَلَمِ لَمْ يُدْنِ الْمَلِكُ حَقَّ بِنَائِهِ وَبِهِ تُنَالُ جُلُ الْإِخْطَارِ
وَلَقَدْ يَشَادُ عَلَيْهِ مِنْ شُمِّ الْعِلَاءِ مَا لَا يَشَادُ عَلَى الْقَنَا الْخَطَّارِ^(١)

وفى سنة ١٩١٤ أهدت الأميرة فاطمة إسماعيل إلى الجامعة أعظم هبة نالتها ، ذلك بأنها وقفت عليها ستمائة فدان من أجود أطيانها ، ومنحتها ستة أفدنة بالدقى ليقوم عليها بناؤها ، وتبرعت لها بجواهر وحلى قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه لتنفق فى البناء ، فقبول سخاؤها هذا بالابتهاج والشكر ، ووضع الحجر الأساسى للجامعة فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٤ بحضور الخديو عباس . فحيا شوقى الأميرة والخديو بقصيدة أشاد فيها بآثار الجامعة ، وحنه على العناية بالتعليم :

يا بَارِكُ اللَّهِ فى عَبَّاسٍ مِنْ مَلِكٍ وَبَارِكُ اللَّهِ فى عِمَاتِ عَبَّاسٍ
وَبَارِكُ اللَّهِ فى آسَاسِ جَامِعَةٍ لَوْلَا الأَمِيرَةُ لَمْ تَصْبَحْ بَآسَاسٍ

.....

وَأَلِقَ فى أَرْضِ مَنْفِ أَسْ جَامِعَةٍ مِنْ نَوْرِهَا تَهْتَدِى الدُّنْيَا بِنَبْرَاسِ^(٢)
وَلَمَّا افْتَتَحَتْ مَنشَأَتَهَا فى مَكَانِهَا الْخَالِىَ بِالْجِيزَةِ سَنَةَ ١٩٣١ قَالَ قَصِيدَةَ نَوْهٍ فِىهَا
بِآثَارِ الْجَامِعَةِ :

مَا هَذِهِ الْغُرَفُ الزَّوَاهِرُ كَالضُّحَا الشَّائِخَاتُ كَأَنَّهَا الْأَعْلَامُ ؟
مِنْ كُلِّ مَرْفُوعِ الْعُمُودِ مَنْوَّرٍ كَالصَّبْحِ مَنْصَدِعٍ بِهِ الْإِظْلَامُ
تَتَحَطَّمُ الْأُمِّيَّةُ الْكُبْرَى عَلَى عَرَصَاتِهِ وَتَمَزَّقُ الْأَوْهَامُ
هَذَا الْبِنَاءُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَنَارَةِ وَقَوَاعِدُ الْحَضَارَةِ وَدَعَامُ

مَهْدٌ تَهِيَا لِلْوَلِيدِ وَأَيْكَةُ سِيرَتٌ فِيهَا بَلْبِلٌ وَحَمَامٌ
شُرُفَاتُهُ نَوْرُ السَّبِيلِ وَرُكْنُهُ لِلْعَبْقَرِيَّةِ مَنْزِلٌ وَهَقَامٌ

.....

كَمْ نَسْتَعِيرُ الْآخَرِينَ وَنَجْتَسِدِي مِهْمَاتٍ مَا لِلْعَبْقَرِيَّةِ أَرِيَّاتٍ دَوَامٌ

.....

أَرَأَيْتَ رَكْنَ الْعِلْمِ كَيْفَ يُقَامُ أَرَأَيْتَ الْإِسْتِقْلَالَ كَيْفَ يُرَامُ ؟
الْعِلْمُ فِي سَبِيلِ الْحَضَارَةِ وَالْعِلَا حَادٍ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ وَزِمَامُ
بَنَى الْمَمَالِكِ حِينَ تَنْشُدُ بَانِيَا وَمُشَابَهُ الْأَوْطَانِ حِينَ تَضَامُ^(١)

.....

وكان يأمل أن تنشئ مصر جامعة للفتيات . يقول في رثاء الأميرة فاطمة إسماعيل

سنة ١٩٣٠ :

يَا جَزَعَ الْعَالَمَ لَمْ عَلَى سُبُكَيْنَةَ الْمَوْقُورِهِ

.....

مَنْ ذَا يُؤَسِّى هَذِهِ الْجَامِعَةَ الْمُسْتَعْبِرَةَ
لَوْ عَشَتْ شَدَتْ مِثْلَهَا لِلرَّأَةِ الْمَحْرُورَةِ^(٢)

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة في رأى شوقي نفحات من الله جمّل بها الحياة وعطّرها ، وهذب بها
النفوس ، ورقّق الطباع ، وأرجع إلى الناس نشاطهم إذا ما فترّوا ، وأملهم إذا ما يئسوا ،
والفنّ الجميل زينة الممالك وحلاها .
يقول في رثاء سيد درويش :

لَا تَرِقْ دَمْعًا عَلَى الْفَنِّ فَلَنْ يَعْصِمَ الْفَنُّ الرَّعَاةَ الْأَمْنَاءَ

(١) الشوقيات ٢/٤ (٢) الشوقيات ٩٧/٣ المستعبرة : الباكية

هو ط — ير الله في ربوته
روح الله على الدنيا به
تكتسى منه ومن آذاره
وإذا ما حُرمت رِقَّتْهُ
وإذا ما سُمِّت أو سَقِمَتْ
وإذا الفن على الملوك مشى
يبعث الماء إليه والغذاء
فهي مثل الدار والفن الفناء
نفحة الطيب وإشراق البهاء
فشت القسوة فيها والجفاء
طاف كالشمس عليها والظواء
ظهر الحسن عليه والرواء^(١)
والشعراء في رأيه هم الناس ، لأنهم الكلمة في الحيوية وفيض الشهور
جاذبتني ثوبي العصى وقالت أنتم الناس أيهم الشعراء^(٢)

(١) الشوقيات ١٦/٣

(٢) الشوقيات ١٣٩/٢

الفصل العاشر الجيش

صوت يهتف صلياً أو يندب فيقالها المجرم

(شوق)

دعا شوقي إلى السلام ، وحببه إلى الأنام ، على أن يكون الوسيلة إلى الحياة الحرة
الأيمة . لكنه مجّد القوة تمجيداً ما لم يكن بد من الحرب .

وقد أوحى إليه بيئته السياسية ، ودراسته التاريخية ، وأحداث عصره التي شهدها
أن الأمة لا حياة لها في هذا العالم المستأسد إلا إذا أدرعت بالجيش .

فمحمد على شيد مملكته وطيدا على دعائم جيشه ، وإسماعيل بسط ملك مصر
بسواعد جنده ، ومصطفى كمال أحيا تركيا وحصنها بعدده وعديده ، ومصر غلبت
على أمرها لما أمن الإنجليز رهبة جيشها .

فلا عجب أن يمجّد شوقي — وهو عالم بهذا كله — القوة برية وبحرية وجوية .
ولا عجب أن يكثر من دعوة الأمة إلى أن تتسلح ، بل العجب لو أنه تغافل ، أو لبس
مسوح النساء ، فزين السلم والدعة لمصر ، لتقابل الإساءة بالإحسان ، والعدوان
بالصفح والغفران .

كان شوقي ينهز المناسبات فيشيد بالقوة ، ويصور حزنه من ضعف مصر ، ويصيح
في مصر أن هبّ ، واجمعي جموعك ، وجيشي أشبالك وأبطالك .

آلام من ضعف مصر

تخيل في إحدى قصائده أن توت عنخ آمون جزع لما رأى العرين مستباحا
لا تحميهِ أسد ، ولا تقيه أسلحة ، فليس في البر جيش ولا في البحر أسطول :
قل لي : أحين بدا الشرى لك هل جزعت على العرين ؟

آنت مُلْكَا لِس بالشـاكى السلاح ولا الحصين
البر مغـلوب القنا والبحر مسلوب السفين
لما نظرت إلى الدنيا رصَدْتُ بالقلب الحزين^(١)

وبثه همه فى قصيدة أخرى، لأن مصر قد صُدَّت عن مؤتمر لوزان، استهانة بها، لأن صوتها لا يُرْهب، وجيشها لا يزعج، ولو أنها كانت ذات عدة وعديد لخطبت الدول ودها، وتطامنت لها. وبحسبها من الحزى أن كروزن وزير إنجلترا ومندوبها فى المؤتمر سيمثل مصر على أنها مستعمرة إنجليزية، أو أمة قاصرة وإنجلترا هى الوصية :

أتعلم أنهم صَلَفُوا وتاهوا وصدُّوا الباب عنا مُوصِدِينَا؟
ولو كنا نجرُّ هناك سيفًا وجدنا عندهم عَطْفًا ولينا
سَيَقْضَى كُرْزُنْ بالأمر عنا وحاجات الكنانة ما قُضِينَا^(٢)
وأحزنه أن تنكبد مصر نفقات جيش الاحتلال، ويحرم جيشها أن يتقوى بما لها :

هَلَّا بَكَيْتُمْ لِمَال تَشْتَرُونَ به من نصف قرن مضى رِقًا وإذعانا
يعان أغنى جيوش العالمين به وجيشكم عاجز لم يَلْقَ مِعْوَانَا^(٣)
ومن عجب يبعث الأسى أن جو مصر الضاحى أكثر الجواء ملائمة للطيران، وأن تنز فيه طائرات الأمم، وليس لمصر فيه طائرة :

مصر للطير جميعاً مَسْرَحٌ ما لنا فيه ذُنَابَى أو جَنَاح
رُبُّ سَرَبٍ قاطع مَرُّ به هبط الأرض ملياً واستراح^(٤)
وإذا كانت إنجلترا تعوق نهضة جيشنا زاعمة أنه خطر على طريقها إلى الهند فهل يا ترى تعوقنا عن الطيران فى جونا، مدعية أنه أيضاً طريقها للهند ؟

(١) الشوقيات ١٢٠/٢ (٢) الشوقيات ٣٤٠/١ (٣) الشوقيات ٣٤٩/١

(٤) الشوقيات ١٩٤/٢

تلك أبواب السماء انفتحت ما وراء الباب يا طير النجاش ؟
 أسماء النيل أيضاً محرم من طريق الهند أم جور مباح^(١)
 وبث الشباب شكواه من ضعف مصر الحربى فى عصر يدين بالقوة :
 البر ليس لكم فى طول له لجم والبحر ليس لكم فى عرضه شرع
 وهو أسيف على الجيش المصرى الذى خاطر به إسماعيل فى فتح الحبشة .
 ذلك بأن مصر امتلكت زيلع وبربرة ، واحتلت هرر فى عهد إسماعيل ، فازداد
 يوحنا نجاشى الحبشة ضيقاً ، لأنه وجد مصر تهدد ملكه . وكان بعض المحيطين بالخديو
 إسماعيل يجاهدون بأن اكتساح مصر للحبشة أمر لازم لا مناص منه .
 وفى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ زحف الجيش المصرى إلى أسيرة ، فاستنفر يوحنا
 رعاياه فتقاطروا أفواجا . ثم نشبت موقعة (قندت) فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ففتك
 الجيش بالجيش المصرى فتكا ميّداً ، ولما عاودت مصر الكرة بجيش آخر لتشار
 هزمت فى موقعة (قرع) هزيمة فادحة ، ثم انتهت الحرب بعد أن تكبدت مصر نيّفاً
 ومليونين من الجنهات ، وبعد أن فقدت جيشها الأول وأكثر جيشها الثانى^(٢) .
 لم ينس شوقى هذه النكبة ، فلام إسماعيل فى قصيدته التى نشرها فى ١١ مارس
 سنة ١٨٩٥ إذ وصل جثمان الخديو من إيطاليا إلى القاهرة :

ليت لم تغش بعده فى حماها حبش المكر والخديعة أسدا
 سلبوا مصر أى جيش كريم كان للمجد والفخار أعدا
 أنت أنشأتها فلم تر مصر جحفلا بعده ولم تر جندا^(٣)

نخر بقوة مصر الحديثة

لم يحتبس شوقى يراعه فى الأسى والحسرة ، وإنما خايل بقوة مصر فى ماضيها
 القريب ، ليدگر به ، وليستنفض العزائم ، وليرجو من الأذهان الدعوى بأن مصر
 ضعيفة لا تقوى .

(١) الشوقيات ١٩٥/٢ (٢) تاريخ مصر للأيوبي ٧٣/٢ — ١٢١

(٣) الشوقيات ١٢١/١ لم تغش بعده : بعد فتح السودان . جعفل : جيش عظيم

من ذلك إعجابه بملك مصر الواسع في أوائل القرن التاسع عشر ، وتنويعه بجيشها
الباسل ، وفخره بأسطولها الذي كان يهبر ، وبفرسانها الصناديد الذين حالفهم الظفر .
وفي رأيه أن الجيش سلم العلا ، وسياج السودد :

حبذا دولة وملك كبير أنت باني ركنيهما يا محمد
ولواء في البر والبحر يعطى مظهر الشمس في الوجود وأزيد
تملا الأرض صافنات وتجرى لك في البحر كل برج مشيد
هكذا فلينل سماء المعالي من سعى في الوري لمجد وسودد^(١)
وكذلك إعجابه بالجيش المصرى :

كل يوم صرح يشيد للعالم وظل يمد في مصر ممددا
ولواء وعدة وعديد ونظام نرى به الشهب جندا
وغزاة في البيض والسود تبسغي مصر فيها مجددا مسترددا^(٢)

وقد أسلفت في فصل خاص (الفخر بمصر) أنه طالما تنفى بقوة مصر الفرعونية ،
ومجد ملوكها الأقوياء ، وخايل بمواكبهم وقد عادوا منتصرين .

دعوات إلى القوة الحربية

(١) صور تمجيده للقوة في حوار تخيله بينه وبين ابنته ، إذ جاءته تطلب لعبة لها ،
فقال لها : أنت محبة للسلم مبغضة للحرب ، ولكن الدعوة إلى السلم قد أخفقت
منذ زمن بعيد ، لأن الناس كالوحوش تفترس من لاسلاح يحميه . ثم قدم لها بندقية
تهلك الأعداء ، ورجا أن تستبدل بها أكبر منها إذا كبرت ، وبين لها أن البندقية تكفل
لها الحياة الحرة والسعادة والسلام . فنظرت إليه نظرة تدل على إعجابها من نزعت هذه ،
وهي تعلم أنه محب للسلام ، وأنه يدين بأن السلام أليق بالإناث .

فقال لها : لقد ضللت الحق لأنك صغيرة ، فلو تمثل الرسل جميعا في رسول واحد ،
وتمثلت الكتب السماوية كلها في كتاب واحد ، واجتمع الناس من قدماء ومتأخرين ،

(١) الشوقيات ١١٠/١ صافنات : خيل قوية (٢) الشوقيات ١١٦/١ غزاة : فتح

ووقف بينهم هذا الرسول خطيباً داعياً إلى السلام مرغبا فيه لأنصر فورا عنه جميعا فلم يسمعوا ، لأنهم صم عن الدعوى إلى السلام ، عمى عن يدعوهم إليه ، جاحدون لآثاره :

ولى طفلة جازت السنتين	كبعض الملائك أو أظهر
أتتني تسألني لعلَّ	لتكسرهما ضمن ما تكسر
فقلت لها : أيها الملاك	تحب السلام ولا أنكر
ولكن قبلك خاب المسيح	وباء بمنشوره القيصر
فلا ترجُ سلباً من العالمين	فإن السباع كما تظفر
ومن يعدم الظفر بين الذئاب	فإن الذئاب به تظفر
فإن شئت تحيا حياة الكبار	يؤمك الكل أو يحذر
فخذ هالك بصدق نارها	سلام عليك إذا تسهر

.....

ففيها الحياة لمن حازها	وفيها السعادة والمفخر
وفيها السلام الوطيد البناء	لمن أثر السلم أو يؤثر

.....

فلو جرى بالرسل في واحد	وبالكتب في صفحة تنشر
وبالأولين وما قُدموا	وبالآخرين وما أخسروا
لينض ما بينهم خاطباً	على العرش نص له منبر
يقول : (السلام) يحب السلام	ويأجركم عنه ما يأجر
لصم العباد فلم يسمعوا	وكف العباد فلم يسمعوا ^(١)

ويسوقه إيمانه بالقوة إلى تمجيدها وهو يتكلم عن النحل ، فمن يؤسس ملكا

(١) الشوقيات ٧٩/٤ السلام (الأول) : الله سبحانه

أو يصن عرشاً فالسلاحُ عُدته ، ولا مُلْكٌ إلا في ظلال البنود المنشورة ، والسيوف المشهورة . والملك عرين لا بدُّ له من أسدٍ يحميه بمخالبه القوية الحداد ، وأنياه الزرق الفواتك :

من يَبْنِ مُلْكًا أو يَذُدْ فبالقنْ _____ المجرَّره
ما المُلْكُ إلا في ذرا الـ ألوية المنشُـره
عَرِيْنُهُ مُذْ كَانَ لا يَحْمِيْهِه إلا قَسُورَه
رُبُّ النِيوبِ الزرق والـ مَخَالِبِ المَذْكُورَه (١)

(٢) لذلك رأى أن الممالك لا تقوى بالكلام ، ولا تبني على الأقوال ، وأن الحقوق لا تنال بالخطب الطوال ، وإنما تقوى الممالك وتشاد ، وتنال الحقوق وتضان ، بحد الصارم البتار ، لأن الأمم لا تحقق حقاً لا توازره القوة ، ولأن الخطب في المؤتمرات العالمية لا جدوى لها ما لم ترجع رناتها مدافع مدوية :

فقل لبانٍ بقول ركن مملكة على السكتائب يَبْنِي المُلْكُ لا السكتبـ
لا تلتبس غلباً للحق في أمم الحق عندهمُ معنًى من الغلبـ
لا خير في منبر حتى يكون له عود من السمر أو عود من القضبـ
تَلَسَّ التُّركُ أسباباً فما وجدوا كالسيف من سلم للعز أو سبب (٢)

ويكرر هذا المعنى حينما كان في الآستانة ، وشاهد بارجتين اشتريتهما تركيا من ألمانيا في عهد السلطان محمد رشاد .

ويضيف إلى الفكرة أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يعتمد على الحق أعزل من القوة ، بل آزر الحق بالجيش يدفع به العدوان ، ويمهد للدعوى سبيل الذيوع والاستقرار والاطمئنان :

زدهم أمير المؤمنين من القَوَى إن القُـوَى عز لهم وقوام

(٢) الشوقيات ١/٨٨ : السكتائب : الجيوش . السمر : الرماح .

(١) الشوقيات ١/١٦٩

القضب : السيوف المقاطعة

الملك والدول ما يبني القنا ، والعلم ، لا ما ترفع الأحلام
والحق ليس — وإن علا — بمؤيد حتى يحسوط جانبه حسام
خط النبي براحتيه خندقاً ومشي يحيط به قناً وسهام^(١)
ويختتم مناجاته لنابليون بونابرت بأن السياسة ما زالت تجري كما كانت في عهده
على الحتل والمكر وإعزاز الحق المستند إلى القوة ، والزراية بالحق الأعزل :
قيم تر الدنيا كما غادرتها منزل الغدر وماء الخادعين
وتر الحق عزيزاً في القنا هيناً في العزل المستضعفين^(٢)
(٣) رأينا شوقي يشيد بالقوة الحربية ، وهو بتمجيده لها ، وبيان آثارها ، داعية
إلى أن تعد مصر عدتها . وهو في أسفه على ضعف مصر الحربي داعية إلى أن تبدل
ضعفها قوة .

على أنه كثيراً ما دعا مصر إلى أن تتسلح .
من ذلك أنه حض الشباب على أن يتجهوا إلى تقوية الجيش إذا ما آل الحكم إليهم :
قل للشباب بمصر عصركم بطل بكل غاية إقدام له ولع
ماذا تعيدون بعد البرلمان له إذا خياركم بالدولة اضطلعوا ؟
البر ليس لكم في طوله لجم والبحر ليس لكم في عرضه شرع^(٣)
ونوه مراراً بشأن الجيش في عزة الدولة ، كقوله :

وما الملك إلا الجيش شأناً ومظهراً ولا الجيش إلا ربه حين ينسب
وما السيف إلا آية الملك في الوري ولا الأمر إلا للذي يتغلب^(٤)
وكقوله :

ولا حقيقة من ملك ومن وطن حتى ترى السيف دون الملك عريانا^(٥)
وإذ كان الطيران السلاح الذي أعدته الدول للنصر ، فقد سماه شوقي سلاح
العصر ، وتنبأ بأن الأمة التي لا تتقن نيران أعدائها بأجنحة من طائراتها مصيرها
الهزيمة والذلة . وقد تحقق ما تنبأ به .

(١) الشوقيات ٢٨٤/١ (٢) الشوقيات ٣١٨/١
(٣) الشوقيات ١٨٦/١ (٤) الشوقيات ٣٣، ٣٠/١
(٥) الشوقيات ٣٤٨/١

ثم ود أن تستكثر مصر منه لتعصم به سلبها ، وتستعصم به في كفاحها ، وعجب من شبان مصر الذين لا يستهويهم الطموح إلى أن يطيروا كما طار (صدقي) فتسكروهم مصر كما كرمته ؟

يا سلاح العصر بشرنا به كل عصر بكسبي وسلاح
إن عزاً لم يظلل في غد بجناحيك . ذليل مستباح
فتكاثرت وتألف فيلقاً تعصم السلم وتعلو للكفاح
لم لا يفتن فتيان الحمى ذلك الإقدام أو ذك الطّاح ؟
من قى حلّ من الجو بهم فتلقوه على هام وراح^(١)
ولما طار أحمد حسنين اهتز شوقي فرحاً ، لأن الطيران سلاح العصر ، فلا الخيل
ولا الرماح مجدية :

اثنان ثم ترى النصور كثيرة من كل ناحية لها أوكار
سر النجاح وركن كل حضارة همهم من المتطوعين كبار
هكذا زمان لا الأعنة منزل للبأس فيه ولا الأسنة دار
ما للبأس إلا من جناحي خاطف في البر والبحر اسمه الطيار^(٢)

ولما كانت الخلافة رابطة الدول الإسلامية أهاب شوقي بالمسلمين أن يكتبوا
لتقوية أسطولهم ، أسطول الخلافة إذ ذاك ، لأنه مأمنهم من سيل الحادثات الجارف ،
وعدتهم في الكفاح ، ووسيلتهم إلى العزة والسيادة ، ودينهم لا يرضاهم إلا أعزة :

يا معشر الإسلام في أسطولكم عز لكم ووقاية وسلام
جودوا عليه بمالككم واقضوا له ما توجب الألق والأرحام
سبيل الممالك جارف من شدة وقوى وأتم في الطريق نيام
حب السيادة في شمائل دينكم والجسد روح منه والإقدام^(٣)

(١) الشوقيات ١٩٤/٢ (٢) الشوقيات ٢١٢/٢ الأعنة : جمع عنان وهو سير اللجام والمراد

الخيول . الأسنة : جمع سنان وهو فصل الرمح والمراد الرماح (٣) الشوقيات ٢٨٥/١

القصيدة الحادية عشر

الجزئية

صوت الشعوب صرخ الزئير مجمعا

فإذا تفرق طاب بمصر صباح
شوقي

رأينا شوقي كلفا بمصر ، أسيفاً على استقلالها ، مولعاً بالدستور ، طروباً لكل عمل
يرفع من شأن مصر ، حرياً بالشباب وبالشعب يوجههم الوجهة النافعة للوطن .
فكان من الطبيعي أن يحزنه تطاحن الأحزاب وتهاورها ، ويحزنه أن يأسج بعضها
في العناد الحزبي ، ويركب رأسه ، فيلغى الدستور أو يوقفه ، ليستأثر بالحكم ويفتقم ،
أو ليحقق للإنجليز أو للقصر رغبة . وفي هذا مافيه من تجريح للنظام النيابي ، وتشهير
بسمعة القادة والحكام على اختلاف مذاهبهم ، وزعزعة للثقة التي يجب أن ترسخ
في القلوب للدستور والبرلمان .

وقد عابه الأستاذ العقاد بأنه « بمعزل عن الأمة في شعوره ، لا يخامرها بعطفه ،
ولا تخامره بعطفها ، ولا يناضل في ميدانها نضال من يهمه النصر والهزيمة . فما نصر
مذهبا قط بين مذاهب السياسة الوطنية إلا في إبان دولته القائمة ، أو في الوقت الذي
يأمن فيه سوء العاقبة . وقد كان هذا مفهوماً منه وهو في وظيفته مقيد بمراسم الديوان
وأحكامه ، وليس هذا بمفهوم منه بعد خروجه من الوظيفة إلا على الوجه الذي قدمناه
عن شعوره بالوطنية » (١) .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي . العقاد ١٨٥

وفي هذا الرأي غمط لشوقي ، لأن محور شعره السياسي مناهضة الاحتلال ، والدعوة إلى الاستقلال ، ومشاركة الأمة في شعورها ، كما سبق .

وقد ناصر الحزب الوطني في إبان قوته ، ثم أشاد بذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٥ ، وسنة ١٩٣٦ في وقت صار فيه الحزب الوطني أخفت الأحزاب صوتاً^(١) .

ولم يشايح حزباً على حزب ، لأنه كان يعتقد أن الأحزاب كلها تسعى في ميليل الوطنية ، لذلك ناصر الحزب الوطني كما عرفنا ، فلما ضعف الحزب وخلفه الوفد وآزرتة الأمة ناصرته شوقي . حتى إذا تعددت الأحزاب وانحرفت عن الجادة ، وتهافتت على المغامرات نأى عنها جميعاً ، وآثر أن يكون قومياً ينطق بلسان مصر ، ويمجد العاملين المخلصين من أي حزب .

فهو إذا لم يحصر نفسه في نطاق الحزبية الضيق ، الذي يغمط الفضل ، ويحدد المكرمة ، ويقهر الكفاية .

ومن هنا اتصل بهؤلاء وأولئك ، وراقه عمل هنا فأطراه ، وعمل هناك فنوه به . ولم يمنعه ذلك من لوم من قدرهم أمس إذا ما تنكبوا الطريق الذي يراه ودليلنا على قوميته أن أصفياه لم يكونوا على نحلة واحدة ، فقد عقد صلات الود برجال لا يصرهم مذهب سياسي ، وظل كذلك طوال حياته . وتفجع لوفاة رجال لا آصار بينهم إلا الوطن يجمعهم ومآثرهم تنطقه برثائهم ، وبللت مراثيه ثرى رجال من أحزاب متباينة .

وقد أسلفت صلته بمصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، وتاريخه ينبىء عن صلات بغيرهم كسعيد زغلول وعبد العزيز جاويز وعبد الخالق ثروت وغيرهم ، ومراثيه تتناول كثيراً من رجال ليسوا من حزب واحد ، كسليمان أباطة ، ومصطفى فهمى ومصطفى كامل ومحمد فريد وعاطف بركات وعلى أبى الفتوح وأمين الرافعى وبطرس غالى ورياض ثروت وسعد وجاويش .

ومن هؤلاء وأولئك من فرقهم الرأي واحتدم بينهم النضال ، وانشعبت بهم المسالك ، ولكن قبلتهم في نظر شوقي واحدة ، وكلهم يريدون الاستقلال لمصر .

ولست مع القائلين إن شوقي كان يمالئ الجماهير فيطرب لما تطرب ، ويحاريها فيما تحب وتكره ، لينال إعجابها وتقديرها وتقديرها له ، لأنه كلف ببناء الناس عليه ، وإن هذا هو السبب في تناقض آرائه السياسية الحزبية .
فهذا الرأي ليس أقل قسوة من سابقه ، لأن شوقي لو كان تابعاً للجمهور يترضاها مانقده في عشرات الآيات فقدأمرأ ، ولو أنه يحاري الجمهور فيحب مايجب ، ويكره ما يكره ، جلبها للشهرة وحسن الأحدوثه ، لدان بمذهب الوفد حياته .
وليس أعجب من الدعوى بأن شوقي كان ترجمان الجمهور ولم يكن رائده وقائده .
ويكفي في دحضها صيحاته الإصلاحية ، ودعواته إلى أمور ما كان الشعب ليدعو إليها ، بل لم يكن ليفهمها حق الفهم ^{مهم}

سخط على الانقسام

في إحدى قصائده سنة ١٩٢٤ عرج على الشقاق وما جنى ، فذكر في مرارة وحسرة أن بعض المصريين صادتهم حبايل الاستعمار ، فشردوا عن الحق ، وتسكبوا طريق الجمع ، وكان الخير لمصر في أن تقف صفأ واحداً كالبنيان المرصوص في وجه المستعمر كما وقفت في الثورة من قبل ، وعندئذ ليغلبن الحق الأعزل الباطل المدجج .
وذكر المنشقين بأن إنجلترا اغتصمت ضعف مصر في فرقها فطردت جنودنا من سوداننا ، وعاملتنا معاملة لا تقرها كرامة . ثم سألهم : لماذا تحترم مصر وتهاب ؟ أهى يد واحدة وقلب واحد ورأى واحد؟ كما كانت سنة ١٩٢٠ حين قدم إليها لورد ملنر وأعوانه ، فقاطعتهم مصر ، وأحالتهم على وفدها الموكل عنها للدفاع عن حقوقها ، حتى لقد كان الاتصال بلجنة ملنر جريمة ، يتحاشاها الذين قد تقسروهم ظروفهم على الاتصال بها :

وتفيموا الدستور تحت ظلاله	كنفأ أهش من الرياض وأنضرا
لا تجعلوه هوى وخلفاً بينكم	ومجر دنيا للنفوس ومثجراً
اليوم صرحت الأمور فأظهرت	ما كان من خدع السياسة مضمرأ

قد كان وجه الرأي أن تبقى يدًا ونرى وراء جنودها إنكاثرا
 فإذا أتننا بالصفوف كثيرة جئنا بصف واحد لن يسكرا
 غضبت فغض الطرف كل مكابر يلقاك بالخذ اللطيم مصعرا
 لم تلق إصلاحا تهاب ولم تجد من كلة ما كان أعياء ملنا
 حظ رجونا الخير من إقباله عاث المفرق فيه حتى أدبرا^(١)

ويظهر أن الفرفة في سنة ١٩٢٤ و ١٩٢٥ كانت ذات ونز أليم لشوقي ، فقد عرض لها في قصيدة (شهيد الحق) في الذكرى السابعة عشرة لمصطفى كامل ، فافتتح القصيدة بتأنيب المختلفين المتناحرين ، لأنهم يتناحرون على آراب ذاتية ، فيضعفون مصر ، ويضيعون حقوقها ، وبلغ به الحنق عليهم فسماهم رماة سوء ، وشبههم بخلايا السرطان . وكان الصراع في هذه الفترة عنيفا بين الوفد والأحرار الدستوريين ، فلم يؤثر شوقي حزبا على آخر ، لأنه كان كما قلت من قبل قوميا لا يشايح حزبا على حزب ، بل لعله كان إلى ذلك الوقت أميل إلى الحزب الوطني ، لأنه سائر نشأته ، وآزر مصطفى كامل كما قلت في موضع آخر ، ولأنه لم يجد من رجاله في سنة ١٩٢٥ من التهافت على الحكم ، والتراشق بالتهمة ما وجد في حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين :

إلام الخلف بينكم إلاما وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
 وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاصا
 وأين الفوز ؟ لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما
 شبيتم بينكم في القطر نارا على محته كانت س — — — إلاما
 إذا ما راضها بالعقل قوم أجد لها هوى قوم ضراما
 تراميتم ففقال الناس : قوم إلى الخذلان أمرهم ترامي
 وكانت مصر أول من أصبتم فلم تخص الجراح ولا السكلاما
 إذا كان الرماة رماة سوء أحلوا غير مرماها السهاما

أبعد العروة الوثقى وحنيد كأنياب الغضنفر لن يرأما
تباغيتكم كأنكم خلايا من السرطان لا تجد الضمما^(١)
وكرر عليهم مرة ثانية في سنة ١٩٢٥ في قصيدة (بنك مصر) إذ افتتح القصيدة
بالسخط على المقسمين المصطرعين ، واستغرق سخطه ثلاثة وعشرين بيتاً ، منها :
مشينا أمس نلقاها جميعا ونحن اليوم نلقاها فرادى
تلاقينا فلا نجد الصياصي ونلقاها فلا نجد العتادا
ومن لقي السباع بغير ظفر ولا ناب تمزق أو تفادى
خفضنا من علو الحق حتى توهنا السيادة أن نسادا
ولما لم نسل لل سيف رداً تنازعنا الجمال والنجادا
وأقبلنا على أقوال زور تجيء الغي تغلبه رشادا
ولو عدنا إليها بعد قرن رحنا الطرس منها والمدادا

.....

هنيئاً للعدو بكل أرض إذا هو حل في بلد تعادى
وبعدا للسيادة والمعالي إذا قطعاً القرابة والودادا^(٢)

.....

وفي قصيدته (مشروع ٢٨ فبراير) يلوم المتفانين بجهودهم وجهادهم في القضية
الوطنية ، لأن الفخر أثرة واعتداد وكبرياء ومن ورياء ، وشبه هؤلاء بجنود في جيش
مقاتل لحوا بوارق النصر فألقوا سلاحهم ، واستبقوا إلى الغنائم والمنازعة عليها ،
فلا جرم أن يغلبوا ويقتلوا ، كما حدث للمسلمين في غزوة أحد . وحضهم على أن يدعوا
تقدير جهادهم للتاريخ ، فإنه أعدل منهم وأولى بالحكم :

ضموا الجهود وخلوها منكراً لا تملأوا الشدق من تعريفها عجبا

أفى الوغى ورحا الهيجاء دائرة تحصون من مات أو تحصون مأسلبا
خلوا الأكاليل للتاريخ إن له بدأ تؤلفها درأً ومخشلبا
أمر الرجال إليه لا إلى نفر من بينكم سبق الأنباء والكتبا
أملى عليه الهوى والحق قد اندفعت يداه ترتجلان الماء واللها
إذا رأيت الهوى فى أمة حكما فاحكم هنالك أن العقل قد ذهباً^(١)

فرجه بالوئام

فإذا ما تصافت الأحزاب واتحدت كلمتها ، وتوحدت غايتها ابتهج شوقى .
وإن فرحته لتتجلى فى قصيدته (المؤتمر) التى قالها فى المؤتمر السياسى الذى
اجتمعت فيه كلمة الأحزاب على إنقاذ الدستور فى ١٩ فبراير سنة ١٩٣٦ برئاسة
سعد زغلول .

ففى هذه القصيدة حيا الحرية وشهداءها فى أبيات روائع ، ليدكر المؤتمرين
بغايتهم السامية التى يجب أن يقصدوا إليها متآزرين ، وليذكرهم بحقوق شهداء الوطن
على سياسة الوطن . ثم أردف بتجنيته البشرى إلى مصر بائتلاف أحزابها . وإنها
لبشرى تهتز لها مصر كلها حتى نباتها ، ويتجدد لها نشاطها ، وتجمل حياتها كأنها الربيع .
وكيف لا تهتم مصر ؟ وقد تصافى زعمائها ، وتصالحت أقلام كتابها ، وعما الود والصفاء
ضغائن الصدور ، وتناقل المجتمعون من السياسة عبارات العتي ، وتنقلوا بها حول
الموائد ، وترقرق فى نظراتهم البشرى ، فأينما جلست بعينيك لا ترى إلا عناقا
أو مصافحة .

ولقد طرب شوقى لهذا الاتحاد ، لأنه الكفيل بأن يعيد الدستور المعطل ، ويجمع
الملسكات المتنوعة فى خدمة مصر :

بشرى إلى الوادى تهز نباته هز الربيع مناكب الأدواح
تسرى ملحة الحبول على الربا وتسيل غرتها بكل بظاح

التأمت الأحزاب بعد تصدع
سُجبت على الأحقاد أذيال الهوى
وتصافت الأقلام بعد تلاح
ومشى على الضغن الوداد الماحي
وجرت أحاديث الوداد كأنها
سمرٌ على الأوتار والأقداح
ترمى بطرفك في المجمع لا ترى
غير التعانق واشتباك الراح
ثم يشيد مرة ثانية بسعد زغالول وتضحيته واستجابته للصفاء .
ويصور آثار الائتلاف في قوله :

شقى فضائل في الرجال كأنها
شقى سلاح من قنا و صفاح
فإذا هي اجتمعت لمالك جبهة
كانت حصون مناعة ونطاح
الله ألف للبلاد صدورها
من كل داهية وكل صراح

ثم ينصح الشباب ، ويبين لهم جدوى الاتحاد وجريرة الفرقة ، فحصر المتحدة
صخرة ترتطم بها الحادثات فتتكسر ، ومصر المتفرقة مصدوعة القوى واهية ، ويصور
صيححتها وهي متحدة بزئير يعب ، وصوتها وهي منقسمة بتباح لا يرهيب . وليس أولى
من تشبيه الصوت المتحد بالزئير ، وتشبيه الصوت المتفرق ببعض النباح :

أنتم بنو اليوم العصيب نشأتم
ورأيتم الوطن المؤلف صخرة
في قصف أنواء وعصف رياح
في الحادثات وسيلها المجتاح
وشهدتم صدع الصفوف وما جرى
من أمر مُفتات ونهى وقاح
صوت الشعوب من الزئير مجمعا
فإذا تفرق كان بعض نباح^(١)

ويشيد بالائتلاف في قصيدة أخرى^(٢) .

ولما احتفل بذكرى مصطفى كامل في فبراير سنة ١٩٢٦ قال شوقي قصيدة ناجاه
فيها ، ثم زف إليه البشرى بأن الأمة موحدة الرأي بعد الفرقة ، ملمومة الشمل بعد

(١) الشوقيات ١٩٠/٢ مملحة الحجلول : جميلة مزدانة . الحجلول : الخلاخيل . قنا : رماح .
صفاح : سيوف . مفتات : مستبد
(٢) الشوقيات ٢٠٧/٢

الصدق ، قد وُحِدَ بينها الأَلم فاستنفاقت من الخَدَرِ وَخَتَلَ العدو المنتصب ، هدفها الاستقلال وحده . وجميل تشبيهه الاستقلال بخلية النحل يحرسها بإبره ، وتصويره مصر بعد الاتحاد بآيث يحمي عرينه ، وتذكيره البرلمان المؤتلف بهذا ، وبأن مصر تراقب ما يعمل :

قم تر القوم ككتلة	مثـ ل ملهومة الصخر
جسدوا ألفة الهوى	والإخاء الذى شطـر
ليس للخلف بينهم	أو لأسبابه أثر
ألفهم رواح	غاديات من الغير
وصحوا من منوم	وأفاقوا من الخدر
أقبلوا نحو حقهم	ما لهم غيره وطـر
جعلوه خلية	شرعوا دونـا الإبر
وتواصوا بخطـة	وتدأوا مؤتمـر
وقصـا رى أولى النهى	يتلاقون فى الفكر
آذنونا بموقف	من جلال ومن خطر
نسمع الليث عنده	دون آجاءـه زأر
قل لهم فى نديمهم	مصر بالباب تنتظر ^(١)

وفى رثائه لعبد الحميد أبى هيف — أحد الفقهاء الذين عارضوا مشروع ملـر معارضة قانونية قيمة — سنة ١٩٢٦ ناجاه بجبرته من الائتلاف كما ناجى مصطفى كامل فى قوله :

عبد الحميد ألا أسرك حادثا	يكسو عظامك فى السرى السراء
قم من صفوف الحق تلق كتيبة	ملهومة وتر الصفوف سواء
وتر الكنانة شديها وشبابها	دون (القضية) عرصة وفداء
جمع السلام الصحف من غاراتها	وتألف الأحزاب والزعماء
فى كل وجدان وكل سريرة	خلف الوداد الحقد والبغضاء ^(٢)

(١) الشوقيات ١٠٠/٣ وطر : غرض . أولو النهى : العقلاء . آجاءه . جمع أجنة وهى الغابة .
(٢) الشوقيات ١٠/٣ نديمهم : برلمانهم

الفصل الثاني عشر

وحدة المسلمين والأقباط

إمامنا محمد بن مسلمة وقبطا
أمة وصهرت على الكرم وال
شوق

(١) منذ وفد عمرو بن العاص على مصر عاش المسلمون والقبط إخوة يشتركون في السراء ، ويتآزرون في الضراء ، ويوطدون علائقهم على دعائم من الصفاء والإخاء . فإذا ما ترقق الود في بعض الفترات فسرعان ما يعود إلى صفائه غير مشوب بأكدار .

لكن الاستعمار حاول أن يقذف في قلوب المصريين ما يستطيع من عداوة وشحناء ، لتتصدع الوحدة ، فينبأ في مصر مكانة الحامي أو الفصيل .
وقد تنبه مصطفى كامل إلى الدسيسة الخبيثة التي يتذرع بها الإنجليز ليوطدوا أركانهم في مصر ، بدعوى أنهم يحمون القبط واليهود والأجانب .
وأراد أن يبطل كيد الإنجليز ، فحرص على الوحدة بين المسلمين والأقباط ، وجهر بالدعوة إلى التآخي بينهما منذ سنة ١٨٩٦ .

قال في خطبة له بالإسكندرية : « إن لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون في الدين : إهاجة الأمة ، وإلقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين ، ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة ، عارفة بقيمة الاعتدال الديني ، وحسن معاملة الأوروبيين » (١) .

وفي سنة ١٨٩٧ . قال في خطبة له بالإسكندرية : « إن المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما إلى الأبد » .

(١) مصطفى كامل ٤٤٩ : الرافعي

وقرظت جريدة (الوطن) المسيحية هذه الخطبة ، وعلقت جريدة (المؤيد) على هذا التقرير بأنه إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك الخطبة الوطنية^(١) . وكرر دعوته في سنة ١٩٠٠ إذ خطب بالإسكندرية ، وجاء في خطبته قوله : « كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقاق والبغضاء ، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ؟ فالأقباط إخوة لنا في الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق ، وأكمل اتفاق »^(٢) .

ودل العمل والتطبيق على إخلاص الدعوة ، فقد ضم الحزب الوطنى العنصرين ، وقضت وحدتهما على الخلاف الموهوم الذى تذرعت به الدول للتدخل فى شئون مصر قبل الاحتلال ، ثم تذرعت به إنجلترا لتثبيت الاحتلال .

وعرف القبط لمصطفى كامل فضله ، قال مرقس حنا باشا فى تأييده يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٠٨ : « إنه كَوْن الوحدة الوطنية ، وأرانا طريق الإخاء والحرية ، فصار التآلف بيننا قاعدة ثابتة . وإن الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية ، وأن لا واجب عليها سوى خدمة مصر والمصريين »^(٣) .

وقفى على أثر مصطفى كامل خليفته محمد فريد . قال فى خطبة له بالإسكندرية سنة ١٩٠٨ : « انبذوا الشقاق والاختلاف الدينى ، وكونوا جميعا إخواننا ، أبناء وطن واحد ، أى كونوا مصريين قبل كل شيء »^(٤) .

ثم جاءت ثورة سنة ١٩١٩ فزادت المسلمين والقبط تماسكا واتحاداً .

ونمى سعد زغلول الوحدة بأقواله وأعماله .

(٢) لكن الإنجليز استطاعوا أن يعكروا الصفاء — إلى حين — سنة ١٩١١ ، وظهر الجفاء فى المؤتمر القبطى بأسسوط (مارس ١٩١١) ثم المؤتمر المصرى بمصر الجديدة (إبريل ومايو سنة ١٩١١) ردا عليه .

ولقد أشيع فى وقت المؤتمرين أن للمعتمد البريطانى السير إدون غورست هضعا فى الدعوة إليهما ، وثمة مظاهرو تؤيد ذلك^(٥) ، وقد كتب محمد فريد فى مذكراته

(١) مصطفى كامل ٩٨ الرافعى (٢) المرجع السابق ١٩٤٧ (٣) المرجع السابق ٤٣١

(٤) محمد فريد ٤٤٩ الرافعى (٥) محمد فريد ٢٤٤ الرافعى

« في أثناء حبسى شرع في المؤتمر المصري الذي جمعه محمد سعيد باشا ، بناء على رغبة السير إدون غورست ، لمحاربة الأقباط ، وبالتالي للتفريق بين الأقباط والمسلمين »^(١) وكان من الخير أن عدل الأقباط عن عقد مؤتمرهم الثاني ، وسمح المسلمون إلى الإخاء والصفاء .

ولم يكن لهذا الشقاق مظهر من قبل ، حتى إن السير إدون غورست يعترف في تقريره سنة ١٩٠٩ بأن قتل الورداني لرئيس النظار بطرس غالي كان مبعثه سياسياً صرفاً ، ولم يكن القاتل مدفوعاً بعامل التعصب الديني^(٢) .

دعوات شوقي إلى الوحدة

(١) بدأ شوقي دعوته إلى الوحدة منذ سنة ١٩٠٦ ، ففي حفل تكريم واصف غالي دعا القبط بأنهم بنو مصر لا أمة القبط ، لأن تسميتهم بالقبط تشبث بماض زال ، ودعوى جوفاء ، ولأن المسلمين والأقباط أمة واحدة منذ عشرات القرون ، وعزز هذه الوحدة بأننا جميعاً أبناء النيل ، ومن طينه ومائه ، وأننا جميعاً شركاء في الآلام . أما اختلاف الدين فلا يصح أن يكون عاملاً للفرقة والانقسام ، فالمسلم يتجه إلى الله ، والقبطي أيضاً يتجه إلى الله :

يا بني مصر ، لم أقل أمة القبط — ط فهذا تشبث بمحـال
واحتيال على خيال من الحجـد ودعوى من العراض الطوال
إنما نحن مسلمين وقبطا — أمة وُحِّدَتْ على الأجيال
سبق النيلُ بالأبوة فينا — فهو أصلُ وآدم الجسدُ تال
نحن من طينه الكريم على الـه — ومن مائه القراح الزلال
مرَّ ما مرَّ من قرون علينا — رُسُفًا في القيود والأغلال

.....

وإلى الله من مشى بصليب في يديه ومن مشى بهلال^(١)
وفي رثائه لبطرس غالي سنة ١٩١٢ حَضُّ على الوحدة ، ورفدَ حَضُّه بأن ذكر
بوشائخ من القربى والود بين المسلمين والقبط ، ودعا الجميع إلى أن يتساقوا كئوس
الحب ، وأن يتناصروا لحماية الوطن :

تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهدنا وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
ألم تك مصر مَهْدَنَا ثم لَحْدَنَا وبينهما كانت إِكْلٌ مغانيا؟
ألم نك من قَبْلِ المسيح بن مريم وموسى وطه نعبد النيل جاريا؟
فَهَلَّا تساقينا على حبه الهوى وهلا فديناه ضففا وواديا
وما زال منكم أهل ود ورحمة وفي المسلمين الخير ما زال باقيا^(٢)

ولم ينس في رثاء آخر له أن ينوه بجهوده في تآلف المسلمين والأقباط ، وأن
يذكر الأقباط بأن المسلمين يحلون المسيح إكراما لهم ، ويذكر المسلمين بأن الأقباط
يوقرون الإسلام ، ويذكرهم جميعاً بأن الدين لله ، ولو شاء ربك لجعلهم ملة واحدة ،
ثم ناشد القبط أن يخلصوا الود للمسلمين ، فدورهم متجاورة ، وقبورهم متقاربة ،
وعظام الموتى من المسلمين والأقباط قد اختلط بعضها ببعض في ثرى الوادى .

وليس لنا مأخذ على شوقي إلا في قوله إن المسلمين يُعلون تعاليم المسيح إكراماً
للقبط : لأن المسلمين يصدقون بعيسى عليه السلام ، ويحلون نسبه ، طاعة لدينهم
لا مرضاة للأقباط :

قد عشت تُحدثُ للنصارى ألفةً وتُجِدُّ بين المسلمين وثاما
واليوم فوق مشيد قبرك ميتاً وجَدَ الموفق المقال مقاما
الحق أبلغ كالصباح لناظر لو أن قوما حكّموا الأحلاما
أعهدتنا والقبط إلا أمة للأرض واحدة تروم مراما؟
نُعَلِي تعاليم المسيح لأجلهم ويوقرون لأجلنا الإسلاما

الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وُحِدَ الأَقواما
يا قوم هذى ربوعكم وتلك ربوعنا متقابلين تعالِج الأياما
هذى قبوركم وتلك قبورنا متجاورين جماجماً وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم عيشوا كما يقضى الجوار كراماً^(١)

(٢) وقد ذكر المسلمين والأقباط بقوة الاتحاد وبأس الإخاء في ثورتهم الرائعة سنة ١٩١٩ إذ استطاعوا أن يستردوا سعدا وصحبه من المنفى ، وهزموا بوحدهم إنجلترا المسلحة ، وكان نصرهم باكورة للنصر الذى نأمل أن يتلاحق ، كما كان انتصار المسلمين فى غزوة بدر فاتحة الغلب :

ما نسيت مصر لكم برها فى حازب الأمر وفى صعبه
مزقتم الوهم وألفتم أهلة الله على ضلله
حتى بنيتم هرماً رابعاً من فئة الحق ومن حزبه
يوم لكم يبقى (كيدر) على أنصار سعد وعلى صحبه^(٢)

(٣) وطالما دعا إلى التسامح الدينى ، وذكر الناس بأن الأديان كلها تحض على الخير ، وتنفر من الشر ، والتسامح الدينى ضرب من ضروب الخير .
قال فى سنة ١٩٠٨ :

الدين لله من شاء الإله هدى لكل نفس هوى فى الدين داعيها
ما كان مختلف الأديان داعية إلى اختلاف البرايا أو تعاديها
الكتب والرسل والأديان قاطبة خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
حجة الله أصل فى مرادها وخشية الله أس فى مبانيها
وكل خـ ير يلقى فى أوامرها وكل شر يوقى فى نواهيها
تسامح النفس معنى من مروءتها بل المروءة فى أسمى معانيها

تَخْلُقُ الصَّفْحَ تَسْعُدُ فِي الْحَيَاةِ بِهِ فَالنَّفْسُ يَسْعِدُهَا خُلُقٌ وَيَشْقِيهَا^(١)
وَأَرَادَ أَنْ يَشَبَّ النَّشْءَ عَلَى التَّسَامُحِ الدِّينِيِّ وَعَلَى الْوَحْدَةِ فَجَبَّهَا إِلَيْهِمْ فِي أَحَدٍ أَنْشِيدِهِ :
جَعَلْنَا مَصْرَ مَلَّةَ ذِي الْجَلَالِ وَأَلْفَنَّا الصَّلِيبَ عَلَى الْهَلَالِ
وَأَقْبَلْنَا كَصَفِّ مَنْ عَوَالٍ يَشُدُّ السَّمْهَرِيُّ السَّمْهَرِيَا^(٢)
(٤) وَكَانَ شَوْقِي يَأْخُذُ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ بِالتَّسَامُحِ الدِّينِيِّ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ ، فَقَدْ رُثِيَ بَعْضُ
الْقَبْطِ كَمَا رُثِيَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ . رُثِيَ بَطْرُسُ غَالِي بِأَشَا^(٣) وَعَزَى الْقَبْطُ فِيهِ أَجْمَلُ عَزَاءٍ ،
وَأَيُّ عَزَاءٍ أَجْلٌ وَأَطْيَبُ مِنْ قَوْلِهِ :

بَنَى الْقَبْطُ إِخْوَانَ الدَّهْورِ رَوَيْدَكُمْ هَبُّوهُ (يَسُوعَا) فِي الْبَرِيَةِ ثَانِيَا
حَمَلْتُمْ لِحُكْمِ اللَّهِ صَلْبَ ابْنِ مَرْيَمَ وَهَذَا قَضَاءُ اللَّهِ قَدْ غَالِ غَالِيَا
وَرُثِيَ جَرَجِي زِيدَانُ وَأَشَادَ بِمُؤَلَّفَاتِهِ الْقِيَمَةِ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ وَأَدَابِ اللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ^(٤) .

وَرُثِيَ يَعْقُوبُ صُرُوفٌ وَنُوهُ بِخِدْمَاتِهِ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ^(٥) .
وَهَلَّلَ بَعِيدَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ فِي احْتِفَائِهِ بِالْعِيدِ الْهَجْرِيِّ سَنَةِ ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م)
عِيدَ الْمَسِيحِ وَعِيدَ أَحْمَدَ أَقْبَلَا يَتَبَارَيَانِ وَضَاءَةً وَجَمَالَا
مِيلَادَ إِحْسَانَ وَهَجْرَةَ سُودَدَ قَدْ غَيْرَا وَجْهَ الْبَسِيطَةِ حَالَا^(٥)
وَطَالَمَا ضَرَبَ الْمَثَلَ بِالسَّيِّدِ الْمَسِيحِ فِي حَنَانِهِ وَتَوَاضَعِهِ وَإِشَارَةِ السَّلَامِ ، كَقَوْلِهِ
فِي تَوَلُّسْتَوَى :

تَطُوفُ كَعِيسَى بِالْحَنَانِ وَبِالرِّضَا عَلَيْهِمْ وَتَغْشَى دُورَهُمْ وَتَزُورُ^(٦)
وَلَمْ يَنْسَ فِي تَوَدِّعِهِ الْآسْتَانَةَ فِي عَهْدِ السَّلْطَانِ مُحَمَّدِ رَشَادٍ أَنْ يَدْعُو إِلَى التَّسَامُحِ الدِّينِيِّ :
أَدَارَ مُحَمَّدٍ وَتَرَاثَ عِيسَى لَقَدْ رَضِيَاكَ بَيْنَهُمَا مُشَاعَا
فَهَلْ نَبَذَ التَّعَصُّبَ فَيْكَ قَوْمَ يَمُدُّ الْجَهْلُ بَيْنَهُمُ النِّزَاعَا؟^(٧)

(١) الشوقيات ٣٦١/١	(٢) الشوقيات ١٧٠/٤	(٣) الشوقيات ٣٩/٤
(٤) الشوقيات ١٣٥/٣	(٥) الشوقيات ٣٢/٣	(٥) الشوقيات ٢٣١/١
(٦) الشوقيات ٨٩/٣	(٧) الشوقيات ١٨٢/١	

وكان لبقا حصيفاً في قصيدته (مسجد أياصوفيا) إذ جعل الكنيسة التي صارت
مسجداً هدية من السيد إلى السيد ، من المسيح إلى أخيه محمد عليهما السلام :
كنيسة صارت إلى مسجد هدية السيد للسيد
كانت لعيسى محرماً فانتهد بنصرة الروح إلى أحمد^(١)
وعجب من تسابق الدول الغربية إلى إشعال الحروب وهي تدين بالمسيحية ، وتعلم
أن عيسى كان رسول محبة وسلام ، وأعجب العجب أن تشب الدول بعض حروبها
باسم المسيحية ، والمسيحية من هذا العدون براء :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك السماء ولا امراً هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الوري كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذي جعل العباد جميعهم رَحماً وباسمك تقطع الأرحام
أتت القيامة في ولاية يوسف واليوم باسمك مرتين تقام

.....

واليوم يهتف بالصليب عصائب هم للإله وروحـــــــــه ظلام
خلطوا صليبك والخناجر والمدي كل أداة للأذى ورحمهم
وأخذ يفصل وحشية البلغار وما اجتروحوا سنة ١٩١٢ في أدرنة المسلمة^(٢)
وكرر أساءه من حال العالم الغربي في رثائه لتولستوي^(٣) وفي ذكرى شكسبير^(٤).
موازنا :

شارك شعراء آخرون في الدعوة إلى الوحدة، بنصيب أضال من نصيب شوقي ،
قال إسماعيل صبرى في الفتنة التي نجمت سنة ١٩١١ :
معشر القبط يابني مصر في السرّاء قد كنتم وفي الضراء

.....

خففوا من صياحكم ليس في مصر — ر لأبناء مصر من أعداء

دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد بأمرنا بالإشهاد
مصر أتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملك لنا إذا ما تماسكنا وإلا فقصر للغرباء^(١)

وجزع حافظ إبراهيم من هذه الفتنة ، فاستغاث بالخدوي عباس أن يدرأها :

مولاي أمتك الوديفة أصبحت وعرا المودة بينهما تنقسم
نادى بها القبطى مله لهاته أن لا سلام وضاق بها المسلم
وهم أغار على النهى وأضلها فجرى الغي وأقصر المتعلم
ماذا دهى قبطى مصر قصده عن ود مسلمها وماذا ينقم ؟

وعلام يخشى المسلمين وكيدهم والمسلمون عن المكاييد نوم ؟
قد ضمنا ألم الحية ————— يشكو فنحن على السواء وأتم
إني ضمن المسلمين جميعهم أن يخلصوا لكم إذا أخلصتم

إلى أن يقول للخدوي عباس :

واجمع شتات العنصرين بدمه تأتى على هذا الحلاف وتحسم^(٢)
وأشاد بالوحدة محمد عبد المطلب فى قصيدة منها .

بنينا على آداب عيسى وأحمد منازل عز دونها يقع النسر
كلانا على دين به هو مؤمن ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذا مادعت مصر ابنها نهض ابنها لتجدتها مسيان مرقس أو عمر
ترى ذكر مصر فى الهياكل قرينة وفى صلوات المسلمين لها ذكر^(٣)

وندد ولى الدين يكن بالفرقة ، ودعا إلى الوحدة والآلفة ، وجعلهما هما الورع :

أبنى المسيح وأحمد انتبهوا ودعوا رجلا منكم هجّوا
جاءوا الورى والأمر ملتئم ثم اتشوا والأمر منصدع
لم يرض أحمد والمسيح بما صنعوا ، فلا ترضوا بما صنعوا

(١) ديوان إسماعيل صبرى ١٨٠ (٢) ديوان حافظ إبراهيم ٢٩١/١ (٣) ديوان محمد عبد المطلب

أرواحكم من بعضها قطع وجسومكم من بعضها بضع
لا تحسبن خلافاً لكم ورعاً إن اختلفكم هو الورع^(١)

وكذلك فعل الرصافي في العراق :

أما آن أن تنسى من القوم أضغان أما آن أن يرمى التخاذل جانباً
علام التعادى لاختلاف ديانة وما ضرَّ لو كان التعاون ديننا
إذا جمعنا وحرمة وطنية فمن قام باسم الدين يدعو مفرقاً
أنشقى بأمر الدين وهو سعادة أجب أيها الندب المسيحي مسلماً
فلا تحرماً للأوطان أن تتحالفوا ألا فانمضوا نحو العدا وكلاهما
فبني على أس المؤاخاة بنيان فتكسب عزاً بالتناصر أوطان
إن التعادى في الديانة عدوان فتعمر بلدان وتأمين قطن
فاذا علينا أن تعدد أديان ؟ فدعواه في أصل الديانة بهتان
إذا فاتباع الدين ياقوم خسران صفالك منه اليوم سر وإعلان
يدا يسد حتى تؤكد أيمان لصاحبه في المأزق الضنك معوان^(٢)

ولكن شوقي يفوقهم جميعاً في كثرة دعواته ، وبراعة استهلالته ، وقدرته على إبراز
آثار الاتحاد ، هذا إلى طريقته الفنية التي اختص بها وامتناز .